

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جواهر الصناعة
في جمع شروحها البلاغة



٤١٤.

ح ٥٩٩ الحسنّي، نبيل قدوري.

جواهر الصاغّة في جمع شروح نهج البلاغّة/ نبيل قدوري الحسنّي الكربلائيّ. - ط ١ - كربلاء:
مؤسّسة علوم نهج البلاغّة، ٢٠٢٥.

ج ١١ (٣١٦ ص.)؛ ٢٤ سم.

١. البلاغّة العربيّة.

٢. عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) - الإمام الأوّل.

رقم الإيداع: ٣٩٢٦ / ٢٠٢٥. أ. العنوان.

المكتبة الوطنيّة / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٣٩٢٦ لسنة ٢٠٢٥

BP193.1 A85 2025

العتبة الحسينيّة المقدّسة. مؤسّسة علوم نهج البلاغّة - مؤلّف.

جواهر الصاغّة في جمع شروح نهج البلاغّة: خطبة التوحيد/ الإعداد والإخراج شعبة الشؤون العلميّة
والفكريّة: المراجعة والتعليق السيد نبيل الحسنّي الكربلائيّ. - الطبعة الأولى. - كربلاء، العراق: العتبة
الحسينيّة المقدّسة، مؤسّسة علوم نهج البلاغّة، ٢٠٢٥ / ١٤٤٧ للهجرة.

مجلد ٢٤ سم. - (العتبة الحسينيّة المقدّسة: ١٦٧٥)، (مؤسّسة علوم نهج البلاغّة: ٢٤٢)، (سلسلة دراسات

شروح نهج البلاغّة: ٤).

يتضمن إرجاعات بيبليوجرافيّة.

تبصرة محتويات:

المجلد ١. المدخل إلى نهج البلاغّة - المجلد ٢. دراسة مقدمات شرح نهج البلاغّة - المجلد ٣. شرح مقدّمة
الشريف الرضيّ - المجلد ٤. حمد الله والثناء عليه: المجلد ٥. التوحيد والصفات الإلهيّة - المجلد ٦. نشأة الخلق -
المجلد ٧. ملائكة السماوات العلا - المجلد ٨. صفة خلق آدم (عليه السلام) - المجلد ٩. سجود الملائكة لأدم (عليه
السلام) - المجلد ١٠. اصطفاء الأنبياء (عليهم السلام) والغاية من بعثهم - المجلد ١١. بعثة النبي (صلى الله عليه
واله وسلم) - المجلد ١٢. القرآن خليفة النبي (صلى الله عليه وآله) الأكبر في امته - المجلد ١٣. فريضة الحج
وأثارها في الإسلام - المجلد ١٤. الفهارس.

١. الشريف الرضيّ، محمد بن الحسين، ٣٥٩-٤٠٦ للهجرة - نهج البلاغّة. ٢. علي بن أبي طالب (عليه السلام)

الإمام الأوّل، ٢٣ قبل الهجرة - ٤٠ للهجرة - حديث. ٣. البلاغّة العربيّة. أ. شرح ل(عمل): الشريف الرضيّ، محمد
بن الحسين، ٣٥٩-٤٠٦ للهجرة - نهج البلاغّة. ب. نهج البلاغّة.

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابعة لقسم الشؤون الفكريّة والثقافيّة في العتبة
الحسينيّة المقدّسة.

جواهر الصناعة في جمع شروح نهج البلاغة

البیهقي (٥٦٥هـ) الراوندي (٥٧٣هـ) الكيدري (٦٠٠هـ) المعتزلي (٦٥٦هـ)
البحراني (٦٧٩هـ) الخوي (٣٢٤هـ) مغنية (٤٠٠هـ) الشستري (٤١٦هـ)
التقوي (٤٤٠هـ) ناصر الشيرازي

الخطبة الأولى

الجزء الحادي عشر

بعث النبي

الإعداد والإخراج
شعبة الشؤون العلمية والفكرية

المراجعة العلمية والتعليق

السيدان ذيل الدين والكراني

إصدار

مؤسسة علوم نهج البلاغة

جميع الحقوق محفوظة

للعتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ / ٢٠٢٥م



العراق: كربلاء المقدسة - العتبة الحسينية المقدسة

مؤسسة علوم نهج البلاغة

www.inahj.org

Email: inahj.org@gmail.com

موبايل: ٠٧٨١٥٠١٦٦٣٣ - ٠٧٧٢٨٢٤٣٦٠٠

الإهداء:

إلى مَنْ صَلَّى عليه الله وملائكته في مُحْكَمِ كتابه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

إلى مَنْ صَلَّى عليه الوصيُّ (عليه السلام)، قائلًا:

«اللَّهُمَّ دَاحِيِ الْمَدْحُوَّاتِ وَدَاعِمِ الْمَسْمُوكَاتِ، وَجَابِلِ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِهَا شَقِيهَا وَسَعِيدِهَا، اجْعَلْ شِرَافِ صَلَوَاتِكَ، وَنَوَامِي بَرَكَاتِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَالْمُعَلِّمِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ وَالِدَّافِعِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ، وَالِدَّامِعِ صَوْلَاتِ الْأَضَالِيلِ، كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ قَانِمًا بِأَمْرِكَ مُسْتَوْفِرًا فِي مَرْضَاتِكَ، غَيْرَ نَاكِلٍ عَنِ قَدَمٍ وَلَا وَاهٍ فِي عَزْمٍ، وَاعِيًا لَوْحِيكَ حَافِظًا لِعَهْدِكَ، مَاضِيًا عَلَى نَفَازِ أَمْرِكَ حَتَّى أَوْزَى قَبَسَ الْقَابِسِ، وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ، وَهُدَيْتَ بِهِ الْقُلُوبَ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ وَالْآثَامِ، وَأَقَامَ بِمُوضِحَاتِ الْأَعْلَامِ وَنِيَرَاتِ الْأَحْكَامِ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ وَبِعِيْثِكَ بِالْحَقِّ، وَرَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ.

اللَّهُمَّ أفسَحْ لَهُ مَفْسَحًا فِي ظِلِّكَ، واجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ، اللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ وَأَتِمِّمْ لَهُ نُورَهُ، واجْزِهِ مِنْ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولِ الشَّهَادَةِ، مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ وَخُطْبَةٍ فَضْلٍ، اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ وَقَرَارِ النِّعْمَةِ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ وَأَهْوَاءِ اللَّذَاتِ، وَرَحَاءِ الدَّعَةِ، وَمُنْتَهَى الطُّمَأْنِينَةِ وَتُحَفِ الْكِرَامَةِ»^(١).

إلى: سيدي ومولاي وجددي رسول الله ﷺ أهدى هذا الجهد.

خادمك وولدك نبيل

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٧١، ج ١ / ص ٢٩٢ بتحقيق أ. د صلاح الفرطوسي.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهِ النَّوَظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَابِرُ»^(١)، «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ، أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ وَظُهُورِ الْفَلَاحِ وَإِضْاحِ الْمَنْهَجِ، فَبَلَغَ الرَّسَالََةَ صَادِعًا بِهَا، وَحَمَلَ عَلَى الْمَحْجَّةِ دَالًّا عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْإِهْتِدَاءِ وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً، وَعُرَى الْإِيمَانِ وَثِيقَةً»^(٢) وَأَشْهَدُ أَنَّ أَهْلَ بَيْتِهِ «هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ وَعِمَادُ الْيَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ»^(٣)، فَصَلَّوْا لَهُ التَّمَامَاتُ الرَّكَائِيَاتُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أما بعد:

يختصُّ هذا الجزء من موسوعة جواهر الصاغة بالمبحث الثامن من خطبة التوحيد والذي خُصَّص لدراسة النصِّ الشريف المتعلق بـ (بعث النبي صلى الله عليه وآله) وذلك وفقاً للمنهج المعتمد والذي مرَّ بيانه مفصلاً في الجزء الأوَّل من المقدمة العلميَّة للموسوعة.

ومن ثمَّ فقد تناول البحث ما اشتمل عليه النصُّ الشريف -مورد الدراسة- من معارف عقديَّة وفكريَّة ودلاليَّة وغيرها، استلزمت تقسيمه إلى

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥، بتحقيق الدكتور صلاح الفرطوسي: ١٦٣/٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٥/٢.

(٣) نهج البلاغة الخطبة الثانية، بتحقيق الدكتور صلاح الفرطوسي: ١٩٠/١.

ثلاثة أقسام؛ فأما الأول: فخصص للمدخل إلى النص الشريف، وقد اشتمل على أربع مسائل، الأولى: سَنَدُ النَّصِّ الشَّرِيفِ الْمُخْتَصِّ بِبَعْثِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، أما المسألة الثانية: فتعلّق بمصادر النص الشريف، والثالثة: مقدّمة الشُّرَاحِ، والرابعة: رؤوس الموضوعات التي اشتمل عليها كلام الإمام أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام).

أما القسم الثاني: فخصص لما أورده الشُّرَاحُ من بيانٍ وتوضيحٍ لمعارفٍ مبحث (بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) والذي يبدأ من قوله (عليه السلام): «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سَبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ» وينتهي بقوله: «فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»، وقد اشتمل على سبعة مطالب، تفرّعت إلى ثلاثة حقول معرفيّة، وهي: اللُّغَةُ، والإِعْرَابُ، والشرح.

أما القسم الثالث من دراسة النص الشريف، فقد خصص للخاتمة والتناج، وقد اشتمل على مسألتين، الأولى: بيان ما تضمّنه المبحث من خاتمة لدى الشُّرَاحِ، والثانية: بالتناج التي تمخّضت عنها التعليقات على مطالب النص الشريف، وبيان أبرز ما جاء فيها، وبذلك نكون قد تتبّعنا ما تعلّق بالنص الشريف -موضع الدراسة- وفق المنهج المعتمد.

فإن أصبتُ فذلك مبلغ علمي ومقدار رزقي من التوفيق ﴿نَزَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^(١)، والله ولي التوفيق، ومنه ومن رسوله (صلى الله عليه وآله) نسأل المزيّد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾^(٢).

(١) يوسف، الآية: ٧٦.

(٢) التوبة، الآية: ٥٩.

اللَّهُمَّ إِنَّا إِلَيْكَ وَإِلَى رَسُولِكَ رَاغِبُونَ وَلِفَضْلِكَمَا مَلْتَمِسُونَ؛ ﴿وَمَا تَوْفِيقِي
إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١)، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ﴾^(٢)؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى فَضْلِهِ وَفَضْلِ رَسُولِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ).

المشرف بالخدمتين

العتبة الحسينية المقدسة وكتاب نهج البلاغة

السيد نبيل الحسيني الكربلائي

(١) هود، الآية: ٨٨.

(٢) البقرة، الآية: ١٢٧.

المبحث السابع: بعثة النبي ﷺ.

قال أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام):

«إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَتَمَامِ نُبُوتِهِ^(١)، مَا أَخُوذًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُ، مَشْهُورَةً^(٢) سَمَاتُهُ، كَرِيمًا مِيلَادُهُ؛

(١) «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ وَتَمَامِ نُبُوتِهِ» هكذا ورد في: منهاج البراعة، الراوندي: ١ / ٨٤. (مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَإِتْمَامِ نُبُوتِهِ) هكذا ورد في: شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ١ / ١١٦. «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا (ص) لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَإِتْمَامِ نُبُوتِهِ» هكذا ورد في: شرح نهج البلاغة، البحراني: ١ / ١٩٩. «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَتَمَامِ نُبُوتِهِ» هكذا ورد في: منهاج البراعة، الخوئي: ٢ / ١٦١. «مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ (ص) لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَتَمَامِ نُبُوتِهِ» هكذا ورد في: في ظلال نهج البلاغة، مغنية: ١ / ٦١. «مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَإِتْمَامِ نُبُوتِهِ» هكذا في: بهج الصباغة، التستري: ٢ / ١٢٦، نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ٤٤. «مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَإِتْمَامِ نُبُوتِهِ»، هكذا ورد في: نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ٤٤، نفحات الولاية، الشيرازي: ١ / ١٤٩. «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَإِتْمَامِ نُبُوتِهِ» هكذا ورد في: مفتاح السعادة، النقوي: ١ / ٣٨٣-٣٨٤.

(٢) (مَشْهُورَةً) هكذا في مفتاح السعادة، النقوي: ١ / ٣٨٤.

وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مَلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَشِيرَةٌ، وَطَرَائِقُ (١) مُتَشَتَّةٌ (٢)،
 بَيْنَ مُشَبِّهِ لِه بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحَدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَذَا هُمْ (٣) بِهِ مِنْ
 الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ. ثُمَّ اخْتَارَ سَبْحَانَهُ لِحَمْدِ (صَلَّى اللهُ
 عَلَيْهِ وَآلِهِ) (٤) لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، فَأَكْرَمَهُ (٥) عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ
 بِهِ عَنْ مُقَارَنَةِ (٦) الْبُلُوَى، فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (٧) (٨).

- (١) (وَطَوَائِفُ) هكذا ورد في: شرح نهج البلاغة، البحراني: ١/١٩٩، في ضلال نهج
 البلاغة، مغنية: ١/٦١، بهج الصباغة، التستري: ٢/١٢٦.
- (٢) (مُتَشَتَّةٌ) هكذا في: مفتاح السعادة، النقوي: ١/٣٨٤.
- (٣) (فهديم) هكذا في: منهاج البراعة، الخوئي: ٢/١٦١.
- (٤) (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ) هكذا ورد في: شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ١/١١٦، في ضلال نهج
 البلاغة، مغنية: ١/٦١. (ص) هكذا ورد في: شرح نهج البلاغة، البحراني: ١/١٩٩،
 بهج الصباغة، التستري: ٢/١٢٦، مفتاح السعادة، النقوي: ١/٤٩٦، نهج البلاغة،
 تحقيق: صبحي الصالح: ٤٤.
- (٥) (وأكرمه) هكذا في: شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ١/١١٦، شرح نهج البلاغة، البحراني:
 ١/١٩٩، في ضلال نهج البلاغة، مغنية: ١/٦١، بهج الصباغة، التستري: ٢/١٢٦،
 نفحات الولاية، الشيرازي: ١/١٤٩، نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ٤٤.
- (٦) (مَقَام) هكذا وردت في: منهاج البراعة، الراوندي: ١/٨٤، وشرح نهج البلاغة،
 المعتزلي: ١/١١٦، وشرح نهج البلاغة، البحراني: ١/١٩٩، في ضلال نهج البلاغة،
 مغنية: ١/٦١، نفحات الولاية، الشيرازي: ١/١٤٩، ونهج البلاغة، تحقيق: صبحي
 الصالح: ٤٤.
- (٧) (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ) هكذا ورد في: نهج البلاغة، تحقيق: العطار: ٧٧. وليست
 في: شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ١/١١٦. (ص) هكذا ورد في: شرح نهج البلاغة،
 البحراني: ١/١٩٩، بهج الصباغة، التستري: ٢/١٢٦، نفحات الولاية، الشيرازي:
 ١/١٤٩، نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ٤٤.
- (٨) نهج البلاغة، تحقيق: د. صلاح مهدي الفرطوسي: ١/١٨٣-١٨٤.

القسم الأول:

« المدخل إلى المبحث »

المسألة الأولى: سند النص:

لم أعر على سندٍ مستقلٍّ للنصّ -مورد البحث- والمتعلّق ببعث النبيّ (صلى الله عليه وآله) فيما توافر لدي من مصادر؛ مما يُرشد إلى أنه لم يردّ بنحوٍ منفردٍ من خطبة التوحيد.

المسألة الثانية: موارد النصّ ومصادره:

تناول بعض أعلام التفسير والأدب النصّ الشريف -مورد البحث- أو بعضاً من ألفاظه في مصنّفاتهم، والتي انحصرت فيما بعد عصر الشريف الرضيّ (رحمه الله)، فسنوردها بحسب تسلسلها الزمنيّ إلى القرن الحادي عشر؛ وهي على النحو الآتي:

١ - الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: تصنيف يحيى بن حمزة بن عليّ بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبيّ الملقّب بالمؤيد بالله (ت: ٧٤٥) وذكرها بقوله (عليه السلام): «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِإِنجَازِ عِدَّتِهِ، وَإِتِّسَامِ نُبُوتِهِ، مَاخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُ، مَشْهُورَةً سَاءَتْهُ، كَرِيماً مِيْلَادُهُ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مَلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَشِرَّةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ، ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَن دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ عَن

مَقَامِ الْبَلْوَى، فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»^(١).

٢- تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم: تصنيف السيد حيدر الأملي (ت: ٧٨٢هـ)، وقد تناول هذا المبحث بالكامل فذكر قوله (عليه السلام): «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَإِتِّسَامِ نُبُوتِهِ، مَاخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِثَاقَهُ، مَشْهُورَةً سَمَاتُهُ، كَرِيمًا مِيلَادُهُ؛ وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مَلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَشَرَّةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتَّةٌ، بَيْنَ مُشَبَّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحَدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ.

ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ الْبَلْوَى، فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»^(٢).

٣- الأصول الأصلية: تصنيف الفيض الكاشاني (ت: ١٠٩١هـ) وقد ذَكَرَ كَجَزَاءٍ مِنَ النَّصِّ فِي الْخُطْبَةِ الْأُولَى فِي وَصْفِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): «فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَّهَاتِهِمْ؛ إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلًا بَغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ، وَلَا عَلِمَ قَائِمِ كِتَابِ رَبِّكُمْ مُبَيِّنًا حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ، وَفَرَائِضَهُ وَفَضَائِلَهُ، وَنَاسِخَهُ وَمُنْسُوخَهُ، وَرُخَصَهُ وَعَزَائِمَهُ، وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ، وَعِبْرَهُ وَأَمْثَالَهُ، وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ، وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ، مُفَسِّرًا مُجْمَلَهُ، وَمُبَيِّنًا غَوَامِضَهُ بَيْنَ مَاخُودٍ مِثَاقِ عِلْمِهِ، وَمُوسِعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ، وَبَيْنَ مُثَبَّتٍ فِي الْكِتَابِ فَرَضِهِ، وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسِخَهُ، وَوَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذَهُ، مُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ، وَبَيْنَ وَاجِبٍ لَوْفَتِهِ، وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ، وَمُبَايِنٍ بَيْنَ حَاكِمِهِ،

(١) الطراز لأسرار البلاغة: ١٣٨/٢.

(٢) تفسير المحيط الأعظم: ١٥٢/٢.

مَنْ كَبِيرٍ أَوْ وَعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ، أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ، وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ
وَمَوْسَعٍ فِي أَقْصَاهُ»^(١).

٤- بحار الأنوار: تصنيف العلامة المجلسي (ت: ١١١١ هـ)، وقد أورد من
النص الشريف قوله (عليه السلام): «قال عليه السلام في خطبة طويلة يذكر
فيها بعثة الأنبياء (عليهم السلام) قال (عليه السلام):

«إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِإِنْبِجَازِ عِدَّتِهِ، وَتَمَامِ
نُبُوتِهِ، مَا أَخُوذًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُ، مَشْهُورَةً سَمَاتُهُ، كَرِيمًا مِيلَادُهُ؛ وَأَهْلُ الْأَرْضِ
يَوْمَئِذٍ مِلْلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَشَرِّعَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ
مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ
مِنَ الْجَهَالَةِ ثُمَّ اخْتَارَ سَبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا
عِنْدَهُ، فَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مُقَابَلَةِ^(٢) الْبَلْوَى، فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ
كَرِيمًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»^(٣).

المسألة الثالثة: مقدمة الشراح للنص:

أولاً- البحراني:

قال: «قال (عليه السلام): (إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَآلِهِ) إِلَى قَوْلِهِ (مِنَ الْجَهَالَةِ)، اعلم أنه (عليه السلام) ساق هذه الخطبة من
لدى آدم (عليه السلام) إلى أن انتهى إلى محمد (صلى الله عليه وآله) كما هو

(١) الأصول الأصيلية: ٤٥-٤٦.

(٢) هكذا في بحار الأنوار ج ١٨، أما في ج ٨٩ فهكذا: (مقام).

(٣) بحار الأنوار: ٢١٦/١٨-٢١٧، وفي ٣٣/٨٩.

الترتيب الطبيعي؛ إذ هو الغاية من طينة النبوة وخاتم النبيين كما نطق به القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(١)، ثم شرع بعد ذلك في التنبيه على كيفية اهتداء الخلق به وانتظام أمورهم في معاشهم ومعادهم بوجوده؛ كل ذلك استدراج لأذهان السامعين، وتمهيد لما يريد أن يُقرره عليهم من مصالح دينية أو دنيوية^(٢).

ثانياً- النقوي:

قال: «بعد شرح ما مضى من خلق السموات والملائكة وكيفية خلق آدم واصطفائه من ولده أنبياء، شرع في كيفية بعثه النبي (صلى الله عليه وآله) وميلاده وسائر ما وقع في زمانه، فقال (عليه السلام): (بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا)، قضاء لوعده جَلَّ جَلَّاهُ، وإتماماً لنبوته (صلى الله عليه وآله)، والحال أنه قد أخذ من الأنبياء ميثاقه بأن يُصدِّقوه على النبوة، وعلامات النبوة أيضاً فيه موجودة؛ فهو (صلى الله عليه وآله) كريم الميلاد لأنه ولد بمكة المكرمة في بيت الشرف والكرم؛ وهو بيت هاشم، وأهل الأرض حين بعثه كانوا ملأاً متفرقة؛ من يهود أو نصارى أو مجوس أو غيرها، فطائفة من الناس كانت من المشبهين، وطائفة من الملحدّين، فهدهم النبي (صلى الله عليه وآله) من الضلالة، ونجّاهم من ظلمات الجهل والغواية.

أقول^(٣): في هذا الفقرات من الخطبة أشار (عليه السلام) إلى جهات عديدة، وقبل الشروع فيها لا بُدّ لنا من إثبات النبوة الخاصة، وقبل الخوض

(١) الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢٠٤/١.

(٣) القول للنقوي.

فيها نشير إلى بعض ما لا بُدَّ منه في المقام من باب المقدّمة، فنقول:
 (النبوة مشتقّ من النبأ وهو الخبر، يُقال: أنبأته به أي أخبرته^(١))، قال الله
 تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ﴾^(٢)، وهو نبأ يوم القيامة، والبعث
 وقيل أمر الرسالة، وعلى أيِّ حالٍ معناه: الحَبْر العظيم^(٣)، ومثله قوله تعالى:
 ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾^(٤).

والنبيُّ هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بغير واسطة بشر^(٥)، سواء كانت
 له شريعة كمحمّد (صلّى الله عليه وآله) أو ليست له شريعة كيحيى وزكريّا
 وإدريس وهود وصالح وأمثالهم، فالنبيُّ إمّا مأخوذ من الإنباء وهو الإخبار
 عنه تعالى؛ بمعنى أنّه سُمِّيَ به لأنّه المخبر ففعيل بمعنى مُفْعِل، وإمّا مأخوذ
 من النبوة والنبأوة لما ارتفع من الأرض؛ والمعنى أنّه ارتفع وشرّف على سائر
 الخلق فأصله غير الهمزة^(٦)، وكلا المعنيين يصدقان على النبيِّ؛ فإنّه مُحْبَرٌ عنه
 تعالى وأعلى وأشرف من جميع المخلوقات، والرسول أيضًا مُحْبَرٌ عنه تعالى إلاّ
 أنّه يفترق عن النبيِّ بأمور:

الأوّل: إنّ الرسول مأخوذ من الرّسالة وهي مصدر رَسَلَ الشيء، رَسَلًا
 ورسالة، وأصل الرّسَل الانبعاث على التّؤدة، يقال: ناقة رسالة، أي سهلة

(١) ينظر: الصحاح، الجوهري: ٥ / ٣٨٤، مادة (نبأ)، لسان العرب، ابن منظور: ١ / ١٦٣،
 مادة (نبأ).

(٢) النبأ، الآية: ١ - ٢.

(٣) ينظر: التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: ٨ / ٥٧٩.

(٤) ص، الآية: ٦٧ - ٦٨.

(٥) المقتصر في شرح المختصر، ابن فهد الحلي: ٢١.

(٦) ينظر: مجمع البحرين، الطريحي: ١ / ٤٠٥، مادة (نبأ).

السير، ومنه الرسول المنبعث، وتُصوّر منه تارةً الرّفق، ف قيل: على رِسلك إذا مرته بالرّفق، وتارة الانبعاث فَاشْتَقُّ منه الرُّسول، والرّسول تارةً يُقال للقول المتحمّل كقول الشاعر:

أَلَا أبلِغُ أبا حَفْصِ رَسولًا

وتارةً لمتحمّل القول والرسالة، والرسول يُقال للواحد والجمع؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾^(١)، وقال الله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا...﴾^(٢)، قال الشاعر:

الكني وخير الرّسول اعلمهم بنواحي الخبر

وجمع الرسول، رُسل، ورُسل الله تارةً يُراد بها الملائكة، وتارةً الأنبياء، فمن الأوّل قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لَوْ طُ إِنَّا نُرْسِلُ رَبِّكَ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءًا﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾^(٦).

وغير ذلك من الآيات التي أُريدَ بالرسول المَلَك، بلا خلاف.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

(١) التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) الشعراء، الآية: ١٦.

(٣) الحاقة، الآية: ٤٠.

(٤) هود، الآية: ٨١.

(٥) هود، الآية: ٧٧.

(٦) العنكبوت، الآية: ٣١.

(٧) آل عمران، الآية: ١٤٤.

الرَّسُولَ بَلَّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴿١﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (٢). والإرسال لا يختص بالله تعالى بل قد يُطلق على غيره؛ كقوله تعالى حكايةً عن فرعون: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ (٣)، وقد يكون منه تعالى من دون بشرٍ ومَلِكٍ؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ (٤)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسُّوهُمْ أَرْزَاقًا﴾ (٥)، (٦) هذا هو الفرق بينهما بحسب اللُّغة وموارد الاستعمال.

وأما بحسب الاصطلاح، فالرسول يفترق عن النبيِّ بأمرٍ:

الأوَّل: إنّ الرسول هو المُخْبِرُ عن الله بغير واسطة أحدٍ من البشر (٧).

والنبيُّ يرى في منامه ويسمع الصوتَ ولا يرى المَلِكَ، والرسول يرى في منامه ويسمع الصوتَ ويُعَايِنُ المَلِكَ (٨)، وإلاّ فمن حيث الإخبار عنه تعالى بدون واسطة البشر هما سيّان (٩).

الثاني: إنّ الرسول لا بُدَّ من أن تكون له شريعة إمّا مبتدئة كآدم أبي البشر، أو ناسخة كمحمّد (صلى الله عليه وآله)، والنبيُّ ليست له شريعة (١٠).

(١) المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) المؤمنون، الآية: ٥١.

(٣) الأعراف، الآية: ١١١.

(٤) الأنعام، الآية: ٦.

(٥) مريم، الآية: ٨٣.

(٦) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ١٩٥، مادة (رسل).

(٧) ينظر: الرسائل العشر، الطوسي: ١٠٣.

(٨) ينظر: الكافي: ١/١٧٦.

(٩) سيّان: مثلان. جمهرة اللُّغة، ابن دريد: ١/١٣٦، مادة (سي).

(١٠) ينظر: البناية شرح الهداية، العيني: ١/١١٦.

الثالث: إن الرسول قد يكون من الملائكة وقد يكون من الإنسان، والنبى لا يكون إلا من البشر، فعلى هذا كل رسول فهو نبى وليس كل نبى رسولاً^(١). هذا، إذا عرفت ما تلوناه عليك من الفرق بين الرسول والنبى فلنرجع إلى ما نحن بصدده من إثبات النبوة الخاصة، اعني نبوة نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) على كافة الخلق ورسالته على عامة الموجودات والاستدلال عليها بالعقل والنقل.

أما العقل فمن وجوه:

الأول: أنه (صلى الله عليه وآله) ادعى النبوة، وأتى بالمعجزات على إثبات مدّعاها، وكل من ادعى النبوة وأثبتها بالمعجزة فهو صادق في دعواه فهو (صلى الله عليه وآله) وهو المطلوب.

أما الصغرى: أعني ادعاء النبوة، فهو متواتر لا شك فيه، وأما إتيانه المعجزات فهو أيضاً ثابت، ومُعجزاته على قسمين:

الأول: المعجزة الباقية.

الثاني: المعجزة الغير باقية.

أما المعجزة الباقية، فالقرآن الكريم الذي بين أيدينا الآن؛ وهو أكبر المعجزات وأظهر الآيات البيّنات الدالات على نبوة نبينا (صلى الله عليه وآله) وقد اختلفوا في وجه إعجازه على أقوال كثيرة بعدما اتفقوا على أن القرآن دليل على نبوته (صلى الله عليه وآله) وشاهد صدق على رسالته، فالمتكلمون من المسلمين ذكروا في وجوه إعجازه سبعة:

(١) ينظر: أوائل المقالات، المفيد: ٤٥.

الأول: ما اختاره السيّد المرتضى (قُدّس سرُّه)؛ وهو أنّ وجه الإعجاز في القرآن أنّ الله صرّف العرب عن مُعارضته وسلبهم العِلْمَ بكيفيّة نَظْمه وفصاحته، ولولا هذا الصّرف لكانوا قادرين على المعارضة ومُتمكّنين منها^(١).

الثاني: ما اختاره المفيد (قُدّس سرُّه)؛ وهو كونه مُعجِزًا من حيث أنّ مرتبة فصاحته خارقةٌ للعادة^(٢).

الثالث: إنّ معاني القرآن صحيحة مستمرة على النظر ومُوافقة للعقل، وهذا الوجه ممّا اختاره بعضُ آخر.

الرابع: إنّ إعجازه من حيث زوال الاختلال والتناقض عنه على وجه لم تُجرِ العادةُ بمثله.

الخامس: إنّ إعجازه من حيث اشتماله على المغيِّبات.

السادس: إنّ إعجازه لأجل كونه مشتملاً على النّظْمِ المخصوص مخالفاً للمعهود.

السابع: ما ذهب إليه أكثر المعتزلة وهو: أنّ تأليف القرآن ونظّمه مُعجِزٌ لا لأنّ الله أعجز عنهما بمنع خلقه في العباد، وقد كان يجوز أن يُرتفع ويُقدّر عليه لكنّ مُحالٌ وقوعه منهم؛ كاستحالة إحداث الأجسام والألوان وإبراء الأكمه والأبرص من غير دواء^(٣).

(١) ينظر: رسائل الشريف المرتضى: ٣٢٣/٢.

(٢) ينظر: أوائل المقالات، المفيد: ١٦٦.

(٣) ينظر: الخرائج والجرائح: ٣/٩٨١-٩٨٢.

وقد استدللَّ كلُّ واحدٍ منهم على إثبات مدَّعاه بما ذُكر في محلِّه ولا احتياج لنا فعلاً في ذكره؛ وإنَّما الغرض بيان أنَّ القرآن مُعجِزٌ وهو ثابت كما عرفت وكفى في كونه مُعجِزاً.

قوله تعالى في وصف القرآن: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(١)، وهذا أدلُّ دليلٍ على إعجازه؛ فإنَّ المعجزة عبارة عن الإتيان بشيء لا يقدر أحدٌ على معارضته مع توفُّر الدواعي، والقرآن كذلك فهو معجزةٌ فَمَنْ أَنْكَرَ هذا فليأتوا بمثله بل بمثل آيةٍ من آياته وهو ظاهر^(٢).

وأما ما قلنا مع توفُّر الدواعي على معارضته بمثله، فهو أمر ثابت عند مَنْ راجع التواريخ والروايات؛ لأنَّ بعض المنافقين والكُفَّار في صدر الإسلام قد تصدَّوا للمعارضة لكسر دعوى النبي (صلى الله عليه وآله). ونذكر منها روايةً رواها المجلسي في المجلد السادس من بحار الأنوار: (رُويَ أنَّ ابن العوجاء وثلاثة نفرٍ من اليهود (من الدهريَّة) اتَّفَقوا على أن يُعَارِضَ كلُّ واحدٍ منهم رُبْعَ القرآن، وكانوا بمكَّة عاهدوا على أن يجيئوا بمعارضته في العام القابل، فلما حال الحول واجتمعوا في مقام إبراهيم قال أحدهم: إني لما رأيتُ قوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيَضَ الْمَاءُ﴾^(٣)، كَفَفْتُ عن المعارضة، وقال الآخر وكذا أنا فلما وجدت قوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾^(٤).

(١) الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) ينظر: التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: ٥١٧/٦.

(٣) هود، الآية: ٤٤.

(٤) يوسف، الآية: ٨٠.

أيست من المعارضة وكانوا يسرون بذلك، إذ مرّ عليهم الصادق (عليه السلام) فالتفت إليهم وقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ (١) (٢).

وأما المعجزات الغير الباقية فكثيرة، نذكر شرطاً منها وسنذكر شرطاً آخر منها في شرع قوله (عليه السلام) (مَشْهُورَةٌ سِائَتْهُ)؛ فمنها: ما روى أبو هريرة (وأنس: أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) أَخَذَ كَفًّا مِنَ الْحِصَا فَسَبَّحَنَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ صَبَّهَنَ فِي يَدِ عَلِيٍّ فَسَبَّحَنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْتُ التَّسْبِيحَ فِي أَيْدِيهِمَا، ثُمَّ صَبَّهَنَ فِي أَيْدِينَا فَمَا سَبَّحَتْ) (٣).

ومنها: انشقاق القمر؛ كما أخبر الله تعالى به في كتابه حيث قال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (٤) (٥).

وأما الكبرى: وهو قولنا: كُلُّ مَنْ ادَّعَى وَأَثْبَتَهَا بِالْمَعْجِزَةِ فَهُوَ صَادِقٌ، فلا كلامٍ لأحدٍ فيه.

الثاني: أَنَّهُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) أتى لنا بأحكام وقوانين مُتَقَنَّةٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالسِّيَاسَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَالْأَخْلَاقِيَّاتِ وَغَيْرِهَا، وإِنَّهَا مَعَ طَوْلِ الزَّمَانِ مَطَابِقَةٌ لِكُلِّ عَقْلٍ سَلِيمٍ وَذَوْقٍ مُسْتَقِيمٍ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا خَلَلٌ وَلَا فُسَادٌ وَلَا دَثُورٌ وَلَا اِضْمِحْلَالٌ، مَعَ أَنَّهُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) كَانَ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ؛ وَهَذَا

(١) الإسرائاء، الآية: ٨٨.

(٢) الخرائج والجرائح: ٢/٧١٠، بحار الأنوار: ١٧/٢١٣.

(٣) الخرائج والجرائح: ١/٤٧، بحار الأنوار: ١٧/٣٧٧.

(٤) القمر، الآية: ١.

(٥) ينظر: روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ٨٠.

دليلٌ على أنه مبعوثٌ من قبل الله تعالى.

الثالث: أنه (صلى الله عليه وآله) مع كونه أمياً كان أمره في الفصاحة والبلاغة إلى حدٍّ لا يمكن للبشر معارضته؛ فإن كلامه (صلى الله عليه وآله) فوق كلام البشر وتحت كلام الخالق، ومن ذاق من كأس الفصاحة جُرعةً يعلم بأنَّ الفرق بين كلامه (عليه السلام) وكلام عليٍّ هو الفرق بين كلامه وكلام خالقه مع أن فصاحة عليٍّ ممَّا يُضرب به الأمثال؛ وهذا دليل على كونه إنساناً ملكوتياً غير سائر الأفراد، بل أقرب الموجودات إليه تعالى وكفى في شأنه ما قال عليٌّ (عليه السلام) في حقِّه: (أَنَا عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِ مُحَمَّدٍ)^(١)، والدلائل فيها كثيرة عقلاً إلا أن فيما ذكرناه كفاية في المقام، وأمَّا الدلائل النقلية فستأتي في شرح قوله (عليه السلام): (مَشْهُورَةٌ سَمَاتُهُ) ولعله نذكر بعض الأدلة العقلية الأخرى هناك فلنرجع إلى شرح جملات الخطبة^(٢).

ثالثاً- مكارم الشيرازي:

قال: «أشار الإمام (عليه السلام) في هذا القسم من الخطبة إلى أربعة أمور:

١- قضية بعثة نبيِّ الإسلام محمدٍ (صلى الله عليه وآله) وبعض خصائصه وصفاته وفضائله وعلائم نبوته.

٢- الوضع الذي كانت تعيشه الأمة إبان انبثاق الدعوة الإسلامية من حيث الانحرافات الدينية والعقائدية وإنقاذها من تلك الظلمات بنور رسالة النبي (صلى الله عليه وآله).

(١) الكافي: ١/ ٩٠.

(٢) مفتاح السعادة: ١/ ٣٨٤-٣٩٢.

٣- رحيل النبي (صلى الله عليه وآله) من الدنيا.

٤- الإرث^(١).

رابعاً- السيد نبيل الحسيني:

يشتمل النص الشريف -مورد البحث- أي المختص ببعث النبي (صلى الله عليه وآله) على أمور؛ منها:

١- أتساق النص الشريف في العرض المعرفي فبدا حقلاً معرفياً متكاملًا ومتسلسلاً في العرض والبيان؛ فقد ابتدأ (عليه السلام) بالحمد والثناء، ثم تنزیه الله تعالى من الصفات السلبيّة في التوحيد والصفات، ثم بيانه لنشأة الخلق وما تعلّق بها من خصائص التوحيد، ثم بيانه لسمات السموات العلّاء واختصاصها بالملائكة الذين تفرّدوا عن غيرهم بجملة من السمات الدالّة أيضًا على التوحيد، ثم صفة خلق آدم (عليه السلام) وما تعلّق به من اختبار الملائكة في الإقرار بالتوحيد؛ عبر ابتلائهم بالامتنال لأمره تعالى بالسجود لآدم، وانكشاف تكبر إبليس، وظهور خلل عقيدته في التوحيد عبر التعالي على أمر الله تعالى، ثم ابتلاء آدم وحواء (عليهما السلام) وخروجهما من الجنّة، ونزولهما إلى الأرض، لإتمام الغاية من خلقه (عليه السلام) في الخلافة على الأرض، فسخر سبحانه لذلك منزلة النبوة؛ فاصطفى من ولده أنبياء ورُسلاً، أخذ على الوحي أمانتهم، وعلى التبليغ ميثاقهم، فبلغوا ما أُوحي إليهم، وأدّوا ما حمّلوا به إلى الناس إلى أن ختم الله تعالى النبوة بخير خلقه وسيد أنبيائه ورُسله (صلى الله عليه وآله).

(١) نفحات الولاية: ١/١٤٩.

٢- ابتداءً مرحلة جديدة من حيث نوع التبليغ وكيفية تناسب مع منزلته (صلى الله عليه وآله) - كما سيمرُّ بيانه مفصلاً - وذلك عبر بيانه (عليه السلام) لطبيعة الفترة الزمنية والمكانية وأهلها ومعتقداتهم.

٣- التركيز على صفاته (صلى الله عليه وآله) ومنزلته عند الله تعالى منذ بعثه إلى وفاته، ففيه اكتملت الخلافة على الأرض.

والحمد لله على فضله وفضل رسوله (صلى الله عليه وآله).

المسألة الرابعة: رؤوس الموضوعات في النص:

اشتمل النص الشريف المتضمن مبعث النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) على مجموعة من رؤوس الموضوعات التي تفتح آفاقاً واسعة للبحث والدراسة، وهي على النحو الآتي:

١- النبوة.

٢- النبي محمد (صلى الله عليه وآله).

٣- الميثاق المأخوذ على الأنبياء (عليهم السلام).

٤- الملل والنحل.

٥- ولادة النبي (صلى الله عليه وآله).

٦- معتقدات أهل الأرض قبل الإسلام.

٧- التوحيد.

٨- المشبهة لله.

٩- الإلحاد.

١٠- الشُّرك.

١١- الهداية والضلال.

١٢- وفاة النبيّ (صلى الله عليه وآله).

١٣- الدُّنيا.

١٤- صفاتُ النبيّ (صلى الله عليه وآله) وخصائصه.

القسم الثاني:

« مطالب النصّ وحقوله المعرفيّة »

اشتمل المبحثُ الشريف على سبعةٍ من المطالب بحقول معرفيّة؛ كاللُّغة، والإعراب، والشرح، وهي على النَّحو الآتي:

المطلب الأوّل: الحقول المعرفيّة في قوله (عليه السلام): «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا، (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَتَمَامِ نُبُوتِهِ».

اشتمل النصُّ الشريف على جملةٍ من الحقول المعرفيّة؛ كاللُّغة، والإعراب، والشرح، وهي على النَّحو الآتي:

المسألة الأولى: المعنى اللُّغويّ:

أوّلاً- الراونديّ:

قال: «إنجاز الوعد: إكمال قضاء الوعد»^(١)»^(٢).

ثانيًا- البحرانيّ:

قال: «العِدّة: (الوعد)^(٣)»^(٤).

(١) ينظر: العين: ٦/ ٧١، مادة (نجز)، تهذيب اللُّغة، الأزهري: ١٠/ ٣٢٩، مادة (نجز)، وورد قريب من هذا المعنى في: شرح نهج البلاغة، البحراني: ١/ ٢٠٠، بهج الصباغة، التستري: ٢/ ١٢٧، مفتاح السعادة، النقيوي: ١/ ٣٨٤، نفحات الولاية: ١/ ١٤٩.

(٢) منهاج البراعة: ١/ ٨٨.

(٣) معجم ديوان الأدب، الفارابي: ٣/ ٢٢١، باب مَمَّا كُسِرَ أَوْلُهُ (فَعَلَ)، الصحاح: ٢/ ٥٥١، مادة (وعد). وقد ورد هذا المعنى في: في ظلال نهج البلاغة، مغنية: ١/ ٦٢، مفتاح السعادة، النقيوي: ١/ ٣٨٤.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠٠.

المسألة الثانية: الإعراب:

أولاً- المعتزلي:

قال: «الهاء في قوله: (لِإِنِّجَازِ عِدَّتِهِ) راجعة إلى الباري سبحانه، والهاء في قوله: (وَإِنَّمَا بُبِّئَتْهُ)، راجعة إلى مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)»^(١).

ثانياً- الخوئي:

قال: «اللَّامُ فِي قَوْلِهِ (لِإِنِّجَازِ عِدَّتِهِ) تَعْلِيلٌ لِلْبَعَثِ مُتَعَلِّقٌ بِهِ»^(٢).

ثالثاً- مغنية:

قال: «المصدر من (أَنْ بَعَثَ) متعلق بـ (نسلت) أو بـ (مضت)، (لِإِنِّجَازِ) متعلق بـ (بَعَثَ)»^(٣).

رابعاً- مكارم الشيرازي:

قال: «الضمير في «بُؤَّتِهِ» يعود إلى النبي، أمَّا الضمير في «عِدَّتِهِ» ففيه احتمالان: أن يكون عائداً على الله أو عائداً على النبي، إلا أن الأول أنسب، وذلك لأن بعثة النبي كانت وعداً إلهياً وعد بها نبيُّ الله إبراهيم الخليل (عليه السلام) وسائر الأنبياء، كما يُحتمل أن يكون الضميران عائدين لله سبحانه»^(٤).

خامساً- مؤسّسة علوم نهج البلاغة:

قوله (عليه السلام): «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا»: (إِلَى): حرف جرّ،

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ١١٧.

(٢) منهاج البراعة: ٢/ ١٦٢.

(٣) في ظلال نهج البلاغة: ١/ ٦٢.

(٤) نفحات الولاية: ١/ ١٥٠.

(أَنْ بَعَثَ): (أَنْ): مصدرية، (بَعَثَ): فعلٌ ماضٍ، (اللهُ): لفظ الجلالة فاعل مرفوع، (سُبْحَانَهُ): مفعول مطلق وقيل نائب عن المفعول المطلق منصوب وهو مضاف، والهاء ضمير مضاف إليه، (محمّداً): مفعول به منصوب، «صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»: (صَلَّى) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتح المقدّر، (اللهُ) لفظ الجلالة فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمّة، «عَلَيْهِ» جازٌّ ومجرور، (وَآلِهِ) الواو حرف عطف، (آل) اسم معطوف على ضمير الهاء في (عَلَيْهِ)، وهو مضاف، والهاء ضمير متّصل في محلّ جرٍّ بالإضافة، والمصدر المؤوّل من أن والفعل (أَنْ بَعَثَ) في محلّ جرٍّ بحرف الجرّ.

«لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ»: (لِإِنْجَازِ): جازٌّ ومجرور، وهو مضاف، (عِدَّتِهِ): مضاف إليه مجرور، و(عِدَّة) مضاف والضمير الهاء ضميرٌ متّصل يعود على لفظ الجلالة في محلّ جرٍّ مضاف إليه، وشبه الجملة متعلّقة بالفعل (بَعَثَ)، «وَتَمَّامِ نُبُوَّتِهِ»: معطوف على (إِنْجَازِ عِدَّتِهِ) وتعرّب إعرابها.

المسألة الثالثة: أقوال الشراح:

أولاً- الراوندي:

قال: «فلما بعث الله محمّداً (صلى الله عليه وآله وسلّم) أنجز الوعد الذي كان قد أخذ العهد على كلّ نبيّ قبله بالبشارة به، فكانوا يُبشّرون بمحمّدٍ»^(١).

ثانياً- البحراني:

قال: «أشار إلى أنّه الغاية من طينة النبوة وتمام لها بقوله: (إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا، (صلى الله عليه وآله) لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ) لَحَلِّقَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ السَّابِقِينَ

(١) منهاج البراعة: ١/ ٨٦.

بوجوده، وإتمام نبوته (صلى الله عليه وآله)»^(١).

ثالثًا- الخوئي:

قال: «قال (عليه السلام): (إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ) النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الْعَرَبِيَّ الْقُرَشِيَّ الْهَاشِمِيَّ الْأَبْطَحِيَّ التُّهَامِيَّ الْمُصْطَفَى مِنْ دُوْحَةِ الرِّسَالَةِ، وَالْمُرْتَضَى مِنْ شَجَرَةِ الْوَلَايَةِ (مُحَمَّدًا) (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِإِنِّجَازِ عِدَّتِهِ) الَّتِي وَعَدَهَا خَلْقَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ السَّابِقِينَ بِوُجُودِهِ (عَلَيْهِ السَّلَام) (وَلِإِتْمَامِ) (٢) نُبُوَّتِهِ) الظَّاهِرِ رَجُوعِ الضَّمِيرِ فِيهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَقِيلَ: بِرَجُوعِهِ إِلَى مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) وَلَا يَخْلُو عَنْ بَعْدِ.

وينبغي الإشارة إلى الحُجج الذين لم يُحَلِّ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْهُمْ مِنْ لَدُنْ آدَمَ (عَلَيْهِ السَّلَام) إِلَى بَعَثِ نَبِيِّنَا (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ)، فَنَقُولُ: رَوَى الصَّدُوقُ فِي الْأَمْثَالِ: عَنْ ابْنِ الْمُتَوَكَّلِ، عَنِ الْحَمِيرِيِّ، عَنْ ابْنِ عَيْسَى، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مَحْبُوبٍ، عَنِ مِقَاتِلِ بْنِ سَلِيمَانَ، عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَام)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ):

(أَنَا سَيِّدُ النَّبِيِّينَ، وَوَصِيِّ سَيِّدِ الْوَصِيِّينَ، وَأَوْصِيائِي سَادَةُ الْأَوْصِيَاءِ، إِنْ آدَمَ سَأَلَ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) أَنْ يُجْعَلَ لَهُ وَصِيًّا صَالِحًا، فَأَوْحَى اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) إِلَيْهِ: إِنِّي أَكْرَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ بِالنَّبُوءَةِ ثُمَّ اخْتَرْتُ خَلْقًا، وَجَعَلْتُ خِيَارَهُمُ الْأَوْصِيَاءَ، فَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ اجْعَلْ وَصِيِّي خَيْرَ الْأَوْصِيَاءِ، فَأَوْحَى اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) إِلَيْهِ يَا آدَمُ أَوْصِ إِلَى شَيْثٍ وَهُوَ هِبَةُ اللَّهِ بِنِ آدَمَ.

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٠٤ / ١.

(٢) هكذا في شرح الخوئي، وفي الأصل: «وإتمام».

وأوصى شيثُ إلى ابنه شبان، وهو ابن نزلة الحوراء التي أنزلها الله على آدم من الجنة فزوجها ابنه شيثًا، وأوصى شبان إلى محلت^(١)، وأوصى محلت إلى محوق، وأوصى محوق إلى عثميا^(٢)، وأوصى عثميا إلى أخنوخ، وهو إدريس النبي، وأوصى إدريس إلى ناخور^(٣) ودفعها ناخور إلى نوح النبي، وأوصى نوح إلى سام، وأوصى سام إلى عثامر، وأوصى عثامر إلى برغيثاشا^(٤)، وأوصى برغيثاشا إلى يافث.

وأوصى يافث إلى برة، وأوصى برة إلى جفشية^(٥)، وأوصى جفشية إلى عمران، ودفعها عمران إلى إبراهيم الخليل^(٦) (عليه السلام)، وأوصى إبراهيم إلى ابنه إسماعيل، وأوصى إسماعيل إلى إسحاق، وأوصى إسحاق إلى يعقوب، وأوصى يعقوب إلى يوسف، وأوصى يوسف إلى بريثا^(٧)، وأوصى بريثا إلى شعيب، ودفعها شعيب إلى موسى بن عمران، وأوصى موسى بن عمران إلى يوشع بن نون، وأوصى يوشع بن نون إلى داود، وأوصى داود إلى سليمان.

وأوصى سليمان إلى آصف بن برخيا، وأوصى آصف بن برخيا إلى زكريا، وأوصى (دفعها خل) زكريا إلى عيسى بن مريم، وأوصى عيسى بن مريم إلى شمعون بن حمون الصفا، وأوصى شمعون إلى يحيى ابن زكريا، وأوصى يحيى بن زكريا إلى منذر، وأوصى منذر إلى سليمة، وأوصى سليمة إلى بردة.

(١) (مجلث) هكذا في أمالي الصدوق.

(٢) (غثميشا) هكذا في أمالي الصدوق.

(٣) (ناخور) هكذا في أمالي الصدوق.

(٤) (برغيثاشا) هكذا في أمالي الصدوق.

(٥) (جفسيه) هكذا في أمالي الصدوق.

(٦) (خليل الرحمن) هكذا في أمالي الصدوق.

(٧) (بثرياء) هكذا في أمالي الصدوق.

ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ودفعها إليّ بردة، وأنا أدفعها إليك يا عليّ، وأنت تدفعها إليّ وصيّك، ويدفعها وصيّك إلى أوصيائك من ولدك واحداً بعد واحدٍ حتى تدفع إلى خير أهل الأرض بعدك، ولتُكفّرَن بك الأمة، ولتختلفنَّ عليك اختلافاً شديداً الثابت عليك كالمقيم، والشاذُّ عنك في النار، والنار مثوى للكافرين^(١)، وقد مضى في شرح قوله (عليه السلام): (واضطفَى سبحانه مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ) ما يُوجِبُ ازدياد البصيرة في المقام فراجعهُ^(٢)»^(٣).

رابعاً- مغنية:

قال: «قال (عليه السلام): (إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِإِنجَازِ عِدَّتِهِ، وَتَمَامِ نُبُوتِهِ). الضمير في (عِدَّتِهِ) و(نُبُوتِهِ) يعود إلى الله سبحانه، والمعنى أنه تعالى كان قد وعد، وأنبأ -على لسان أنبيائه السابقين- أن يبعثَ مُحَمَّدًا (صلى الله عليه وآله) وقد بعثه إنجازاً لوعده، وإتماماً لما أنبأ به، قال الشيخ محمد عبده: إن الله أنبأ بمحمدٍ، فهذا الخبر الغيبيّ قبل حصوله يُسمّى نبوءة، ولما كان الله هو المخبر أُضيفت النبوءةُ إليه^(٤)»^(٥).

خامساً- التستري:

قال: «قوله (عليه السلام): (إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ

(١) الأمل، الصدوق: ٤٨٦-٤٨٨.

(٢) للمزيد من التفصيل ينظر: منهاج البراعة، الخوئي: ١٣٦/٢-١٤٤.

(٣) منهاج البراعة: ١٦٣/٢-١٦٥.

(٤) ينظر: نهج البلاغة، تحقيق: محمد عبده: ٢٤/١.

(٥) في ظلال نهج البلاغة: ٦٢/١.

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) هكذا في المصرية^(١)، والصواب: (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، كما في ابن أبي الحديد^(٢)، وابن ميثم^(٣)، والخطيئة.

(عِدَّتِهِ) أي: وعده الذي وقع على لسان أنبيائه، كما حكى تعالى عن عيسى (عليه السلام) ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٤)، وعن كتابه وكتاب موسى (عليه السلام) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(٥).

وقال أبو طالب عمّه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ):

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا رَسُولًا^(٦) كَمُوسَى خَطَّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ^(٧)

(وَتَمَامِ بُبُوتِهِ) قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٨)، والمراد تمام نبوة الله تعالى باعتبار الجاعليّة، لا نبوة النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، كما قال ابن أبي الحديد، فالضمير في (بُبُوتِهِ) راجع إليه تعالى مثل (عِدَّتِهِ)^(٩)«^(١٠).

(١) «صلى الله عليه وآله» هكذا في: نهج البلاغة، تحقيق: محمد عبدة: ٢٤ / ١.

(٢) «صلى الله عليه» هكذا في: شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ١١٦ / ١.

(٣) «ص» هكذا في: شرح نهج البلاغة، البحراني: ١٩٩ / ١.

(٤) الصف، الآية: ٦.

(٥) الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٦) (نبيًا) هكذا في ديوان أبو طالب.

(٧) ديوان أبو طالب: ١٣.

(٨) الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٩) ينظر: شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ١١٧ / ١.

(١٠) بهج الصباغة: ١٢٧ / ٢.

سادسًا- النقوي:

قال: «قوله (عليه السلام): (إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): وفي هذه الجملة أشار (عليه السلام) إلى بعثة النبي (صلى الله عليه وآله)، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٣)، وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٤)، وقال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٥)، وقال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ^(٦)﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٧) الآية، والآيات الواردة في البعثة كثيرة.

(١) الأحزاب، الآية: ٤٥-٤٦.

(٢) البقرة، الآية: ١٥١.

(٣) آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٤) التوبة، الآية: ٣٣.

(٥) النحل، الآية: ١٢٥.

(٦) الرعد، الآية: ٧.

(٧) الفتح، الآية: ٨-٩.

وأما زمان بعثته (صلى الله عليه وآله): فقد اختلف فيه بين المؤرخين، والروايات فيه أيضًا مختلفة، والمشهور عند الخاصة أنه (صلى الله عليه وآله) بُعثَ في يوم سبعة وعشرين من شهر رجب المرجب، والعامّة اختلفوا في زمان بعثته على خمسة أقوال:

الأوّل: سبع عشرة خلت من شهر رمضان^(١).

الثاني: لثمان عشرة خلت من شهر رمضان^(٢).

الثالث: لأربع وعشرين خلت من شهر رمضان^(٣).

الرابع: للثاني عشر من ربيع الأوّل^(٤).

الخامس: [ل]سبع وعشرين من رجب، وعلى الأخير اتفاق الإمامية^(٥).

وأما كيفية بعثته (صلى الله عليه وآله) ومبلغ عُمره وسائر ما يلحق بها: اتفقوا على أنه (صلى الله عليه وآله) بُعث وله أربعون سنة، ونذكر روايةً فيها كيفية بعثته (صلى الله عليه وآله) وعُمره حين البعثة.

قال عليّ بن إبراهيم بن هاشم القميّ، في كتابه: (إنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) لما أتى له سبع وثلاثون سنةً كان يرى في نومه كأنّ آتياً أتاه، فيقول: يا رسول الله، فيُنكر ذلك، فلمّا طال عليه الأمر كان يومًا بين الجبال يرفع غنمًا

(١) الطبقات، ابن سعد: ١/ ١٩٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٤، البداية والنهاية، ابن كثير: ١/ ٣٩٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير: ١/ ٣٩٢، بحار الأنوار، المجلسي: ١٨/ ١٩٠.

(٥) ينظر: المقنعة، المفيد: ٣٧١، جمل العلم والعمل، الشريف المرتضى: ٩٦، الاقتصاد، الطوسي: ٢٧٤.

لأبي طالب، فنظر إلى شخصٍ يقول: يا رسول الله، فقال له (صلى الله عليه وآله): مَنْ أَنْتَ؟

فقال: أنا جبرئيلُ أرسلني اللهُ إليك لِيَتَّخِذَكَ رَسُولًا.

فأخبر النبي (صلى الله عليه وآله) خديجة بذلك، فقالت: يا محمد أرجو أن يكون كذلك، فنزل عليه جبرئيلُ وأنزل إليه ماء من السماء وعلمه الوضوء والركوع والسجود، فلما تم له أربعون سنةً علمه حدود الصلاة ولم ينزل عليه أوقاتها، فكان يُصلي ركعتين ركعتين في كلِّ وقتٍ^(١).

أبو ميسرة وبريدة: إن النبي (صلى الله عليه وآله) كان إذ انطلق بارزًا أسمع صوتًا: يا محمد، فيأتي خديجة فيقول: (يا خديجة قد خشيتُ أن يكون خالط عقلي شيء، إني إذا خلوتُ أسمع صوتًا وأرى نورًا)^(٢).

محمد ابن كعب وعائشة: أول ما بدأ به رسول الله [صلى الله عليه وآله] من الوحي الرؤيا الصادقة، وكان يرى الرؤيا فتأتيه مثل فلق الصبح، ثم حب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فسمع نداء: يا محمد فغشي عليه، فلما كان اليوم الثاني سمع مثله نداء فرجع إلى خديجة، فقال:

(رَمَّلُونِي رَمَّلُونِي، فوالله لقد خشيتُ على عقلي).

فقالت: كلاً، والله لا يُجزيك اللهُ أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل

(١) لم أشر على الرواية بهذا النص في كتاب تفسير القمي، وإنما في كتاب قصص الأنبياء للراوندي (٥٧٣هـ): ٣١٥، وقد نقلها النقوي بتامها، وينظر: أيضاً: مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ١/ ٤٢، بحار الأنوار، المجلسي: ١٨/ ١٩٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ١/ ٤٢.

وتكسب العدم، وتقرئ الضيفَ وتعين على نوائب الحق، فانطلقت خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل^(١)، فقال ورقة: هذا والله الناموس أنزل على موسى وعيسى وأني أرى في المنام ثلاث ليالٍ أن الله أرسل في مكة رسولاً اسمه محمد [صلى الله عليه وآله]، وقد قرَّب وقتَه، ولست أرى في الناس رجلاً أفضل منه، فخرج إلى حراء فرأى كُرسياً من ياقوتة حمراء مرقاة من زبرجد ومرقاة من لؤلؤ فلما رأى ذلك غشي عليه، فقال ورقة: يا خديجة فإذا أتته الحالة فاكشفي عن رأسك، فإن خرج فهو ملك وإن بقي فهو شيطان، فنزعت خمارها فخرج الجائي فلما اختمرت عاد، فسأله ورقة عن صفة الجائي فلما حكاها قام وقبل رأسه، وقال: ذاك الناموس الأكبر الذي أنزل على موسى وعيسى، ثم قال: أبشر فإنك أنت النبي الذي بشر به موسى وعيسى، وإنك نبي مرسل ستؤمر بالجهاد، وتوجه نحوها، وأنشأ يقول:

فإن يك حقاً يا خديجة فاعلمي
وجبريل يأتيه وميكال معهما
يفوز به من فاز عز لدينه
فريقان منه فرقة في جنبه^(٢)

حديثك إيانا فأحمد مرسل
من الله وحي يشرع^(٣) الصدر منزل
ويشقى به الغاوي الشقي المظل^(٤)
وأخرى بأغلال الجحيم تغل

ومن قصيدة له:

(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب القرشي وهو ابن عم خديجة بنت خويلد (عليها السلام) وهو من الأوائل الذين بشروا بنبوة النبي محمد (صلى الله عليه وآله). ينظر: أسد الغابة، ابن الأثير: ٤١٦/٥.

(٢) (جنانه) هكذا في مناقب آل أبي طالب: ٤٢/١ - ٤٣.

(٣) (يشرح) هكذا في بحار الأنوار: ١٨/١٩٥.

(٤) (في مفتاح السعادة: (المظل)، وما أثبتناه من المصدر لاستقامة الوزن.

يا للرجالِ لصرفِ الدهرِ والقدرِ
 حتّى خديجةٌ تدعوني لأخبرها
 فخبرتني بأمرٍ قد سمعتُ بهِ
 بأنَّ أحمدَ يأتيه فيخبره
 وأيضاً من قصيدة له:

فخبرنا عن كلِّ خيرٍ بعلمه
 وأنَّ ابنَ عبدِ اللهِ أحمدَ مرسلٌ
 وظنّي به أن سوف يُبعثُ صادقاً
 وموسى وإبراهيمَ حتّى يرى له
 وللحقِّ أبوابٌ لهنَّ مفاتحُ
 إلى كلِّ من ضمّت^(١) عليه الأباطحُ
 كما أرسلَ العبدانِ نوحَ وصالحُ
 بهاءً ومنشورٌ من الذِّكرِ واضح^(٢).

وروي: (أنه نزل جبرئيل على جواد^(٣) أصفر والنبي (صلى الله عليه وآله) بين عليّ وجعفر فجلس جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجله ولم يُنبهاه إعظاماً له، فقال: ميكائيل إلى أيهم بُعثت؟ قال: إلى الأوسط، فلما انتبه أذى إليه جبرئيل الرسالة عن الله تعالى، فلما نهض جبرئيل ليقوم أخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله) بثوبه ثم قال: ما اسمك؟ قال: جبرئيل، ثم نهض النبي ليلحق بقومه فما مرّ بشجرة ولا مدرة إلا سلّمت عليه وهنّأته، ثم كان جبرئيل يأتيه ولا يدنو منه إلا بعد أن يستأذن عليه، فأتاه يوماً وهو بأعلى مكة فغمر بعقبه بناحية الوادي فانفجر عين فتوضأ جبرئيل وتطهّر الرسول [صلى الله عليه وآله]، ثم صلى الظهر؛ وهو أوّل صلاة فرضها الله، وصلى

(١) في مفتاح السعادة: (نعمت)، وما أثبتناه من المصدر لاستقامة الوزن.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٤٢/١ - ٤٣.

(٣) (جواد) هكذا في مناقب آل أبي طالب: ٤٣/١.

أمير المؤمنين (عليه السلام) مع النبيّ ورجع رسول الله من يومه إلى خديجة فأخبرها فروضاتٍ، وصلّت صلاة العصر من ذلك اليوم.

وروي أنّ جبرئيل (عليه السلام) أخرج قطعةً ديباجٍ فيها اقرأ، قلت:

كيف أقرأ ولست بقارئ؟ إلى ثلاث مرّات، فقال لي: في المرّة الرابعة ﴿اقرأ﴾ باسم ربّك الذي خلق ﴿إلى قوله﴾ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١)^(٢).

وروي فيها أيضًا أنّه (قرن إسرافيل رسول الله ثلاث سنين يسمع الصوت ولا يرى شيئاً، ثمّ قرن به جبرئيل عشرين سنة؛ وذلك حيث أوحى إليه فأقام بمكّة عشر سنين ثمّ هاجر إلى المدينة فأقام بها عشر سنين، وقبض وهو ابن ثلاث وستين سنة)^(٣).

أقول^(٤): ويظهر من هذه الرواية أنّ مدّة عمره (صلّى الله عليه وآله) بعد البعثة ثلاث وعشرون سنين قرن إسرافيل به وعشرون سنين قرن جبرائيل به والرواية السابقة دلّت على أنّ مدّة رسالته جمعاً ستّة وعشرون سنة وثلاث سنين قبل بلوغه إلى أربعين، وثلاث وعشرين سنة بعد الأربعين فأقام ثلاث عشرة سنة بمكّة وعشر سنين بالمدينة وهو الأشهر، وعلى كلّ حالٍ لا خلاف بينهم في أصل البعثة وأنّه بلغ من عمره أربعين سنة، والمدّة التي قرن إسرافيل به قبل الأربعين أو سمع صوته لم يحسبها، ولذلك ترى اتفاقهم على أنّ مدّة بعثته ثلاث وعشرون سنة، والله أعلم بحاله.

(١) العلق، الآية: ١-٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ١/٤٣، بحار الأنوار: ١٨/١٩٦.

(٣) الاختصاص، المفيد: ١٣٠، بحار الأنوار: ١٨/٢٣٢.

(٤) القول للنقويّ.

وروي أن النبوة نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم الاثنين وأسلم علي (عليه السلام) يوم الثلاثاء ثم أسلمت خديجة بنت خويلد زوجة النبي، ثم دخل أبو طالب على النبي (صلى الله عليه وآله) وهو يصلي وعلي بجنبه وكان مع أبي طالب جعفر، فقال له أبو طالب: صل جناح ابن عمك، فوقف جعفر على يسار رسول الله فبدر رسول الله من بينهما فكان يصلي رسول [الله] وعلي وجعفر وزيد بن حارثة وخديجة^(١) وساق الحديث إلى أن قال: (فخرج رسول الله فقام على الحجر فقال:

يا معشر قريش يا معشر العرب أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأمركم بخلع الأنداد والأصنام فأجيبوني تملكون بها العرب وتدين لكم العجم وتكونون ملوكاً في الجنة.

فاستهزؤوا منه، وقالوا: جن محمد بن عبد الله ولم يحيروا^(٢) عليه لموضع أبي طالب، فاجتمعت قريش على أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سفه أحلامنا وسب أهتنا وأفسد شباننا وفرق جماعتنا، فإن كان يحملة على ذلك الغرم جمعنا له مالا فيكون أكثر قريش مالا ونزوجه أمة امرأة شاء من قريش، فقال له أبو طالب: ما هذا يا بن أخي؟ فقال:

يا عم هذا دين الله الذي ارتضاه لأنبيائه ورسله بعثني الله رسولا للناس.

فقال: يا بن أخي إن قومك قد أتوني ويسألوني أن أسألك أن تكف

عنهم، فقال:

(١) ينظر: تفسير القمي: ٣٨٧/١، بحار الأنوار: ١٨/١٧٩-١٨٠.

(٢) (يجسروا) هكذا في: تفسير القمي وبحار الأنوار.

يا عمّ لا أستطيع أن أخالف أمر ربّي.

فكفّ عنه أبو طالب، ثم اجتمعوا إلى أبي طالب فقالوا: أنت سيّد من ساداتنا، فادفع إلينا محمّداً نقتله وتملك علينا، فقال أبو طالب قصيدةً طويلة^(١) ويقول فيها:

وَمَا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَا وُدَّ بَيْنَهُمْ^(٢) وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الْعُرَى وَالْوَسَائِلِ^(٣)
 كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ نَبْرًا مُحَمَّداً وَمَا نُطَاعِنُ دُونَهُ وَنُنَاصِلِ^(٤)
 وَنُسَلِمُهُ حَتَّى نُصْرَعَ حَوْلَهُ وَنَذْهَلُ عَن أبنائنا وَالْحَلَائِلِ^(٥)

قوله (عليه السلام): (لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَتَمَامِ بُيُوتِهِ): والمعنى أن الله تعالى أرسله إنجازاً لوعده وعده وإتماماً لنبوته (صلى الله عليه وآله) وفي هذه الجملة أشار إلى أصليين:

الأصل الأوّل: إن رسالته (صلى الله عليه وآله) كانت مسبوقه بوعده الله تبارك وتعالى.

والثاني: إنه خاتم النبيين ولا نبيّ بعده، فالأوّل إشارة إلى أن الله تعالى قد أخبر بنبوته الأنبياء السلف ووعدهم بها، والروايات والآثار تدلّ عليه، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

(١) تفسير القمي: ١/ ٣٧٩-٣٨٠، بحار الأنوار، المجلسي: ١٨/ ١٨٠.

(٢) (فيهم) هكذا في ديوان أبي طالب.

(٣) ديوان أبو طالب: ٥٧.

(٤) في مفتاح السعادة: (وتفاضل)، وما أثبتناه من الديوان.

(٥) ديوان أبي طالب: ٦٩، ٧٤.

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١﴾
 الآية وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا بُعِثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ
 وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ (٢).

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ
 وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ
 فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ
 مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

فهذه الآيات تدلّ على أنّ نبوتـه (صلّى الله عليه وآله) كانت مسبوقةً بوعده
 وعهده من الله إلى أنبياء السلف وهم أخبروا بها أمهم؛ ولذلك كثيرٌ من أحبار
 اليهود وعلماء النصارى كانوا ينتظرون بعثته وآمنوا به.

فمنها: ما روي أنّ أبا طالبٍ، قال: خرجتُ إلى الشام تاجرًا سنة ثمانٍ من
 مولد رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وكان في أشدّ ما يكون من الحرّ فلما
 اجتمعت (٥) على المسير، قال لي رجال قومي:

ما تريد أن تفعل بمحمّدٍ وعلى من تحلفه؟ فقلت: لا أريد أن أخلفه على
 أحدٍ يكون معي، فقيل: صغير في حرّ قبل هذا تخرجه معك؟ فقلت: والله

(١) الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٢) البقرة، الآية: ١٢٩.

(٣) البقرة، الآية: ٨٩.

(٤) البقرة، الآية: ١٠١.

(٥) أجمعت) هكذا في كمال الدين.

لا يفارقني حيث توجهتُ أبداً وإني لأوطئ له الرَّحْلَ، فذهبتُ فحشوتُ له خشية^(١) وكنا ركباناً كثيراً فكان والله البعير الذي عليه محمدٌ أمامي لا يفارقني، وكان يسبق الركبَ كلَّهم.

وكان إذا اشتدَّ الحرُّ جاءت سحابةٌ بيضاءٌ مثل قطعة ثلج فتسلم عليه وتقف على رأسه نزلنا تمتلئ الخياض ويكثر الماء وتخفر الأرض، وكنا في كلِّ حصب وطيب من الخير، وكان فينا قومٌ قد وقفتُ جماهم فمشى إليها رسول الله [صلى الله عليه وآله]، ومسح عليها وسارت فلما قربنا من بصرى إذا نحن بصومعة قد أقبلت تمشي كما تمشي الدابة السريعة حتى إذا قربت منا وقفتُ فإذا فيها راهب، وكانت السحابة لا تفارق رسول الله [صلى الله عليه وآله] ساعةً واحدةً وكان الراهب لا يكلم الناس، ولا يدرى ما الركب وما فيه من التجار، فلما نظر إلى النبي [صلى الله عليه وآله] عرفه، فسمعتُه يقول: إن كان أحدُ فانت أنت، فنزلنا تحت شجرة عظيمة قريبة من الراهب قليلة الأغصان ليس لها حمل وكان الركب ينزل تحتها، فلما نزلها رسول الله [صلى الله عليه وآله] اهتزت الشجرة، وألقت أغصانها على رسول الله [صلى الله عليه وآله] وحملت من ثلاثة أنواعٍ من الفاكهة؛ فاكهتين للصيف وفاكهةً للشتاء، فتعجب جميع من معنا من ذلك، فلما رأى بحيراء^(٢) الراهب ذهب فاتخذ طعاماً لرسول الله [صلى الله عليه وآله] بقدر ما يكفيه ثم جاء وقال: من يتولى أمر هذا الغلام؟ فقلتُ: أنا، فقال: أي شيء تكون منه؟ فقلتُ:

(١) (فحشوت له خشية) هكذا في كمال الدين.

(٢) (بحيرى) هكذا في: كمال الدين والخرائج والجرائح.

عمّه، فقال: يا هذا إن له أعمامًا، فأبي الأعمام أنت؟ فقلت: أنا أخو أبيه من أمٍّ واحدة، فقال: أشهد أنه هو، وإلا فلست بحيراء.

ثم قال: يا هذا أتأذن لي أن أقرب هذا الطعام منه ليأكله؟ فقلت له: قربه إليه، فالتفت إلي النبي [صلى الله عليه وآله]، فقلت له: يا بني رجل أحب أن يكرمك فكل، فقال: (هو لي دون أصحابي؟)، فقال بحيراء: نعم هو لك خاصة، فقال النبي (إني لا أكل دون هؤلاء)، فقال بحيراء: إنه لم يكن عندي أكثر من هذا، فقال: «أفتأذن يا بحيراء أن يأكلوا معي؟».

فقال: نعم، فقال: (بسم الله)، فأكل وأكلنا معه فو الله لقد كُنّا مائة وسبعين رجلًا وأكل كل واحد حتى شبع، وبحيراء قائم على رأس رسول الله [صلى الله عليه وآله] ويذبُّ عنه، ويتعجب من كثرة الرجال وقلة الطعام، وفي كل ساعة يقبل رأسه ويقول: هو هو وربّ المسيح، والناس لا يفقهون، فقال رجل من الركب: إن لك لشأنا وقد كُنّا نمرُّ بك قبل اليوم فلا تفعل بنا هذا البرّ، فقال بحيرا:

والله إن لي لشأنا وشأنا وإني لأرى ما لا ترون وأعلم ما لا تعلمون وإنّ تحت هذه الشجرة لغلما لو كنتم تعلمون منه ما أعلم لحملتموه على أعناقكم حتى تردّوه إلى وطنه، والله ما أكرمتكم إلا له ولقد رأيته وقد أقبل نورًا من أمامه ما بين السماء والأرض ولقد رأيته رجلاً في أيديهم مراوح الياقوت والزرجد يروّحونه وآخرين ينشرون عليه أنواع الفواكه، ثم هذه السحابة لا تفارقه وصومعتي مشيت إليه كما تمشي الدابة على رجلها، ثم هذه الشجرة لم تنزل يابسة قليلة الأغصان وقد كثرت أغصانها واهتزت وحملت ثلاثة أنواع

من الفواكه؛ فاكهتين للصيف وفاكهةً للشتاء.

ثمّ هذه الحياض التي غارت وذهب ماؤها أيام تخرج بني إسرائيل بعد الحواريين حين وردوا عليهم، فوجدنا في كتاب شمعون الصّفا أنّه دعا عليهم وغارت وذهب ماؤها ثمّ قال: متى ما قد رأيتم قد ظهر في هذه الحياض الماء فاعلموا أنّه لأجل نبيّ يخرج من أرض تهامة مهاجرة إلى المدينة اسمه في قومه: الأمين، وف السماء أحمد؛ وهو من عترة إسماعيل بن إبراهيم لصلبه، فوالله إنّه لهُو هو.

ثمّ قال بحيراء: يا غلام أسألك عن ثلاث خصال بحق اللّات والعزّى إلاّ ما أخبرتنيها، فغضب رسول الله [صلى الله عليه وآله] عند ذكر اللّات والعزّى، وقال (صلى الله عليه وآله):

(لا تسألني بهما فوالله ما أبغضتُ شيئاً كبغضهما إنّهما صنمان من حجارة لقومي).

فقال بحيراء هذه واحدة، ثمّ قال فبالله إلاّ ما أخبرتني، فقال:

(سَلِّ عَمَّا بَدَا لَكَ فَإِنَّكَ قَدْ سَأَلْتَنِي بِإِلَهِي وَإِلَهَكَ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).

فقال: أسألك عن نومك ويقظتك؟ فأخبره عن نومه ويقظته وأموره وجميع شأنه فوافق ذلك ما عند بحيراء من صفته التي عنده، فأكبّ عليه بحيراء يُقبّل رجليه، ويقول:

يا بُنَيَّ ما أطيب ريحك يا أكثر النبيّين أتباعاً، يا مَنْ بهاء نور الدُّنيا من نوره، يا مَنْ بذكره تعمر المساجد، كأنّي بك وتبعك العرب والعجم طوعاً

وكرهها، وكأني باللات والعزى وقد كسرتهما وقد صار البيت العتيق لا يملكه غيرك تضع مفاتيحه حيث تريد، كم من بطلٍ من قريشٍ وعربٍ تصرعه؟ معك مفاتيح الجنان والنيران، معك الريح الأكبر، وهلاك الأصنام.

أنت الذي لا تقوم الساعة حتى تدخل الملوك كلها في دينك، فلم يزل يُقبل يديه مرةً ومرّةً ورجليه أخرى ويقول: لئن أدركتُ زمانك لأضربن بين يديك بالسيف ضرب الزند بالزند وأنت سيّد وُلد آدم وسيّد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين، والله لقد ضحكت الأرض يوم وُلدت فهي ضاحكةٌ إلى يوم القيامة فرحاً بك، والله لقد بكت البيع والأصنام والشياطين فهي باكيةٌ إلى يوم القيامة، أنت دعوة إبراهيم وبشارة عيسى المقدّس المطهر من أدناس الجاهليّة، ثمّ التفت إلى أبي طالب، فقال:

ما يكون هذا الغلام منك فاني أراك لا تفارقه؟ فقال أبو طالب: هو ابني، فقال: ما هو ابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون والده الذي ولده حياً ولا أمّه، فقال: إنّه ابن أخي وقد مات أبوه وأمّه حاملّةً به وماتت أمّه وهو ابن ستّ سنين، فقال صدقت هكذا هو، ولكنني أرى أن تردّه إلى بلده عن هذا الوجه فإنّه ما بقي على ظهر الأرض يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ وصاحب كتاب إلاّ وقد علم بولادة هذا الغلام، ولئن رأوه وعرفوا منه ما قد عرفتُ أنا منه لبيغينه شراً وأكثر ذلك من اليهود، فقال أبو طالب: ولم ذلك؟

قال: لأنّه كائن ابن أخيك الرسالة والنبوة ويأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى، فقال أبو طالب: كلاً إن شاء الله لم يكن الله ليضيّعه، ثمّ خرجنا به إلى الشام فلما قربنا إلى الشام رأيتُ والله قصور الشامات كلها

قد اهتزت وعلامتها نور أعظم من نور الشمس، فلما توسّطنا الشام ما قدرنا أن نجوز سوق الشام من كثرة ما ازدحم الناس ينظرون إلى وجه رسول الله وذهب الخبر إلى جميع الشامات حتى ما بقي فيها حَبْرٌ ولا راهب إلا اجتمع عليه، فجاء حَبْرٌ عظيم اسمه كان سطور^(١) فجلس مقابله ينظر إليه ولا يكلمه بشيء حتى فعل ذلك ثلاثة أيام متوالية، فلما كانت الليلة الثالثة لم يصبر حتى قام إليه ندرًا خلفه كأنه يلتمس منه شيئًا، فقلت: يا راهب كأنك تريد منه شيئًا؟

قال: أجل إنني أريد منه شيئًا، ما اسمه؟ قلت: محمد بن عبد الله، قال: فتغيّر والله لونه، قال: فترى أن تأمره أن يكشف لي عن ظهره لأنظر إليه، فكشف عن ظهره فلما رأى الخاتم أكبّ عليه يقبله ويبكي، ثم قال: يا هذا اسرع برّد هذا الغلام إلى موضعه الذي وُلِدَ فيه فإنك لو تدري كم عدوّ له في أرضنا لم تكن بالذي تُقدّمه معك، فلم يزل يتعاهده في كل يوم ويحمل إليه الطّعام فلما خرجنا منها أتاه بقميص من عنده، فقال له:

ترى أن تلبس هذا القميص لتذكرني به فلم يقبله ورأيتك كارهاً لذلك فأخذت أنا القميص مخافة أن يغتمّ وقلت: أنا ألبسه وعجلتُ به حتى رددته إلى مكّة، فو الله ما بقي بمكّة يومئذ امرأة ولا كهل ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا استقبله شوقاً إليه إلا أبو جهل لعنه الله؛ فإنه كان فاتكاً ماجناً قد ثمل من السكر^(٢). انتهى.

(١) (نسطورا) هكذا في: كمال الدين، الخرائج والجرائح.

(٢) ينظر: كمال الدين، الصدوق: ١٨٢-١٨٦، الخرائج والجرائح، الراوندي: ٣/ ١٠٨٤-١٠٩١.

أقول: وروى (أن أبا طالب قال لما فارقه بحيراء بكى بكاء شديداً، وأخذ يقول: يا بن أمنة كأي بك وقد رمتك العرب بوترها وقد قطعك الأقارب ولو علموا كنت لهم بمنزلة الأولاد، ثم التفت إلي وقال: أنت يا عم فارع فيه قرابتك الموصولة واحفظ فيه وصية أبيك فإن قريشاًستهجرك فيه فلا تُبال^(١)) وساق الخبر وفي ذلك يقول أبو طالب في قصيدته الدالية التي أوردها محمد بن إسحاق بن يسار:

إِنَّ ابْنَ أَمْنَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا
 لَمَّا تَعَلَّقَ بِالزَّمَامِ رَحِمَتُهُ^(٢)
 فَارْفَضَ مِنْ عَيْنِي دَمْعَ ذَارِفٍ
 رَاعَيْتُ فِيهِ قَرَابَةً مَوْصُولَةً
 وَأَمَرْتُهُ بِالسَّرِّ^(٣) بَيْنَ عُمُومَةٍ
 سَارُوا لِأَبْعَدَ طَيْبَةٍ مَعْلُومَةٍ
 حَتَّى إِذَا مَا الْقَوْمُ بُصِرَى عَايَنُوا
 حَبْرًا فَأَخْبَرَهُمْ حَدِيثًا صَادِقًا
 عِنْدِي بِمِثْلِ مَنَازِلِ الْأَوْلَادِ^(٤)
 وَالْعَيْصُ^(٥) قَدْ قَلَّضَ بِالْأَزْوَادِ
 مِثْلَ الْجُمَانِ مُفَرَّدُ الْأَفْرَادِ^(٦)
 وَحَفِظْتُ فِيهِ وَصِيَّةَ الْأَجْدَادِ
 بِيضِ الْوُجُوهِ مَصَالِحِ أَنْجَادِ
 وَلَقَدْ تَبَاعَدَ طَيْبَةٌ^(٧) الْمُرْتَادِ
 لَاقُوا عَلَى شَرْفٍ مِنَ الْمُرْصَادِ
 عَنْهُ وَرَدَّ مَعَاشِرَ الْحُسَّادِ

(١) كمال الدين، الصدوق: ١٨٧.

(٢) في الديوان: (صَمَمْتُهُ).

(٣) (دَعْوَتُهُ لِلْسِرِّ) هَكَذَا فِي الدِّيَوَانِ.

(٤) ورد البيت في الديوان هكذا:

إِنَّ الْأَمِينَ مُحَمَّدًا فِي قَوْمِهِ
 عِنْدِي يَفُوقُ مَنَازِلَ الْأَوْلَادِ
 (٥) (وَالْعَيْسُ) هَكَذَا فِي الدِّيَوَانِ.

(٦) في الديوان: (مُفَرَّقٌ بِيَدَادٍ) بَدَلُ (مُفَرَّدُ الْأَفْرَادِ).

(٧) في مفتاح السعادة: (طَيْبَةٌ)، وما أثبتناه من الديوان، كونه الأوفق بالسياق.

ظَلَّ الْغَمَامَ وَعَزَّ ذِي الْأَكْبَادِ^(٢)

قَوْمًا يَهُودًا قَد رَأَوْا مَا قَد رَأَى

عَنهُ وَأَجْهَدَ أَحْسَنَ الْأَجْهَادِ^(٣)

سَارُوا^(١) لِقَتْلِ مُحَمَّدٍ فَنَهَاهُمْ

وأنا أقول: قد ذكرنا هذه الرواية بطولها لتضمّنها كلّ ما تشتهيهِ الأنفس وتلذّ الأعين بل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت؛ فأتمّها دالّةً على ما قاله أمير المؤمنين (عليه السلام) من قوله: (لِإِنجَازِ عِدَّتِهِ).

ولو لم يكن وعد سابق في كتب الأنبياء والرّسل فكيف قال البحيراء: هُوَ هُوَ وَرَبُّ الْمَسِيحِ وَقَالَ مَا قَالَ؟! وسنذكر إن شاء الله من كُتِبَ الْأَنْبِيَاءُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ عِنْدَ قَوْلِهِ (عليه السلام) (مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ).

قوله (عليه السلام): (وَتَمَّامُ نُبُوتِهِ): وفيه إشارة إلى أنّه خاتم النبيين وآخرهم [صلى الله عليه وآله]، وليس بعده رسول ولا نبيٌّ وكلّ مَنْ ادَّعى ذلك فدمه هدر؛ وهذا إشارة إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٤) الآية وقد دلّ على قوله (عليه السلام) العقل والنقل:

أما العقل فلو جوه عديدة:

الأوّل: إنّنا قد بيّنا سابقاً أنّ النبوة والرّسالة لطفٌ منه تعالى على عباده؛ لئلا

(١) في الديوان: (ثاروا).

(٢) ورد هذا البيت في الديوان هكذا:

قَوْمٌ يَهُودٌ قَد رَأَوْا مَا قَد رَأَى ظَلَّ الْغَمَامَةَ نَاغِرِي الْأَكْبَادِ

(٣) (عَنهُ وَجَاهَدَ أَحْسَنَ التَّجْهَادِ) هكذا ورد العجز في الديوان، سيرة ابن إسحاق: ٥٥-٥٦، ديوان أبو طالب: ١٣٠-١٣١.

(٤) الأحزاب، الآية: ٤٠.

يكون الناس في كلِّ زمانٍ في حيرة وضلالة، وقد ذكرنا أيضًا أن إرسال الرُّسل منه بمقتضى كلِّ زمان يتفاوت وذلك لأنَّ سلسلة البشر من أوَّل خلقهم إلى زماننا هذا دائمًا في طريق التكامل والترقي وهكذا الأمر إلى يوم القيامة.

وكلُّ نبيٍّ ورسولٍ في كلِّ زمان من الأزمنة لا بُدَّ له من أن يأتي بجميع ما تحتاج إليه الأمة في أمور الدُّنيا والدين؛ لتكون الأمة بسبب الاتِّباع منه جامعةً بين مرتبتي العلم والعمل وسعادة الدُّنيا والآخرة، فإذا بُعث نبيٌّ وأتى بجميع ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة فالعقل يحكم بأنَّ إرسال الرسول بعده لغوٌ قبيح؛ إذ لا فائدة في بعثته وفعل اللُّغو على الحكيم قبيح عقلاً فيلزم أن لا يكون نبيٌّ بعدُ حذرًا من اللُّغو فيثبت ختمُ نبوَّة النبيِّ المفروض وهو المطلوب.

ولما كان نبينا (صلى الله عليه وآله) أتى لنا بجميع ما نحتاج إليه إلى يوم القيامة بلا شكٍّ وريب فهو خاتم النبيين وهو المطلوب.

الثاني: إنَّ الأنبياء السَّلف دائرة نبوتهم وبعثتهم محدودة بزمان معيَّن كما هو الثابت من الآثار ولا يُنكره إلا مكابر عقله، فلا بُدَّ من أن يبعث اللهُ رسولاً بعد انقضاء مدَّته وإلا يلزم خلوُّ الأرض من الحجَّة وتعطيل اللُّطف منه تعالى.

وأما إذا كانت دائرة النبوَّة غير محدودة بزمانٍ فأبى احتياج إلى رسولٍ آخر؛ إذ الغرض حاصل، ولما كانت نبوَّة نبينا (صلى الله عليه وآله) غير محدودة بزمان بل حلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة فهو خاتم النبيين وهو المطلوب.

الثالث: إن الأنبياء السَّلف كانوا بالنسبة إليه (صلى الله عليه وآله) كالمقدمة بالنسبة إلى ذيلها؛ ولأجل ذلك كلُّ واحدٍ منهم يُبشِّرُ بوجوده وبعثته، فعلى هذا يلزم إذا وصل الأمر إلى الغاية والنهاية ختم به وحيث ما جاء بعده نبيُّ علمنا أنه الخاتم لهم وهو المطلوب.

الرابع: كلُّ رسولٍ ونبيٍّ في الأزمنة السابقة كان يُبشِّرُ أمته برسول بعده ولا سيَّما رسول كان قبل رسول الخاتم، كما أن موسى بشَّرَ بعيسى، وعيسى برسولنا، فلو كان بعد الرسول رسول لكان لازماً عليه (صلى الله عليه وآله) الإخبار به والبشارة برسالته وأمر الأمة بالاتباع منه، ومن المعلوم أنه لم يُخبر به بل قال:

(كُلُّ مَنْ ادَّعَى النُّبُوَّةَ بَعْدِي فَاقْتُلُوهُ)^(١).

فعلمنا أنه خاتم النبيين وهو المطلوب.

الخامس: إنَّه (صلى الله عليه وآله) ادَّعى النُّبُوَّةَ وأتى بالمعجزات والآيات الدالَّة على صدقها، وكلُّ رسولٍ لا بُدَّ له من أن يكون كذلك، فلو كان بعده رسول لا بُدَّ له أيضاً أن يكون آتياً بالمعجزات صادقاً في قوله معصوماً من كلِّ ذنب ولازم ذلك أن يكون السابق كاذباً إذ هو ادَّعى أنه خاتمهم، فإن حكماً بصدقه يلزم كذب الآخر، وإن حكماً بكذبه وصدق الآخر يلزم كون النبي كاذباً غير معصوم، وكلُّ مَنْ كان كذلك لا يصلح للنُّبُوَّة وهو خلاف الفرض، وبعبارة أخرى صدقُها مستلزمٌ لاجتماع النقيضين وكذبها مستلزمٌ لعدم صلاحيتها؛ فلا بُدَّ من الحكم بصدق الأوَّل وهو المطلوب.

(١) ينظر: من لا يحضره الفقيه، الصدوق: ٤/١٦٣.

السادس: لو كان بعده نبي لا بُدَّ من أن يكون أفضل منه (صلى الله عليه وآله) كما هو شأن كل رسول بالنسبة إلى قبله؛ فإنَّ السابق مقدّمة للأحق، مضافاً إلى أن الزمان من حيث تكامل زمانيّاتها يقتضي ذلك، وحيث إنّه (صلى الله عليه وآله) أفضل السابقين والأحقيين كما هو ثابت مدلّل وإلا لما قال الله مخاطباً إيّاه: (لَوْلَاكَ لَمَّا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ)^(١)، فلا معنى لوجود شخصٍ أفضل منه فلا رسول بعده وهو المطلوب.

السابع: لو كان بعده نبي؛ لا يخلو حاله إمّا أن يكون ناسخاً لشرعته كما هو شأن المرسلين، أو لا يكون كما هو شأن النبي فقط وكلاهما خلاف العقل؛ أمّا الأوّل: فلأنّ الشريعة الناسخة لا بُدَّ من أن تكون أحسن وأكمل وأوفق بنظام الدُّنيا والدِّين من [الشريعة المنسوخة، وإلا فلا معنى لنسخها وحيث لم يمكن قانون أكمل من قانون الإسلام ولا شريعة أحسن منه فلا دليل على نسخه وهو المطلوب.

وأما الثاني: [و] أيضاً محال؛ لأنّ النبي إذا لم يكن صاحب كتابٍ وشريعة فليس هو إلاّ مُرَوِّج للشريعة السابقة كما كان الأنبياء كصالح وهود ويونس ولوط وغيرهم كذلك، والإسلام مُستغنٍ عنهم؛ لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) مات وخلف بعده اثني عشر أو صيِّاء والثاني عشر منهم حيٌّ غائب عن أبصارنا إلى ما شاء الله؛ لئلاّ تملو الأرض من حُجّة، فهم مُرَوِّجون للإسلام حافظون لأحكامه ونواميسه، وفي زمان الغيبة هذه الوظيفة محوّلة إلى علماء الإسلام، فأیُّ احتياج إلى مُرَوِّج غيرهم؟ فوجود النبي لا فائدة فيه.

(١) المناقب، ابن شهر آشوب: ٢١٧/١.

الثامن: إنَّ نَسَخَ كُلِّ شَرِيعَةٍ لَا يُعْقَلُ إِلَّا بَعْدَ انْدِرَاسِهَا، وَعَدَمُ وِفَائِهَا بِاحْتِيَاجَاتِ الْأُمَّةِ فِي مَقْتَضِيَّاتِ الزَّمَانِ كَمَا أَنَّ الشَّرَائِعَ السَّابِقَةَ بِالْقِيَاسِ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ كَذَلِكَ، وَالشَّرِيعَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) فِي كُلِّ عَصْرٍ وَزَمَانٍ مُنْطَبِقَةٌ عَلَيْهِ وَعَلَى كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ، وَلَا انْدِرَاسَ فِيهَا كَمَا نَرَى أَنَّهَا بَعْدَ الْقُرُونِ الْمُتَمَادِيَةِ بَاقِيَةٌ، وَفِي إِدَارَةِ النَّاسِ كَافِيَةٌ؛ فَعَلِيَّةٌ لَا مَعْنَى لِنَسَخِهَا عَقْلًا فَلَا رَسُولَ بَعْدَهُ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَأَمَّا الْأَدَلَّةُ النَّقْلِيَّةُ عَلَى كَوْنِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) خَاتَمَ النَّبِيِّينَ فَكَثِيرَةٌ نَذَكُرُ بَعْضًا مِنْهَا:

الأوّل: نَصُّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ حَيْثُ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(١).

[الثاني]^(٢): وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لَعَلِّي:

(يَا عَلِيُّ أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي)^(٣).

[الثالث]^(٤): رَوَايَةُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَفِي أَحَادِيثِ الْمَعْرَاجِيَّةِ قَالَ (عَلِيهِ

السَّلَام) مُخَاطَبًا لَعَلِّي:

(خَصَّصْنَا بَلِيلَةَ الْقَدْرِ وَأَنْتَ مَعِيَ فِيهَا وَلَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِنَا، وَالْخَامِسَةُ:

(١) الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٢) لم ترد في كلام النقيوي، وقد وضعناها كي لا يشتبه الأمر على القارئ.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٣/٣٢، الكافي، الكليني: ٨/١٠٧، رسائل الشريف المرتضى: ٤/٧٦،

الاقتصاد، الطوسي: ٢٢٢.

(٤) لم ترد في كلام النقيوي، وقد وضعناها كي لا يشتبه الأمر على القارئ.

نَاجَيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَمِثَالِكَ مَعِيَ فَسَأَلْتُ فِيكَ فَأَجَابَنِي إِلَيْهَا إِلَّا النَّبُوءَةَ فَإِنَّهُ قَالَ: حَخَصَّصْتُهَا بِكَ وَحَتَمْتُهَا بِكَ^(١).

الرابع: وفيها إشارة: (ثم قالوا، أي الملائكة: مرحباً بك من أخ ومن خليفة فَنِعَمَ الْأَخُ وَنِعَمَ الْخَلِيفَةُ وَنِعَمَ الْمُخْتَارُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ)^(٢).

الخامس: روى صاحب كتاب ينباع المودّة، وهو من أعلام العامّة في قضيّة توبة آدم ما هذا لفظه، وفي رواية أخرى (قال آدم: لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمُ قَدْرًا عِنْدَكَ؛ فَمَنْ جَعَلَتْ اسْمَهُ مَعَ اسْمِكَ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي أَنَّهُ لَا خَيْرَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ وَلَوْلَاهُ مَا خَلَقْتُكَ)^(٣). انتهى موضع الحاجة منه.

السادس: قال رسول الله:

يَا عَلِيَّ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَنِي وَخَلَقَكَ مِنْ نُورِهِ وَاصْطَفَانِي وَاصْطَفَاكَ فَاخْتَارَنِي لِلنَّبُوءَةِ وَاخْتَارَكَ لِلْإِمَامَةِ^(٤) الحديث^(٥).

ثامنًا- السيّد نبيل الحسنّي:

يُرْشِدُ قَوْلُهُ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ): «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى

(١) الأُمالي، الطوسي: ٦٤٢، وفيه الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد اجتزأ النقيي منه ما رآه متناسباً مع المطلب.

(٢) اليقين، ابن طاووس: ٢٩٠.

(٣) ينباع المودّة، القندوزي: ١/٦٦، ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (صلى الله عليه وآله)، القاضي عياض: ١/١٧٤.

(٤) ينظر: الأُمالي، الصدوق: ١٥٥.

(٥) مفتاح السعادة: ١/٣٩٢-٤١١.

الله عليه وآله لإِنجَازِ عِدَّتِهِ، وَتَمَامِ نُبُوتِهِ» -فضلاً عما أفاده الشَّرَاح- إلى جُمْلَةٍ من الأمور؛ وهي:

أولاً- السياق المعرفي العام لأصل بَعَثَ الأنبياء (عليهم السلام).

يكشف النَّصُّ الشريف -مورد البحث- عن استمراره (عليه السلام) بعرض السياق المعرفي العام في بيان الأصل الذي من أجله جعل الله النبوة في آدم ومن اصطفاهم من ولده عبر تحقيق خلافة الله في الأرض وما ارتبط بمسيرهم وتكاليهم الشرعية «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا، (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)».

ثانياً- يُرشد قوله (عليه السلام): «لِإِنجَازِ عِدَّتِهِ وَتَمَامِ نُبُوتِهِ» إلى أمرين:

١- رجوع الهاء إلى لفظ الجلالة.

فقد جعل عِدَّتَهُم ثابتة؛ وذلك لعلمه عَزَّ وَجَلَّ بخلقه وما تؤول إليه أمورهم في الحياة والموت، وهذا يكشف عن تقديره سبحانه لعمر الدنيا وما تحتاجه الخليفة من الأنبياء (عليهم السلام) ومن يخلفهم من أوصيائهم فهم حُججُه تعالى على الخلق من بعد الرُّسُل، فلا ينقص منهم واحد ولا يزيد فيهم واحد، فعددهم وعِدَّتَهُم ثابتة.

٢- رجوع الهاء إلى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ).

ليكون هو المعني بإنجاز ما أعدّه الله للأرض ومن عليها من الخير المكنون في الخلافة، فيكون مُجَسِّدًا لحقيقة خليفة الله في أرضه، وأن من سبقه من الأنبياء إنما كانوا مهَّدين لبعث الخليفة الذي سجد له جميع الملائكة (عليهم السلام) كما مرَّ بيانه في صفة خلق آدم (عليه السلام)، فيكون هو المحرر لمقام

النبوة والرسالة والخلافة، فما أعدّه الله تعالى في هذه المقامات جمعها في حبيبه المصطفى (صلى الله عليه وآله)، ومن ثمّ فيه تمّت النبوة.

ثالثاً- إنّ الملاحظ في كلام الشارح النقوي (رحمه الله) إسهابه في العرض التاريخي المرتبط ببعث النبي (صلى الله عليه وآله) -والذي بدا لي من ذلك- أنّه أراد الإفادة في هذه المسألة وإن لم يكن النصّ الشريف دالاً عليها ولا توجد قرينة سياقية في النصّ تُرشد إلى ذلك، ومن ثمّ فقد أوردناه بتمامه عملاً بالمنهج المعتمد.

إلا أنّ هذا العرض التاريخي فيه الغثّ والسمين، والصحيح والعليل، ولا أعلم كيف مرّت تلك النصوص على السيّد النقوي مرور الكرام ولم يتوقّف عندها ويعرضها على مائدة البحث والدراسة؟! لكن يبدو أنّه كان منشغلاً في الإفادة التاريخية لما تعلق ببعث النبي (صلى الله عليه وآله).

رابعاً- تحقيق الحديث المنسوب للنبي (صلى الله عليه وآله) في بدء بعثه: «يا خديجة قد خشيتُ أن يكونَ خالطَ عقلي شيءٌ» الذي أورده الشارح النقوي (رحمه الله).

إنّ النصوص والأحاديث التي وردت في شرح السيّد النقوي -ولاسيّما المرتبطة ببدء بعث النبي (صلى الله عليه وآله)- استلزمت الوقوف عندها، وبيان ما علق فيها من شبهات فكرية وعقدية وتاريخية، ومنها الحديث المنسوب للنبي (صلى الله عليه وآله): «يا خديجة قد خشيتُ أن يكونَ خالطَ عقلي شيءٌ».

والحديث يصرخ بالوضع، والكذب على الله ورسوله (صلى الله عليه وآله)

على الرغم من وُروده في كتابٍ معتبر؛ أي مصنّف الكوفي^(١)، أما عين لفظه فهو كالآتي:

قال ابن أبي شيبة: «حدّثنا عبيد الله، قال: أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة: أنّ رسول الله [صلى الله عليه وآله] كان إذا برز سمع من يناديه: يا محمّد، فإذا سمع الصوت انطلق هاربًا، فأتى خديجة فذكر ذلك لها، فقال: يا خديجة قد خشيتُ أن يكونَ قد خالطَ عقلي شيءٌ؛ إني إذا برزتُ أسمعُ من يُناديني فلا أرى شيئًا فأنطلقُ هاربًا فإذا هو عندي يُناديني؟!»

فقالت: ما كان الله ليفعل بك ذلك، إنك ما علمت تصدق الحديث، وتؤدّي الأمانة، وتصلّ الرّحم، فما كان ليفعل بك ذلك، فأسرت ذلك إلى أبي بكر، وكان نديمًا له في الجاهليّة، فأخذ أبو بكر بيده فانطلق به إلى ورقة، فقال: وما ذاك؟ فحدّثه بما حدّثته خديجة، فأتى ورقة فذكر ذلك له، فقال ورقة: هل ترى؟

قال: لا، ولكنني إذا برزتُ سمعتُ النداء، فلا أرى شيئًا، فأنطلقُ هاربًا فإذا هو عندي، قال: فلا تفعل، فإذا سمعتَ فائبتُ حتى تسمع ما يقول لك، فلمّا برز سمع النداء: يا محمّد! قال: لبيك، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله، ثمّ قال له، قل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرّحمن الرّحيم * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿^(٢) حتى فرغ من فاتحة الكتاب، ثمّ أتى

(١) الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم ابن عثمان بن خواستي العبسي مولاهم الكوفي صاحب المسند والمصنّف وغير ذلك، المتوفّي سنة (٢٣٥هـ)، أخذ عنه الحديث البخاريّ ومسلم وأصحاب السنن. (ينظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي: ٣٣/٢)
(٢) الفاتحة، الآية: ٢-٤.

ورقة فذكر ذلك له، فقال له ورقة: أبشر، ثم أبشر، ثم أبشر، فأني أشهد أنك الرسول الذي بشر به عيسى ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(١) فأنا أشهد أنك أنت أحمد، وأنا أشهد أنك محمد، وأنا أشهد أنك رسول الله، وليوشك أن تؤمر بالقتال، ولئن أمرت بالقتال وأنا حي لأقاتلن معك، فمات ورقة، فقال رسول الله [صلى الله عليه وآله سلم]: رَأَيْتَ الْقِسَّ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ ثِيَابٌ خُضْرٌ^(٢).

والحديث لم يتعرض لبيان مغالطاته ووهنه أحد من أعلام أهل السنة والجماعة -بحسب ما توافر لدي من مصادر- ؛ ولعل مرد ذلك إلى تقيدهم بالسند، ومن هنا نجد الحافظ ابن حجر العسقلاني قد اكتفى ببيان حال سنده والتلميح إلى مغالطاته دون التصريح بها، مُعللاً ذلك إلى الفترة الزمنية في مراحل البعثة، فقال:

«قلت: وهو مُرسَلٌ، ورجاله ثقاتٌ، فإن ثبت، حُمل على أن ذلك كان بعد قصّة غار حراء، ولعلّه كان بعد فترة الوحي، والعلم عند الله تعالى»^(٣).

في حين أن الحديث يردّ عليه جملة من الإشكالات؛ وذلك لامتناعه بالمغالطات، فضلاً عن الإساءة لله ورسوله (صلى الله عليه وآله)، وأمّ المؤمنين خديجة (عليها السلام)، وهي:

١- إنّها تُظهر النبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله) -والعياذ بالله- مضطرباً

(١) الصف، الآية: ٦.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة الكوفي: ٤٣٨/٨، طبع دار الفكر.

(٣) العجّاب في بيان الأسباب، ابن حجر: ٢٢٤/١.

وخائفًا وغير مؤهلٍ لحملِ الرسالة إلى المستوى الذي يلتجئ فيه إلى أمِّ المؤمنين خديجة (عليها السلام) يشكو إليها حاله، ويخشى على عقله من الجنون ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١).

٢- إن الرواية تجعل من أمِّ المؤمنين (عليها السلام) أربط جأشًا، وأصلب نفسًا، وأقوى يقينًا بالله تعالى من النبيّ (صلّى الله عليه وآله)؛ وذلك لتشخيصها المؤهلات التي يحملها النبيّ (صلّى الله عليه وآله) في جملة من الخصال الحميدة التي تدفع عنه البلاء بالجنون، فتقول له: (ما كان الله ليفعل بك ذلك)، ومن ثمّ يمرّر الحديث على السامع والقارئ عبر بيان أنها كانت تؤازره في تلقّي النبوة، فيصبح الأمر مقبولًا لدى القارئ.

٣- بل الأدهى من ذلك إنها (عليها السلام) تذهب إلى أبي بكر تستشيريه في أمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله)!! ليأخذ بيده إلى ورقة بن نوفل، وهو كالمريض الضعيف الذي لا يدرك ماذا يحيط به -والعياذ بالله- ولا نعلم أين كان عنه عمّه أبو طالب زعيم بني هاشم وسيّد البطحاء؟! وهو من تولى رعايته، وتكفل به، ودافع عنه، ونصره بيده ولسانه، بل كيف تغفل عنه أمّ المؤمنين (عليها السلام) فتلتجئ إلى أبي بكر وهو رجل غريب عنه، ولم يُعرف عنه أنّه كان مهتمًّا بالقصص وأهل الكتاب، ولم يكن موحدًا بل مُشركًا بالله لتستعين به على أمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله).

٤- بل الأعجب من ذلك أنّ ورقة بن نوفل قد نزل عليه القرآن قبل النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ويشهد على ذلك؛ فيقول له: «إني أشهد أنك الرسول

(١) الأنبياء، الآية: ٢٢.

الذي بشر به عيسى ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(١)!!! فهل هو مصادفة أم من مخيلة الراوي!؟

٥- بل الأغرب ما في الرواية من المغالطات والتناقضات أن ورقة بن نوفل يشهد أمام أم المؤمنين خديجة (عليها السلام) وأبي بكر، ورسول الله (صلى الله عليه وآله) بأنه النبي الخاتم الذي بشر به عيسى (عليه السلام)، ثم يختتم لنا الراوي المشهد ويُدلي الستار على الأسطورة التي نسجها خياله بقاء ورقة على نصرانيته؛ وذلك لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): «رَأَيْتُ الْقِسَّ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ ثِيَابٌ خَضْرَاءُ»!!

ومن ثمّ: لا صحّة لما رواه ابن أبي شيبة الكوفي في هذا الشأن، بل إن الرواية موضوعة مكذوبة على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فضلاً عما جاءت به من الإساءة له وإدخال الأذى عليه.

والذي قطع بصحته أن أم المؤمنين خديجة (عليها السلام) وقفت بجانب رسول الله (صلى الله عليه وآله) بكل ما أوتيت من قوة، ولكن ليس بالصورة التي تظهر ضعف رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتردده وحيرته وشكه فيما يسمع أو يرى - والعياذ بالله مما يصفون -.

خامساً- تحقيق الحديث الذي روته عائشة في قول النبي (صلى الله عليه وآله) «رَمَلُونِي رَمَلُونِي، فَوَاللَّهِ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى عَقْبِي» وفي لفظ آخر: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي».

ومما استشهد به الشارح النقوي (رحمه الله) من الأحاديث المتعلقة ببدء

الوحي، ما رواه محمد بن كعب وعائشة، والظاهر أن النقيوي اعتمد في النقل على كتاب ابن شهر آشوب^(١) ولم يرجع إلى البخاري وغيره كمسند ابن حنبل في الرواية؛ مما خلق تفاوتاً بين الكتابين في عرض الرواية وبعض مفردتها كقوله (صلى الله عليه وآله): «زَمَّلُونِي زَمَّلُونِي، فوالله لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى عَقْلِي» كما في مناقب ابن شهر، وفي لفظ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، كما في صحيح البخاري.

ومن ثمَّ سنورد الروایتين؛ وذلك لبيان وحدة الموضوع، والاتساق النصي بينهما في عرض مجريات بدء الوحي وبعث النبي (صلى الله عليه وآله).

١ - رواية ابن شهر آشوب: فعن عائشة أمها قالت: «أول ما بدأ به رسول الله [صلى الله عليه وآله] من الوحي الرؤيا الصادقة، وكان يرى الرؤيا فتأتيه مثل فلق الصبح، ثمَّ حُبَّ إليه الحُلا، فكان يخلو بغار حري، فسمع نداء: يا محمد، فغشي عليه، فلما كان اليوم الثاني سمع مثله نداء فرجع إلى خديجة، فقال:

(زَمَّلُونِي زَمَّلُونِي، فوالله لقد خَشِيتُ عَلَى عَقْلِي) !!

فقلت: كلا والله، لا يُخزبك اللهُ أبداً، إِنَّكَ لتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ؛ فانطلقت خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل، فقال ورقة: هذا والله الناموس الذي أنزل على موسى وعيسى، وإني أرى في المنام ثلاث ليالٍ أن الله أرسل في مكة رسولا اسمه محمد، وقد قرُب وقته، وقد قرب وقته، ولست أرى في الناس رجلاً

(١) ينظر: مناقب آل أبي طالب، المازندراني: ٤٢/١ .

أفضل منه، فخرج إلى حرى فرأى كُرسياً من ياقوتة حمراء، مرقاة من زبرجد، ومرقاة من لؤلؤ، فلمّا رأى ذلك غُشي عليه، فقال ورقة: يا خديجة فإذا أتته الحالة فاكشفي عن رأسك فان خرج فهو ملك، وإن بقي فهو شيطان، فنزعت خمارها، فخرج الجائي، فلما اختمرت عاد، فسأله ورقة عن صفة الجائي، فلمّا حكاه قام وقبّل رأسه، وقال: ذاك الناموس الأكبر الذي نزل على موسى وعيسى، ثمّ قال: أبشّر فإنك أنت النبي الذي بشّر به موسى وعيسى، وإنك نبي مرسل ستؤمر بالجهاد»^(١).

٢- رواية البخاري: فعن عائشة أنّها قالت: «أول ما بدأ به رسول الله [صلى الله عليه وآله وسلم] من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثمّ حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه؛ وهو التعبّد في الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثمّ يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال:

اقرأ، قال: ما أنا بقارئ؟ قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثمّ أرسلني، فقال: اقرأ، قلتُ: ما أنا بقارئ؟ فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثمّ أرسلني، فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة، ثمّ أرسلني، فقال:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾^(٢).

(١) مناقب آل أبي طالب، المازندراني: ٤٢ / ١ .

(٢) العلق، الآية: ١-٣ .

فرجع بها رسول الله [صلى الله عليه وآله وسلم] يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال:

زَمَّلُونِي زَمَّلُونِي، فزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لَخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبْرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي!!

فقالت خديجة: كَلَّا، وَاللَّهِ مَا يُحْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأً قد تنصّر في الجاهليّة، وكان يكتب الكتاب العبرانيّ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانيّة ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة:

يا ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة:

يا ابن أخي ماذا ترى، فأخبره رسول الله [صلى الله عليه وآله وسلم] ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقال رسول الله [صلى الله عليه وآله وسلم] عليه وآله]:

أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن تُوفِّيَ وفتر الوحي»^(١).

(١) صحيح البخاريّ، باب: كيف كان بدء الوحي، ٤ / ١.

٣- تحقيق رواية ابن شهر آشوب والبخاريّ وبيان ما علق بهما من شبهات.

والحادثة التي وردت بهذه الألفاظ تركز على إظهار جملة من الأمور التي أريد منها عرض صورة مشوهة عن سيّد الأنبياء والمرسلين (صلى الله عليه وآله) ومُسيئة له ولأمّ المؤمنين خديجة (عليها السلام) في أهمّ مرحلة من مراحل الإسلام؛ وهي على النَّحو الآتي:

الأمر الأوّل: مهامّ أمّ المؤمنين خديجة (عليها السلام) في بدء البعثة كما يروي البخاريّ.

تعدّدت الأحاديث الواردة في صحاح المسلمين وهي تروي كيفية تلقّي النبيّ المصطفى (صلى الله عليه وآله) للوحي، واختلفت الصورة لدى الباحث والقارئ للسيرة النبويّة حينما يقرأ هذه الحادثة، لدرجة أنّه يبقى محتاراً فيما قرأ؛ أهو من كتب المسلمين أم من قصص الخيال الأسطوري، الذي يروي بطولاتٍ خاضها بعض الفرسان مع العوالم الأخرى؟ فضلاً عمّا يعتري هذا الفارس أو ذاك من الأهويل والصعاب الجسيمة التي تُرعب القارئ بأكثر ممّا أرعبت صاحب الأسطورة؛ كعَصْرِ جبرائيل (عليه السلام) لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) حتّى بلغ منه الجهد؟! (١).

فضلاً عن جملة من الصور البشعة والتي تُوجي للقارئ بأنّ النبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلّم) كان يظنُّ أنّه مجنون وإلى المستوى الذي يحاول فيه الانتحار -والعياذ بالله- كما ينصّ ابن إسحاق المطلبي (٢)، والطبري، قائلاً:

(١) ينظر: صحيح البخاري: باب كيف كان بدء الوحي، ٣/١.

(٢) السيرة النبويّة: ١٠٢/٢.

«لَأَعْمِدَنَّ إِلَى خَالِقِي مِنَ الْجَبَلِ، فَلَأَطْرَحَنَّ نَفْسِي مِنْهُ فَلَأَقْتُلَنَّهَا فَلَأَسْتَرِيحَنَّ، فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كُنْتُ وَسَطَ الْجَبَلِ، سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -»^(١).

أو أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان لا يهتدي - والعياذ بالله - لتشخيص هويّة المتكلّم معه، فلم يُفرّق بين ما يسمعه أرحمانيّ هو أم شيطانيّ؟! وهذا ما رواه عنه ابن سعد، بلفظ:

«يَا خَدِيجَةُ إِنِّي أَرَى ضَوْءًا وَأَسْمَعُ صَوْتًا لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ كَاهِنًا»^(٢).

ولذلك أخذته خديجة إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل، فحدّد له هويّة المتكلّم، قائلاً:

(إنّه الناموس الأكبر) فضلاً عن بيانه لبعض أحداث الرسالة المحمّديّة، بقوله: (ليتني أكون حيّاً إذ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ)^(٣)، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

«أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟!»

وغيرها من الصور الموحّشة التي ترسم للقارئ سيرة رجل لا يدري - والعياذ بالله - ماذا أنزل عليه، وماذا يُراد منه أن يقوم به؟!

إلا أنّ ثمة سؤالاً في كلّ هذا الركام الفكريّ، يقول: ماذا لو كان ورقة بن نوفل

(١) تاريخ الطبري: ٤٩/٢، دلائل النبوة، البيهقي: ١٤٨/٢ تاريخ الإسلام، الذهبي: ١٣٢/١،

إمتاع الأسماع، المقرئزي: ١١/١٩٧، الشفا، القاضي عياض: ١٠٣/٢.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ١/١٩٥.

(٣) صحيح البخاري: باب كيف كان بدء الوحي، ٣/١.

قد قال لخديجة (عليها السلام) التي جاءت تستعلم عن حال زوجها (صلى الله عليه وآله) وما أصابه؟ أن قال لها ورقة بن نوفل: إن هذا الذي سمعه زوجك إنما هو مسّ من الشيطان - والعياذ بالله - أو أنه يتراءى له أن قد سمع صوتاً، ماذا سيكون حال خديجة؟ بل الأهمّ ماذا سيكون موقف النبي (صلى الله عليه وآله) وآله وسلّم؟ أترأه يتبع قول ورقة - والعياذ بالله - أم أنه يُنكرُ عليه قوله؟ أم أنه يبقى حائراً بين ما يسمع من الوحي وما قاله ورقة؟!

ومن ثمّ لا يمكن لأي منصف وعاقل ومؤمن باليوم الآخر يخشى الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) أن يسلمّ ويعتقد بذهاب أمّ المؤمنين خديجة (عليها السلام) إلى ورقة كما يروي البخاريّ ومسلم وغيرهما، ولا بما دار بينهما من كلام؛ بل نبرأ إلى الله سبحانه من كلّ ما من شأنه المساس بحُرمة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم).

ونؤمنُ أنه (صلى الله عليه وآله وسلّم) كان أعرف الخلق بنفسه، وأنه المخصوص بالنبوة، والمصطفى بالرسالة، قبل أن يخلق الله الخلائق، وأنه غير محتاج إلى تطمينات ورقة وتشخيصه، وتفسير الرهبان وغيرهم، بل نؤمنُ بما قالته بضعة المصطفى فاطمة الزهراء (عليها السلام) وهي تتحدّث للمهاجرين والأنصار عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم)، فقالت:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ أَبِي مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ [صلى الله عليه وآله]، اخْتَارَهُ قَبْلَ أَنْ أُرْسَلَهُ، وَسَمَّاهُ قَبْلَ أَنْ اجْتَبَاهُ، وَاصْطَفَاهُ قَبْلَ أَنْ ابْتَعَثَهُ، إِذِ الْخَلَائِقُ بِالْغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبَسْتَرِ الْأَهْوِيلِ مَصُونَةٌ، وَبِنَهَايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ، عَلِمًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا يَلِي الْأُمُورِ، وَإِحَاطَةً بِحَوَادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً بِمَوَاقِعِ الْأُمُورِ، ابْتَعَثَهُ

اللَّهُ إِنَّمَا لِأَمْرِهِ، وَعَزِيمَةٌ عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ، وَإِنْفَاذًا لِقَادِرِ حَتْمِهِ، فَرَأَى
الْأُمَّمَ فِرْقًا فِي أَدْيَانِهَا، عُكْفًا عَلَى نِيرَانِهَا، عَابِدَةً لِأَوْثَانِهَا، مُنْكَرَةً لِلَّهِ مَعَ
عِرْفَانِهَا، فَأَنَارَ اللَّهُ بِأَبِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ظُلْمَهَا، وَكَشَفَ
عَنِ الْقُلُوبِ بُهْمَهَا، وَجَلَا عَنِ الْأَبْصَارِ غَمَمَهَا، وَقَامَ فِي النَّاسِ بِالْهُدَايَةِ،
فَأَنْقَذَهُمْ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ الْعَمَايَةِ، وَهَدَاهُمْ إِلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ،
وَدَعَاهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، ثُمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ قَبْضَ رَافَةِ وَاخْتِيَارٍ، وَرَغْبَةٍ
وَإِيثَارٍ، فَمَحَمَّدٌ مِنْ تَعَبِ هَذِهِ الدَّارِ فِي رَاحَةٍ، قَدْ حُفَّ بِالْمَلَأَيْكَةِ الْأَبْرَارِ،
وَرِضْوَانِ الرَّبِّ الْغَفَّارِ، وَمُجَاوِرَةِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَى أَبِي نَبِيِّهِ، وَأَمِينِهِ،
وَخَيْرَتِهِ مِنَ الْخَلْقِ وَصَفِيِّهِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»^(١).

فهذا الوصف هو الذي يتسق مع القرآن الكريم، ويُسلم له العقل، وتنقاد
له القلوب؛ أما ما يرويه عروة بن الزبير، أو عائشة، أو ما يقوله ورقة، أو
عداس، أو بحيرا، فهو مما يمجُّه الذوق السليم، وتُنكره القلوب الطاهرة،
فضلاً عن تعارضه مع القرآن الكريم في جملة من الآيات التي تتحدث عن
رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فمنها؛ قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾^(٢)

وقوله عَزَّ وَجَلَّ في تنزيه رُسله عن رذيلة الخوف والذعر، فقال:

﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾^(٣).

(١) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١٣٣.

(٢) الأحزاب، الآية: ٤٥ - ٤٦.

(٣) النمل، الآية: ١٠.

وقوله سبحانه وتعالى في بيان مقام الشهوديّة على الأمم جميعًا، وعلى الرُّسل الذين أرسلهم الله إليهم وأنبيائهم الذين بُعثوا إليهم.
فقال عزَّ شأنه:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾^(١).

ومن ثمَّ: كيف لا يطأطئ العقل مسلمًا بأنَّ كثيرًا مما رواه أصحاب الصحاح لا يتفق مع القرآن الكريم ولا ينسجم مع السنَّة المحمّدية.

الأمر الثاني: حقيقة مهامَّ أمِّ المؤمنين خديجة (عليها السلام) في بدء البعثة تختلف عمَّا يرويه البخاريّ ومسلم من شُبهات.

إلَّا أننا هنا نؤمن بما قامت به السيِّدة أمُّ المؤمنين خديجة (عليها السلام) من الوقوف بجانب زوجها وسيِّدها رسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، ولاسيَّما أنَّ عائشة التي صرَّحت مرارًا بغيرتها من أمِّ المؤمنين خديجة هي التي تتحدَّث عن تلك المواقف المشرفة التي حفَّت بسيرتها (عليها السلام).

فقالت - كما يروي عروة عنها - حديث بدء الوحي: «وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه وهو التعبّد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثمَّ يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء».

ولقد أخطأ البخاريّ ومسلم خطأ فادحاً في إيراد بعض الألفاظ في هذا الحديث ولاسيما هذا اللفظ: (فَحْشَيْتُ عَلَى نَفْسِي) والتي تدلّ على شكّه -والعياذ بالله-، ولقد حاول الحافظ النوويّ حينما أورد الحديث توجيه هذا اللفظ عن القاضي عياض ودفع هذا الخطأ العقائديّ الشنيع، فقال -واللفظ للقاضي عياض-: «ليس هو بمعنى الشكّ فيما أتاه من الله تعالى، لكنّه ربما خشي أن لا يقوى على مقاومة هذا الأمر، ولا يقدر على حمل أعباء الوحي فتزهد نفسه.

أو يكون هذا لأوّل ما رأى التباشير في النوم واليقظة وسمع الصوت قبل لقاء المَلَكِ وتحقّقه رسالة ربّه؛ فيكون خاف أن يكون من الشيطان الرجيم؛ فأما منذ جاءه المَلَكُ برسالة ربّه سبحانه وتعالى فلا يجوز عليه الشكّ ولا يخشى من تسلّط الشيطان عليه»^(١).

وهنا: لا نجد الحافظ النوويّ والقاضي عياض قد نفّيا الشكّ عنه (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، بل يُؤكّدان أنّه كان شاكّاً، وأنّ الشيطان الرجيم كان يأتيه -والعياذ بالله- قبل مبعثه ونزول جبرائيل عليه برسالة ربّه سبحانه.

في حين أنّهما بهذا القول زادا الأمر سوءاً؛ إذ جعلوا الرهبان والكهنة والمنجمين أوثق منه بأمره، فهم لم يكن لديهم شكٌّ بأنّه نبيُّ آخر الزمان، فضلاً عن كلّ هذه البشارات التي كانت تأتيه من تضليل الغمام، وسلام الحجر والشجر عليه بالنبوّة.

وكيف يصنعان بقوله تعالى عن نبيّه عيسى (عليه السلام) حينما نطق وهو في المهد صبيّاً، قال تعالى:

(١) شرح مسلم للنووي: ٢٠١/٢.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^(١).

وكذا حال يحيى (عليه السلام) من قبل، إذ قال تعالى:

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾^(٢).

وفي يوسف إذ قال لأبيه يعقوب (عليهما السلام):

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٣).

أفيكون هؤلاء الأنبياء أوثق -بما آتاهم الله من فضله- من سيدهم وأشرفهم وخاتمهم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ فلا يكونون في شك من أنهم أنبياء لرّبهم ويكون المصطفى خلال أربعين سنة -والعياذ بالله- شاكاً في أمر ربّه ويأتيه الشيطان الرجيم؟!!

فلماذا لا يتعظ النووي والقاضي عياض ومن قبلهما البخاري ومسلم بسيرة عيسى بن مريم الذي لم يكن شاكاً ولم يأتيه إبليس منذ أن كان في المهد صبياً؟! نعوذ بالله من الخزي في الدنيا والآخرة، وله الحمد على نعمة التمسك بالثقلين. أمّا لماذا اعتقد هؤلاء بشكّ النبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن سوغت له نفسه في التجري على الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) في

(١) مريم، الآية: ٢٩-٣٠.

(٢) مريم، الآية: ١٢-١٣.

(٣) يوسف، الآية: ٤.

وضع تلك النصوص في بدء نزول الوحي عليه؟

فجوابه:

لابتعادهم عن سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والتجاءهم إلى سنة غيره لعله يعصمهم من أمر الله، فهو لاء لو كانوا قد تمسكوا بسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث أمرهم قائلاً:

«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ؛ كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِشْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»^(١).

لَعَلِمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) هُوَ أَصْدَقُ خَلْقِ اللَّهِ يَقِينًا رَبُّهُ وَأَكْمَلُهُمْ إِيْمَانًا، وَلَا يَقْنُوا أَنَّهُمْ لَنْ يَضِلُّوا مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا.

وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنِّي لَمْ أَجِدْ فِيهَا نَقْلَهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي مَصْنَفَاتِهِمْ مِنْ أَحَادِيثِ حَوْلِ بَدَأِ الْوَحْيِ خَيْرًا مِمَّا ذَكَرَهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَالْحَاكِمُ النِّسَابُورِيُّ وَالصَّنْعَانِيُّ؛ فَقَدْ أَخْرَجُوا حَدِيثَ عَائِشَةَ بَلْفِظٍ: «قَدْ خَشِيتُ عَلَيَّ»^(٢).

فَقَالَتْ لَهُ: «كَلَّا أَبْشِرُ»... وَهُوَ مَا انْتَبَهَ إِلَيْهِ ابْنُ حَجْرٍ فِي فَتْحِ الْبَارِيِّ مُسْتَدْرَكًا لِمَا وَقَعَ فِيهِ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مَعَ نَصِّهِمَا: «عَلَى نَفْسِي»؛ وَلَعَلَّ ابْنَ حَجْرٍ لَمْ يَشَأْ أَنْ يُصْرِّحَ بِقُبْحِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ وَفَسَادِهَا الْعَقَائِدِيِّ، كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ النَّوَوِيُّ^(٣) حِينَما انْتَبَهَ إِلَى أَنَّهَا تُصْرِّحُ بِشَكِّ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فِي نَفْسِهِ.

(١) مسند أحمد بن حنبل: ٣/١٤، مسند أبي يعلى الموصلي: ٢/٢٧٧٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر: ١٢/٣١٥.

(٣) مسند أحمد: ٦/٢٢٣، المستدرک علی الصحیحین، الحاکم النیسابوری: ٣/١٨٤، المصنّف، عبد الرزاق: ٥/٣٢٢، الأحاد والمثاني، الضحاک: ٥/٣٨٧، تفسير الثعلبي: ١٠/٢٤٣، أسباب النزول، الواحدی: ٦، الثقات، ابن حبان: ١/٤٩، تاريخ الإسلام، الذهبي: ١/١١٨.

إلا أن ابن حجر يعود فينتبه إلى أن البخاري يُصرِّح بشكِّ النبي (صلى الله عليه وآله) في نفسه، حينما أخرج هذه الرواية فأراد أن يُعْطِي على الأمر فجعل لشرح: «قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» اثني عشر قولاً، ثم صَوَّبَ القول الثالث الذي يقول: بأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد خَشِيَ على نَفْسِهِ «الموت من شِدَّةِ الرَّعْبِ»^(١)، وغفل ابن حجر عن قوله تعالى:

﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾^(٢).

أَفِيخَافُ الْحَيِّبُ (صلى الله عليه وآله) إلى هذه الدرجة من جبرئيل! فكيف بملك الموت؟! نعوذ بالله من سوء المعتقد والتخلف عن العترة النبوية؛ لقوله (صلى الله عليه وآله):

«وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُمْ ضَلَّ وَغَوَى»^(٣).

ومن ثمَّ فإنَّ هذا اللَّفْظُ -أي: «فَخَشِيتُ عَلَيَّ»- من حيث الدلالة يُظهِرُ أَنَّ خديجة (عليها السلام) هي التي خَشِيتُ على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما أخبرها بنزول الوحي عليه؛ وذلك لمشاهدتها التجليات النورانية التي تظهر عليه، ولطلبه منها أن تُدَثِّرَهُ وتُغَطِّيَهُ؛ وهو دليل شعوره بضعفٍ في بدنه ولاسيما أنه كان يتعبَّد في غارِ حِراءِ، ويستعين بالقليل من الطعام، كما حدث له في حديث الكساء اليمانيِّ حينما دخل على فاطمة (عليها السلام)، فقال لها:

«إِنِّي أَجِدُ فِي بَدَنِي ضَعْفًا... اثْبِينِي بِالْكِسَاءِ الْيَمَانِيِّ فَغَطِّينِي بِهِ»^(٤).

(١) فتح الباري، ابن حجر: ١/ ٢٣.

(٢) النمل، الآية: ١٠.

(٣) كفاية الأثر، الخزاز القمي: ١٠٩.

(٤) مفاتيح الجنان، عباس القمي: حديث الكساء.

ولذا: كان فعلُ الخشية صادراً من خديجة (عليها السلام) وليس من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما توهم البخاري ومسلم ومن سار على قولهم؛ فذهبوا إلى أنه كان شاكاً لا يدري أهو كاهن أم مجنون؟! -والعياذ بالله-.

الأمر الثالث: ردُّ الشبهات التي أوردها شراح صحيح البخاري ومسلم في قول أم المؤمنين خديجة (عليها السلام): «كَلَّا أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ، لَا يُحْزِيكَ اللهُ أَبَدًا».

لقد تناول شراح الصحيحين قول أم المؤمنين خديجة (عليها السلام):

«كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لَا يُحْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ فِي الْحَدِيثِ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ».

في معرض بيانهم لمضامين ما ورد في قولها (عليها السلام) ولاسيما أنه يختص بمرحلة مهمة من سيرة النبي (صلى الله عليه وآله)، بل ومسيرة الإسلام، ومن ثم فهم يُدركون خطورة هذه الروايات والنصوص وما علق بها من شبهات حاولوا تبديدها، إلا أن بعضاً منهم زاد الأمر سوءاً فأثبت الشبهة وردَّ الحق الذي جاء به القرآن والسنة الصحيحة عن العترة النبوية (عليهم السلام)، ومن ثم فقد تتبنا هذه الشبهات وردّها بفضل الله وفضل رسوله (صلى الله عليه وآله)، وهي على النحو الآتي:

أولاً: توهم شراح البخاري في دلالة قول خديجة (عليها السلام): «كَلَّا».

لقد توهم بعض شراح البخاري قولها (عليها السلام): «كَلَّا» بمعنى النفسي، حينما توهموا أن الخشية كانت من النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) فأرادت خديجة أن تُطمئنه على نفسه، قائلةً له: «كَلَّا».

مما جعلها حسب هذا التأويل -والعياذ بالله- أثبت قلباً من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا سيّما أنّها تجد أنّ تلك الأفعال التي يقوم بها النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) هي من السنن الإلهية التي تؤدي إلى مرضاة الله تعالى، ومن ثمّ لا يمكن أن يُخزيه الله تعالى، فكيف يصحّ أن تكون خديجة أعلم من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بسنن الله في الحياة وأثبت قلباً.

إذن: الصحيح: هو إنّها ابتدأت قولها بلفظ: «كَلَّا» بمعنى «حَقًّا»^(١)؛ وتريد منه هنا إثبات حقيقة ما ترى عليه من النور وأنّه النبي الذي بَشَّرَتْ به الأنبياء من قبل، أي: إنّها تُثبت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حقيقة اعتقادها به (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنّها حقاً مؤمنة به.

ثانياً: دلالة قولها «أَبَشَّرُ» يُراد به التصديق بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

مثلما بشرها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) -وهو الأولى دائماً بالبشارة- بما أنعم الله عليه سبحانه من نعمة النبوة والرسالة، قامت فأكدت إيمانها به، وأنّها كانت ترى فيه صفات الأنبياء، فَبَشَّرَتْهُ بأنّها على هذا الأمر؛ لأنّها كانت تراه من قبل: «يَصِلُ الرَّحْمَ، وَيَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيُقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ».

فهذه الأفعال لا يقوم بها إلاّ الأنبياء والأولياء، وأنّها كانت تراها فيه من قبل أن تتزوّجه، فكيف بها وقد عايشته؟!!

فإذن: تُبَشِّرُهُ بموافقته وتصديقها له وإيمانها به، وهو أمرٌ في غاية الأهمية؛

(١) شرح صحيح مسلم، النووي: ٢٠٠/٢.

لما سيترتب على هذا الموقف من نصر الرسالة، فضلاً عن آثار ذلك في تفريج أحد هموم الرسالة التي تنطوي تحت التصديق به، وبما كُلف به؛ ولا سيما أنه قد التجأ إلى مسكنه وشريك حياته.

ثالثاً: أقلت: «لا يُحزنك» أم «لا يُحزبك» التي هي في مقام الهم كما يروي البخاري؟!!!

لم تقل سيدتنا ومولاتنا أم المؤمنين خديجة (عليها السلام) للنبي (صلى الله عليه وآله): «لا يُحزبك» كما يروي البخاري؛ لأن الحزبي هو الذل، وهي من توابع الفجار ولو ازم الظالمين، وهذا ظلم بحق رسول الله (صلى الله عليه وآله) - والعياذ بالله - فضلاً عن ثبوته - أي هذا المعنى - في القرآن واللغة.

قال ابن منظور عن أبي إسحاق في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَأَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(١):

«المُخْزَى فِي اللُّغَةِ، الْمَذَلُّ الْمَحْقُورُ بِأَمْرٍ قَدْ لَزِمَهُ حُجَّةٌ، وَكَذَلِكَ أَخْزَيْتُهُ لَزِمْتَهُ حُجَّةً إِذَا أَذَلَّتْهُ بِهَا، وَالْحِزْيُ الْهُوَانُ، وَكَذَلِكَ أَخْزَيْتُهُ أَكْرَمْتَهُ حُجَّةً إِذَا أَذَلَّتْهُ بِهَا، وَالْحِزْيُ: الْهُوَانُ، وَقَدْ أَخْزَاهُ اللَّهُ أَيَّ أَهَانَهُ اللَّهُ، وَأَخْزَاهُ اللَّهُ وَأَقَامَهُ عَلَى خِزْيِهِ وَمُخْزَاةً»^(٢).

وعليه: فالصحيح أنها قالت: «لا يُحزبك الله»^(٣) وهو من الألفاظ التي جاء بها القرآن الكريم للدلالة على البشارة مع كونها من لوازم أولياء الله تعالى.

(١) آل عمران، الآية: ١٩٤.

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ٢٢٦/١٤.

(٣) صحيح مسلم: باب بدء الوحي، ٩٨/١.

قال سبحانه: ﴿إِلَّا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

كما أن النبي (صلى الله عليه وآله) من صفاته أنه يحزن على الذين كفروا أو الذين يُسارعون في الكفر أو الذين يراوغون، ومن ثمَّ أرادت السيدة أم المؤمنين خديجة (عليها السلام) أن تدفع عنه هذا الحزن وتواسيه وتُصبره، فجاء القرآن مطابقاً لفعالها وتعبيرها وتسليتها لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، حيث قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَآءَ عَوْنٌ لِلْكَذِبِ سَآءَ عَوْنٌ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ جِرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٣).

وعليه: يكون حزنه لله عزَّ وجلَّ وحرصاً منه على الناس كافة؛ لأنهم سيُفتنون ويبلوهم الله ويُمحصهم، فمنهم من يؤمن، ومنهم من يضل ويتردى، وهي حالة خاصة بالأنبياء (عليهم السلام).

(١) يونس، الآية: ٦٢

(٢) المائدة، الآية: ٤١

(٣) لقمان، الآية: ٢٣

فكيف بالمصطفى (صلى الله عليه وآله) لا يحزن لأمر الخلق وهو من قال
تعالى بحقّه:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١).

ومن ثمّ: فالسيدة خديجة (عليها السلام) لم تقل له: «لا يُحْزِنُكَ» - والعياذ
بالله - كما يروي البخاريّ، وإنما قالت للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم):
«لا يُحْزِنُكَ اللهُ».

رابعاً: مؤازرتها للنبيّ (صلى الله عليه وآله) في أمر التصديق كان من فعل
الأنبياء كما نصّ عليه القرآن الكريم.

إنّ هذا القول من أمّ المؤمنين خديجة (عليها السلام) ليتناسق مع ما
تحدّثت به المصادر الإسلامية في بيانها لصفات خديجة (عليها السلام) من
كونها: «امرأة حازمة، لبيبة، شريفة، وهي يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً
وأعظّمهم شرفاً وأكثرهم مالاً»^(٢).

فضلاً عن أنّها تميّزت بصواب الرأي، وصدق السريرة، وأنّ الحال الذي
كان عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) يستلزم منها هذا الموقف الذي
تتهاوى فيه الرجال. ولا يصبر عليه إلاّ الأنبياء (عليهم السلام)، فهذا موسى
الكليم يطلب من الله سبحانه وتعالى موازرة أخيه هارون حينما بلغ بالرسالة،
فقال كما نطق به الوحي:

(١) الإسراء، الآية: ١٠٥.

(٢) الذرية الطاهرة، الدولابي: ٤٩، تاريخ الطبري: ٢/٣٥، أسد الغابة، ابن الأثير: ٥/٤٣٥،
كشف الغمّة، الأربلي: ١٣٢، أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين: ٦/٣١٠.

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾^(٢) هبط عليه بصورته العظمى كدليل على عظم أمر الرسالة؛ ومن ثم لا بُدَّ من أنه كان في حالة من الانقطاع عن هذا العالم والتوجه الكلي إلى الله تعالى بما يتناسب مع حجم هذا الأمر الإلهي؛ أمر رسالة خير الأديان التي أُخْرِجَتْ للناس.

ولذا خاطبه عزَّ شأنه:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾^(٣).

وهذا يكشف عن حال النبي (صلى الله عليه وآله) في نزول تلك الفيوضات الإلهية. غير أنه لم يكن خائفًا وهو بحضرة صاحب الملك والملكوت والعزة والجبوت؛ لقوله تعالى:

﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ فكيف بسيد المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم)؟!

بل: إنَّ أمر الإسراء والمعراج والوصول إلى مقام قاب قوسين أو أدنى، هو أعظم من نزول جبرائيل (عليه بصورته العظمى)؛ وكيف لا، وقد

(١) القصص، الآية: ٣٤.

(٢) طه، الآية: ٢٩-٣٣.

(٣) المزمل، الآية: ١-٤.

توقف جبرائيل (عليه السلام) عن التقدم معه خطوة واحدة، وأتى له ذلك؟! فلو تقدم لهلك.

وأتى للبخاري وغيره التغافل عن ثناء الله تعالى على قوة قلب المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) وانقطاعه الكلي إلى الله تعالى، وثباته وانصرافه إلى ربه؟! فقال عز وجل في مدحه لحبيبه وبيان قوة يقينه وتصديقه القلبي بربه:

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾^(١).

أفتراه يذعر من صوت جبرائيل ولا يخاف من الربّ الجليل؟! وهو من مراتب الشرك الخفي المعارض لعصمة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فالنبي لا يُشرك أحداً في خوفه من ربه وقد مدح القرآن الكريم المؤمنين في توحيدهم الله وعدم إشراكهم معه في خشيتهم أحداً من الخلق، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(٢).

والحمد لله على فضله وفضل رسوله (صلى الله عليه وآله).

المطلب الثاني: الحقول المعرفية في قوله (عليه السلام): «مأخوذاً على النبيين ميثاقه».

اشتمل النص الشريف على جملة من الحقول المعرفية؛ كاللغة، والإعراب، والشرح، وهي على النحو الآتي:

(١) النجم، الآية: ١١-١٢.

(٢) الأحزاب، الآية: ٣٩.

المسألة الأولى: المعنى اللغوي:

أولاً- الخوئي:

قال: «الميثاق والموثق كمجلس العهد»^(١) «^(٢)».

ثانياً- مغنية:

قال: «مِيثَاقُهُ»: عهده^(٣) «^(٤)».

المسألة الثانية: الإعراب:

أولاً- البحراني:

قال: «قوله (عليه السلام): (مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّنَ مِيثَاقُهُ)، النصب ها هنا على الحال من (بَعَثَ) وذو الحال محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)»^(٥).

ثانياً- مغنية:

قال: «(مِيثَاقُهُ) نائب عن الفاعل لـ (مَأْخُودًا)»^(٦).

ثالثاً- مؤسّسة علوم نهج البلاغة:

قوله (عليه السلام): «مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّنَ مِيثَاقُهُ»: (مَأْخُودًا): حال من محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وهي صيغة مفعول، (عَلَى النَّبِيِّنَ): جارٌّ ومجرور متعلّق بـ (مَأْخُودًا)، (مِيثَاقُهُ): نائب عن الفاعل مرفوع لـ (مَأْخُودًا)،

(١) القاموس المحيط، الفيروز آبادي: ٩٢٧، مادة: (وثق).

(٢) منهاج البراعة: ١٦٢/٢.

(٣) ينظر: الصحاح، الجوهري: ٤/١٥٦٣، مادة (وثق).

(٤) في ظلال نهج البلاغة: ٦١/١.

(٥) شرح نهج البلاغة: ٢٠٤-٢٠٥.

(٦) في ظلال نهج البلاغة: ٦٢/١.

وهو مضاف، والهاء ضمير متصل في محل جرّ بالإضافة.

المسألة الثالثة: أقوال الشُّراح:

أولاً- المعتزليّ:

قال: «قوله (مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّ مِيثَاقُهُ)، قيل: لم يكن نبيّ قطّ إلاّ وبشّر بمبعث محمّد (صلى الله عليه وآله)، وأخذ عليه تعظيمه، وإن كان بعد لم يوجد»^(١).

ثانياً- البحرانيّ:

قال: «المراد بأخذ ميثاقه عليهم ما ذكر وقرّر في فطرتهم من الاعتراف بحقيّة نبوته (صلى الله عليه وآله) وتصديقه فيما سيجيء به؛ إذ كان ذلك من تمام عبادة الحقّ سبحانه فبعث (صلى الله عليه وآله) حال ما كان ذلك الميثاق مأخوذاً على الأنبياء ومِنّ عداهم»^(٢).

ثالثاً- الخوئيّ:

قال: «قوله (عليه السلام): (مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّ مِيثَاقُهُ).

أقول: قد عرفت في الفصل الرابع عشر عند شرح قوله (عليه السلام): (لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرَ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ)، ما دلّ على أخذ ميثاق جميع الخلق على توحيد الله تعالى ونبوة محمّد (صلى الله عليه وآله) وإمامة الأئمة (عليهم السلام) في عالم الميثاق»^(٣).

(١) شرح نهج البلاغة: ١ / ١١٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١ / ٢٠٥.

(٣) للمزيد من التفصيل ينظر: منهاج البراعة، الخوئي: ٢ / ١٤٤-١٤٩.

وينبغي أن نذكر هنا بعض ما يفيد أخذ ميثاق النبيين بخصوصهم (سلام الله عليهم).

فأقول: قال سبحانه في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(١).

قال الطبرسي عند تفسير الآية: (وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وابن عباس، وقتادة:

(أَنَّ اللَّهَ أَخَذَ المِيثَاقَ عَلَى الأنبياءِ قَبْلَ نَبِيِّنَا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) أَنْ يُخْبِرُوا أُمَّهُم بِمَبْعَثِهِ وَرِفْعَتِهِ، وَيُبَشِّرُوهُمْ بِهِ وَيَأْمُرُوهُمْ بِتَصَدِيقِهِ)^(٢).

وقال أيضاً: وقد روي عن عليّ (عليه السلام)، أنه قال: (لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا، آدَمَ وَمَنْ بَعْدَهُ إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ العَهْدَ لئِنْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ، وَأَمْرُهُ بَأَنْ أَخَذَ العَهْدَ بِذَلِكَ عَلَى قَوْمِهِ)^(٣).

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم القمي: قال الصادق (عليه السلام) في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾^(٤)، (كَانَ المِيثَاقُ مَأخُودًا عَلَيْهِم بِالرَّبُوبِيَّةِ وَلرَسُولِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) بِالنَّبُوءَةِ، وَأمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَالأئِمَّةِ (عليهم السلام) بِالإِمَامَةِ، فَقَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ وَمُحَمَّدٌ نَبِيُّكُمْ؟ وَعَلِيٌّ إِمَامُكُمْ؟ وَالأئِمَّةُ الهَادُونَ أُنْتُمْكُمْ؟ فقالوا:

(١) آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) تفسير مجمع البيان، الطبرسي: ٣٣٤ / ٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣٣٥ / ٢.

(٤) الأعراف، الآية: ١٧٢.

بلى، فقال الله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١)؛ أي لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٢)، فأوّل ما أخذ الله (عزّ وجلّ) الميثاق على الأنبياء بالرّبوبيّة وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾^(٣)، فذكر جملة الأنبياء ثمّ أبرز أفضلهم بالأسمي فقال: ﴿وَمِنْكَ﴾ يا محمّد؛ فقدّم رسول الله (صلّى الله عليه وآله)؛ لأنّه أفضلهم ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾^(٤)، فهو لاء الخمسة أفضل الأنبياء، ورسول الله (صلّى الله عليه وآله) أفضلهم، ثمّ أخذ بعد ذلك ميثاق رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على الأنبياء بالإيمان به، وعلى أن ينصروا أمير المؤمنين، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾^(٥)، يعني رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾^(٦)، يعني أمير المؤمنين (عليه السلام) تُخبروا أممكم بخبره وخبر وليّه من الأنمة^(٧).

وفي البحار عن كشف الغمّة، من كتاب بكر بن محمّد الشاميّ، بإسناده:
عن أبي الصباح الكناني^(٨)، عن جعفر بن محمّد (عليهما السلام)، قال:
(أتى رجل أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو في مسجد الكوفة قد احتبى بسيفه، قال: يا أمير المؤمنين إنّ في القرآن آيةً قد أفسدت قلبي وشككتني في

(١) الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٣) الأحزاب، الآية: ٧.

(٤) الأحزاب، الآية: ٧.

(٥) آل عمران، الآية: ٨١.

(٦) آل عمران، الآية: ٨١.

(٧) تفسير القمي: ٢٤٧/١.

(٨) الطائي هكذا في اليقين.

ديني، قال (عليه السلام) له: وما هي؟ قال: قوله (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾^(١)، هل كان في ذلك الزمان نبياً غيره (صلى الله عليه وآله) يسأله؟ فقال له عليٌّ (عليه السلام): اجلس أخبرك إن شاء الله، إنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) يقول في كتابه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾^(٢)، فكان من آياتِ الله (عَزَّ وَجَلَّ) التي أراها مُحَمَّدًا (صلى الله عليه وآله) أنه أتاه جبرئيلُ فاحتَمَلَهُ مِنْ مَكَّةَ فَوَافَى بِهِ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فِي سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ أَتَاهُ بِالْبُرَاقِ فَرَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، فَتَوَضَّأَ جَبْرَيْلُ وَتَوَضَّأَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله) كَوْضُوءِهِ، وَأَذَنَ جَبْرَيْلُ وَأَقَامَ مِثْنَى مِثْنَى.

وقال للنبي: تقدّم فصلٌ واجهرُ بِصَلَاتِكَ فَإِنَّ خَلْفَكَ أَفْقًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلَّا اللهُ، وفي الصَّفِّ الأوَّلِ أبوك آدمُ ونوحُ وهودُ وإبراهيمُ وموسى وكلُّ نبيٍّ أرسَلَهُ اللهُ مُذْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى أَنْ بَعَثَكَ يَا مُحَمَّدُ.

فتقدّم النبي (صلى الله عليه وآله) فصلٌ بهم غيرِ هائبٍ ولا محتشمٍ ركعتين، فلما انصرف من صلاته أوحى اللهُ إليه: ﴿اسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ الآية، فالتفت إليهم النبي (صلى الله عليه وآله)، فقال: بِمِ تَشْهَدُونَ؟ قالوا: نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّ عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَوَصِيَّكَ، وَكُلُّ نَبِيٍّ مَاتَ خَلْفَ وَصِيٍّ مِنْ عَصْبَتِهِ غَيْرِ هَذَا، وَأَشَارُوا إِلَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّهُ لَا عَصَبَةَ لَهُ، وَكَانَ وَصِيَّهُ شَمْعُونُ الصَّفَا ابْنُ حَمُونَ بْنِ عِمَامَةَ، وَنَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ سَيِّدُ النَّبِيِّينَ، وَأَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ

(١) الزخرف، الآية: ٤٥.

(٢) الإسراء، الآية: ١.

(عليه السلام) سَيِّدُ الْوَصِيِّينَ، أُخِذَتْ عَلَى ذَلِكَ مَوَاقِفُنَا لَكُمَا بِالشَّهَادَةِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَحْيَيْتَ قَلْبِي وَفَرَّجْتَ عَنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ^(١).

وفيه أيضًا: عن بصائر الدرجات بإسناده عن حمران، عن أبي جعفر (عليه السلام)، قال:

(إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُولِي الْعِزْمِ أَنِّي رَبُّكُمْ، وَمُحَمَّدٌ رَسُولِي، وَعَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْصِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ وَوَلَاةُ أَمْرِي وَخُزَّانُ عِلْمِي، وَأَنَّ الْمَهْدِيَّ أَنْتَصِرُ بِهِ لِذِينِي)^(٢)، إلى غير هذه مما يطلع عليه المتتبع^(٣).

رابعًا- مغنية:

قال: «قال (عليه السلام): (مَاخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ)، ضمير (ميثاقه) يعود أيضًا إلى (الله)؛ لأنه هو الذي أخذ العهد على أنبيائه أن يؤمنوا بمحمد [صلى الله عليه وآله]، ويأمروا الناس بالتبشير به واتباعه عند إدراكه، وليس من شك أن ذكر محمد [صلى الله عليه وآله] كان يملؤ جو الأنبياء السابقين كما يؤمى إليه قولهم: (أَقْرَأْنَا) الذي جاء: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَأْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَأْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٤)^(٥).

(١) اليقين، ابن طاووس: ٤٠٥-٤٠٦، بحار الأنوار، المجلسي: ٢٦/٢٨٥-٢٨٧.

(٢) بصائر الدرجات، الصفار: ١٢٦، بحار الأنوار، المجلسي: ٢٦/١٠٨.

(٣) منهاج البراعة: ٢/١٦٥-١٦٨.

(٤) آل عمران، الآية: ٨١.

(٥) في ظلال نهج البلاغة: ١/٦٢.

خامساً- التستري:

قال (رحمه الله): «(مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ) قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾».

والمراد من أخذ الميثاق على النبيين الإيجاب عليهم بيانهم لأمرهم أن نبينا (صلى الله عليه وآله) خاتم الأنبياء، وأن شريعته ناسخة لشرائعهم، فيجب عليهم رفض شرائعهم واتباع شريعته^(١).

سادساً- النقوي:

قال: «قوله (عليه السلام): (مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ)، قال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ...﴾»^(٢) الآية، والروايات أيضاً دالة عليه، وقد روي: أن أسماءهم كانت مكتوبةً إذ ذاك على العرش، وأن آدم (عليه السلام) لما تاب إلى الله (عَزَّ وَجَلَّ) وناجاه بقبول توبته سأله بحقهم عليه ومحللهم عنده فأجابهم... إلى آخره، وقد تقدم في قضية توبة آدم ما يدل عليه، وقد ورد في الآثار أن كل نبي من الأنبياء قد أخذ الله الميثاق برسالة الرسول وولاية عليٍّ والطيبين من ولده ثم بعثه، وسيأتي منا أحاديث أخر في الأبواب الآتية إن شاء الله تعالى^(٣).

(١) بهج الصباغة: ١٢٧/٢-١٢٨.

(٢) الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٣) مفتاح السعادة: ١١١/١-٤١٢.

سابعًا- مكارم الشيرازي:

قال: «أشار إلى شمة من فضائله، والميثاق الذي أُخِذَ من النبيين من قبله بالبشارة به (مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُ)»^(١).

ثامنًا- السيد نبيل الحسنّي:

يُرشد قوله (عليه الصلاة والسلام): «مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُ» -فضلاً عمّا أفاده الشَّرَاح- إلى أمرين:

الأول: إنّ الله تعالى جعله في ذروة مقام النبوة والرسالة، ولاسيما أولى العزم (عليهم السلام)، فكان الميثاق المأخوذ عليهم هو الإقرار بسيادته عليهم وأتمهم ينهلون من فيضه وفضله؛ بمعنى: أنّه الواسطة في العطاء النازل من الله تعالى إليهم، وقد دلّ عليه قول أمير المؤمنين (عليه السلام):
«فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا»^(٢).

وقد قرن الله تعالى فضله النازل إلى الناس مع فضل رسوله (صلى الله عليه وآله)؛ وهو أمر لم يختصّ به أحداً من أنبيائه ورُسله، فقال سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٤).

وقد بين الله في مُحكم التنزيل هذا الفضل الذي خصّ به سيّد أنبيائه

(١) نفحات الولاية: ١ / ١٥٠.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٢٨

(٣) التوبة، الآية: ٥٩.

(٤) التوبة، الآية: ٧٤.

ورُسله، فقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(١)، وهو كذلك من مختصاته فلم يصفِ الله ما أتى أحداً من خلقه بالعظيم إلا نفسه جلَّ شأنه؛ فقال: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٢).

فكان الإقرار بفضلـه وفضل أهل بيته (عليهم السلام) وهم أوصياؤه وخلفاؤه على شريعته من الميثاق الذي أخذه الله تعالى على أنبيائه ورُسله (سلام الله عليهم أجمعين).

الثاني: إن دلالة الميثاق المأخوذ على الأنبياء هو الإسلام؛ وذلك أن جميع الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى كانوا يدينون لله به، وقد تضافرت الآيات المباركة في بيان ذلك؛ منها:

١ - ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٣).

٢ - ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٤).

٣ - ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن

(١) النساء، الآية: ١١٣.

(٢) الحديد، الآية: ٢٩.

(٣) البقرة، الآية: ١٣٢.

(٤) البقرة، الآية: ١٣٣.

رَبِّهِمْ لَا نَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾.

٤ - ﴿قَالَ الْخَوَارِثِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٢).

وَمِنْ ثَمَّ: فالميثاق المأخوذ هو التدين لله تعالى بالإسلام ونيته (صلى الله عليه وآله) والإقرار بفضله وفضل أهل بيته وولايتهم؛ والحمد لله على فضله وفضل رسوله (صلى الله عليه وآله).

المطلب الثالث: الحقول المعرفية في قوله (عليه السلام): «مَشْهُورَةٌ سَمَاتُهُ».

اشتمل النص الشريف على جملة من الحقول المعرفية؛ كاللغة، والإعراب، والشرح، وهي على النحو الآتي:

المسألة الأولى: المعنى اللغوي:

أولاً- الراوندي:

قال: «السَّاتُ: العلامات» (٣) (٤).

ثانياً- مغنية:

قال: «(سَمَاتُهُ): علاماته وصفاته» (٥) (٦).

(١) البقرة، الآية: ١٣٦.

(٢) آل عمران، الآية: ٥٢.

(٣) ينظر: شمس العلوم، نشوان الحميري: ١١/٧١٥٧، مادة (السَّمة). وقد ورد هذا المعنى أو قريب منه في: شرح نهج البلاغة، البحراني: ١/٢٠٠، منهاج البراعة، الخوئي: ٢/١٦٢، بهج الصباغة: ٢/١٢٨.

(٤) منهاج البراعة: ١/٨٨.

(٥) ينظر: شرح مقامات الحريري، الشريشي: ١/٩٠.

(٦) في ظلال نهج البلاغة: ١/٦١.

المسألة الثانية: الإعراب:

أولاً- البحراني:

قال: «وكذلك الحال^(١) في المنصوين الباقيين^(٢)»^(٣).

ثانياً- مؤسّسة علوم نهج البلاغة:

قوله (عليه السلام): (مَشْهُورَةٌ سَمَاتُهُ): (مَشْهُورَةٌ): حال أخرى منصوبة، صيغة مفعول، (سَمَاتُهُ): نائب عن الفاعل مرفوع لـ (مَشْهُورَةٌ)، وهو مضاف، والهاء ضمير متصل في محل جرّ بالإضافة.

المسألة الثالثة: أقوال الشّراح:

أولاً- الراوندي:

قال: «وكان^(٤) في كلّ قرن معروفاً»^(٥).

ثانياً- البحراني:

قال: «وحال^(٦) ما كانت أمارات ظهوره، والبشارة بمقدّمه، مشهورة بينهم»^(٧).

ثالثاً- الخوئي:

قال: «(مَشْهُورَةٌ سَمَاتُهُ) أي صفاته وعلاماته في الكتب المنزلة، والصّحف

(١) أي النصب على الحال.

(٢) هما: مشهورة) و (كريباً).

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢٠٥ / ١.

(٤) أي النبي محمد (صلى الله عليه وآله).

(٥) منهاج البراعة: ٨٦ / ١.

(٦) أي بعث (صلى الله عليه وآله وسلم) حال ما كانت أمارات...

(٧) شرح نهج البلاغة: ٢٠٥ / ١.

الساوية من التوراة، والزبور، والإنجيل، وصُحُف إبراهيم، ودانيال، وكتاب زكريا، وشعيا وغيرها، قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾^(١)؛ يعني يعرفون محمداً (صلى الله عليه وآله) بنعته، وصفته، ومبعثه، ومهاجره، وصفة أصحابه، كما يعرفون أبنائهم في منازلهم، وقال أيضاً في سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(٢)، روى العياشي عن الباقر (عليه السلام): (يعني اليهود، والنصارى، صفة محمدٍ واسمه)^(٣).

وفي الصافي عن المجالس، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، في حديث: قال يهوديُّ لرسولِ الله (صلى الله عليه وآله)، إني قرأتُ نعتك في التوراة: محمدُ بنُ عبدِ الله، مولدُهُ بمكة، ومهاجره بطيبة^(٤)، ليس بفظ^(٥)، ولا غليظ، ولا سخاب^(٦)، ولا مترن^(٧) بالفحش، ولا قولِ الحنا^(٨)، وأنا أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنك رسولُ الله، هذا مالي فاحكمُ فيه بما أنزلَ اللهُ^(٩).

(١) البقرة، الآية: ١٤٦.

(٢) الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٣) تفسير العياشي: ٣١/١٢.

(٤) طيبة: وهي إحدى التسميات التي أطلقت على مدينة رسول الله (صلى الله عليه وآله). (ينظر: الروض المعطار، الحميري: ٤٠١)

(٥) الفظ: الخشن الكلام). تهذيب اللغة، الأزهري: ١٤/٢٦١، مادة (فظ)، وورد في معناه أيضاً: (الرجل السيئ الخلق). تاج العروس، الزبيدي: ٢٠/٢٥٢، مادة (فظظ).

(٦) السخاب: (الصباح). النهاية في غريب الحديث، مجد الدين ابن الأثير: ٢/٣٤٩، مادة (سخب).

(٧) الرنة: (الصوت). مختار الصحاح، الرازي: ١٣٠، مادة (رنن).

(٨) الحنا: (الفحش). الصحاح، الجوهري: ٦/٢٣٣٢، مادة (خنا).

(٩) الأمالي، الصدوق: ٥٥٢، التفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ٢/٢٤٢-٢٤٣.

وفي الكافي عن الباقر (عليه السلام): لَمَّا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ عَلَى مُوسَى بَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، قَالَ: فَلَمْ تَزَلِ الْأَنْبِيَاءُ تُبَشِّرُ بِهِ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فَبَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَجِدُونَهُ﴾؛ يَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، ﴿مَكْتُوبًا﴾؛ يَعْنِي صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﴿عِنْدَهُمْ﴾، يَعْنِي فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ؛ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) يُخْبِرُ عَنْ عِيسَى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (١). (٢)

وقد مضى تمامه عند شرح قوله (عليه السلام): (واصطفى سبحانه من ولده أنبياء، أخذ على الوحي ميثاقهم) (٣).

وفي الكافي أيضاً مرفوعاً، أن موسى (عليه السلام) ناجاه ربه تبارك وتعالى، فقال في مناجاته: (أوصيك يا موسى وصية الشفيق المشفق، بأبن البتول عيسى ابن مريم، صاحب الأتان والبرنس والزيت والزيتون والمحراب، ومن بعده بصاحب الجمل الأحمر، الطيب الطاهر المطهر؛ فمثله في كتابك أنه مؤمن مهيم على الكتب كلها، وأنه راع ساجد، راعب راهب، إخوانه المساكين، وأنصاره قوم آخرون) (٤) (٥).

رابعاً- مغنية:

قال: «مشهورة سائمة»؛ وصفاته في الدنيا كلها وإلى الأبد، لا في الكتب

(١) الصف، الآية: ٦.

(٢) ينظر: الكافي: ١١٧/٨.

(٣) ينظر: منهاج البراعة: ١٣٦-١٤٢/٢.

(٤) الكافي: ٤٣/٨.

(٥) منهاج البراعة: ١٦٨-١٦٩/٢.

الساوية فقط»^(١).

خامساً- التستري:

قال: «مَشْهُورَةٌ بِسْمَاتِهِ» أي: علاماته، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ...﴾^(٢)، وقال (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾^(٣).

والآية من معجزاته القطعية التي يُثبت بها نبوته؛ فإنه لو لم يكن يعرفونه، ولم يكن مكتوباً في كتبهم، لآتوا بكتبهم إليه وإلى أصحابه، وقالوا له: أين كنت مذكوراً ومكتوباً؟ ولو كان ذلك لصار أمره باطلاً، وتفرق الناس عنه، ولا سيما كان في أصحابه منافقون منتظرون لمثله.

وممن عرفه بسماته ورقة بن نوفل ابن عم خديجة، ورغبها في التزوج به لذلك، وزادها في رغبتها فيه (صلى الله عليه وآله) أخباراً ميسرة غلامها بما سمع من أخبار الشام فيه (صلى الله عليه وآله)^(٤).

وممن عرفه بسماته زيد بن عمرو بن نفيل^(٥)، قال الجزري في كامله: (قال

(١) في ظلال نهج البلاغة، مغنية: ٦٢ / ١.

(٢) البقرة، الآية: ١٤٦.

(٣) الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٤) ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام: ١٢١ / ١ - ١٢٢.

(٥) زيد بن عمرو بن نفيل: بن عبد العزى، القرشي العدوي، لم يدرك الإسلام، ورحل إلى الشام باحثاً عن عبادات أهلها، فلم تستمله اليهودية ولا النصرانية، فعاد إلى مكة، وجاهر بعداء الأوثان، فتألب عليه جمعٌ من قريش، فأخرجوه من مكة، رآه النبي (صلى الله عليه

عامر بن ربيعة: سمعتُ زيد بن عمرو بن نفيل يقول: إننا لنتظر نبيًا من ولدِ إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب، ولا أراي أدركه، وأنا أو من به وأصدقُه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك حياة ورأيتَه فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعتَه حتى لا يخفى عليك.

قلت: هلم، قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، ولا تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمُه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يُخرجُه قومُه، ويكرهون ما جاء به، ويهاجر إلى يثرب، فيظهر بها أمره، فأياك أن تنخدع عنه؛ فإنني طفتُ البلاد كلها أطلب دين إبراهيم (عليه السلام)، فكل من أسأله من اليهود والنصارى والمجوس يقول: هذا الدين وراك، وينعتونه مثل ما نعتُه لك، ويقولون: لم يبق نبيٌّ غيره.

قال عامر: فلما أسلمتُ، أخبرت النبي (صلى الله عليه وآله) قول زيد، وأقرأته السلام، فردَّ عليه النبي (صلى الله عليه وآله)، وترحم عليه^(١).
ومنههم: أمية بن أبي الصلت، قال ابن قتيبة في معارفه: (كان أمية قد قرأ الكتب، ورغب عن عبادة الأوثان، وكان يُخبر بأن نبيًا يُبعث قد أظلم زمانه، فلما سمع بخروج النبي (صلى الله عليه وآله)، وقصته كفر حسدًا له، ولما أنشد النبي (صلى الله عليه وآله) شعره، قال: آمن لسانُه وكفر قلبُه)^(٢).

وآله قبل النبوة، توفي قبل مبعث النبي (صلى الله عليه وآله) بخمس سنين. (ينظر:

الإصابة، ابن حجر: ١/ ٥٠٧-٥٠٩)

(١) الكامل في التاريخ: ١/ ٦٤٧.

(٢) المعارف، ابن قتيبة: ٦٠.

وفيه أيضًا: كان أسعد بن كرب الحميري، آمن بالنبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) قبل أن يُبعث بسبعائة سنة، وقال:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدٍ أَنَّهُ
فَلَوْ مُدَّ عُمْرِي إِلَى عَصْرِهِ
وَأُلْزِمُ طَاعَتَهُ كُلَّ مَنْ
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمِ
لَكُنْتُ وَزِيرًا لَهُ وَابْنَ عَمِّ
عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ أَوْ عَجَمٍ^(١)

وقال أبو طالب [عليه السلام]:

أَمِينُ حَبِيبٍ فِي الْعِبَادِ مُسَوِّمٌ
يَرَى النَّاسَ بُرْهَانًا عَلَيْهِ وَهَيْبَةً
بِحَاتِمِ رَبِّ قَاهِرٍ فِي الْخَوَاتِمِ
وَمَا جَاهِلٌ فِي قَوْمِهِ مِثْلُ عَالِمٍ^(٢)

ولأبن ظفر النحويِّ اللُّغويِّ كتاب مترجم بـ (خير البشر لخير البشر)، ذكر فيه الإرهاصات التي كانت بين يدي ظهور النبيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ). وفي كنز الكراجكيِّ في التوراة مكتوب: (إذا جاءت الأُمَّةُ الأخيرة، تَتَّبِعْ رَاكِبَ الْبَعِيرِ، يُسَبِّحُونَ الرَّبَّ تَسْبِيحًا جَدِيدًا، وَرَاكِبَ الْبَعِيرِ هُوَ نَبِينَا، وَالْأُمَّةُ الْأَخِيرَةُ أُمَّتُهُ.

وفيه: في السفر الخامس من التوراة: الرَّبُّ ظَهَرَ فَتَجَلَّى عَلَى سَيْنِينَ، وَأَشْرَفَ عَلَى جِبَلِ سَاعِيرِ، وَأَشْرَفَ مِنْ جِبَلِ فَارَانَ، وَجِبَلِ فَارَانَ جِبَلِ مَكَّةَ، وَظَهَرَ الرَّبُّ ظَهْرًا أَمْرَهُ.

وفيه وفي الإنجيل: ابن البشر ذاهب، والفار قليطاً آتٍ من بعده، ومن قول شعيا: قال له إليه إسرائيل: فإذا رأيت رَاكِبِينَ يَسِيرَانِ أَضَاءَتَ لهُمَا الْأَرْضُ،

(١) ينظر: المعارف: ٦٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ٧٣/١٤، بحار الأنوار: ٣٥/١٦٠.

أحدهما على حمار والآخر على جمل؛ فراكب الحمار عيسى (عليه السلام)، وراكب الجمل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومن قول دانيال: جاء الله بالبيان من جبل فاران، وامتلاأت السماوات والأرض من تسبيح محمد (صلى الله عليه وآله) وأُمَّته^(١)»^(٢).

سادساً- النقوي:

قال: «قوله (عليه السلام): (مَشْهُورَةٌ سِمَاتُهُ): سِمَاتٌ جَمَعَ سِمَةً، وهي العلامة^(٣)؛ والمعنى: إنَّ علامات النبوة فيه ظاهرة مشهورة، ويمكن أن تكون نسخة الأصل (مشهودة) بالدال؛ أي محسوسة، والمأل واحد، وهذه إشارة إلى أن النبي لا بُدَّ له من علامات، وأمارات دالة على صدق مُدَّعاه، ونبينا كذلك فهو نبيٌّ وهو المطلوب، ولا بُدَّ لنا من التكلّم فيها أجمالاً، فنقول: فمن جملة العلامات الدالة على النبوة العِصْمَةُ من الذنب صغيرة أو كبيرة؛ فإنَّ الإنسان لو كان غير معصوم لم يُجْزَ أن يكون نبياً وهادياً، للزومه الترجيح بلا مرجح، وهو قبيح عقلاً، ولأنه لا يؤمن من الفساد والكذب والظلم وغيرها، لأن المفروض أنه غير معصوم؛ وهو لا يخلو من الرذائل، وقد تقدّم الكلام فيه وسيأتي مفصلاً، ومنها: أن لا يكون مشركاً بالله قبل البعثة والرسالة فإنّه تعالى قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾^(٤).

والشرك ظلمٌ كما قال لقمان لابنه على ما حكاه الله تعالى عنه في كتابه قال:

(١) ينظر: كنز الفوائد، الكراجكي: ٩١.

(٢) بهج الصباغة: ١٢٨/٢-١٣١.

(٣) في المصدر: (العلاقة) والصواب ما أثبتناه.

(٤) البقرة، الآية: ١٢٤.

﴿وَإِذْ قَالَ لِقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾^(١).

ومنها: أن يكون (كريمًا ميلادُهُ) في بيت شرف وعزّة، وكذلك أبواه بل أجداده... إلى آخره، ومنها أن يكون حسن الخلق، صادق الوعد والقول، عادلاً شجاعاً، جواداً حليماً، وبالآخرة واجداً لكل الصفات المستحسنة، وعادماً للصفات الرذيلة السيئة الخبيثة.

ومنها: أن يأتي بالمعجزات، والبيّنات، وخوارق العادات التي لم يقدر سائر أفراد البشر على الإتيان بمثلها، الدالّة على نبوتها، وإلا فمجرد الدعوى لا يكفي في الصّدق، ومنها: أن يكون ذا عزمٍ راسخ، لا تأخذه في الله لومة لائم، بالتقيّة منه من المخالفين؛ فإنّ النبي لا يتقي، ومنها: أن يكون تاركاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، عابداً زاهداً متّقياً ورِعاً، بحيث لا يُدانيه فيها أحدٌ من أفراد زمانه.

ومنها: أن يكون عالماً بكلّ شيء، بل بكلّ ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، ومنها: أن لا يقول من عند نفسه بل قال: بما أذن الله له، ومنها: أن يكون منزّهاً عن الأشياء والغلط والسّهو والنسيان، وأمثال ذلك على الأقوى، ومنها: أن يكون مصدّقاً للأنبياء قبله، قد بشرّوا أممهم بمجيئه وبعثه، وبالجملة الإقرار برسالته، وغير ذلك من الشرائط.

إذا عرفت هذا كلّه، فاعلم: إنّ نبينا كان واجداً لتام هذه الشرائط بكمالها وتامها، وهذه الأمور من شرائط النبوة العامّة والخاصّة، أخرجناها من مضامين الأخبار والآيات والعقل والأنبياء بأجمعهم، كانوا حائزين لها، ونبينا أيضاً كان واجداً لها، إلا أنّ فيه مضافاً على ما ذكرناه من الشرائط

(١) لقمان، الآية: ١٣.

خصائص إضافية لم يكن لغيره من الأنبياء؛ تنبيهاً على مزيد شرفه، وعلوّ مقامه، وأفضليّته عمّن تقدّم حسبما سيقرّع سمعك إن شاء الله.

أمّا الشرائط المذكورة فلا شكّ في كونه (صلى الله عليه وآله) واجداً لها:

أمّا الأوّل: منها وهو العصمة عن الذنب، فهو أمر مُسلّمٌ مُجمَعٌ عليه بين الفريقين، والشاهد عليها بعد الروايات المتواترة من العامّة والخاصّة أنّه لم يُسمع من أحدٍ حتّى من غير المسلمين إسنادُ الذنب إليه، وكفى في إثباتها ما قال الله تعالى في حقّه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ..﴾^(١).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢)، وقوله تبارك [وتعالى]: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ..﴾^(٣)، ضرورة أنّه (صلى الله عليه وآله) لو لم يكن معصوماً، لم يأمر الله تعالى بوجوب متابعتة؛ لأنّه مستلزم للإغراء بالجهل، وهو مُحالٌ عليه تعالى، فثبت أنّه كان معصوماً، وهو المطلوب.

وأما أنّه لم يكن مشركاً بالله طرفة عين، لا قبل البعثة ولا بعدها؛ أمّا قبل البعثة فلائنه لو أشرك لم يكن مستحقاً للرسالة والنبوة لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ..﴾^(٤)، وأيُّ ظلمٍ أكبر من الشرك، ولما ثبتت نبوّته علمَ عدم كونه مشركاً قبلها.

(١) النساء، الآية: ٥٩.

(٢) الحشر، الآية: ٧.

(٣) آل عمران، الآية: ٣١.

(٤) البقرة، الآية: ١٢٤، وتامها: ﴿رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

وأما بعد البعثة فلأن الرسول (صلى الله عليه وآله) بُعث لإرشاد النَّاس إلى التَّوحيد؛ كما قال (عليه السلام) في أوَّل الأمر: (قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا)، وَمَنْ كَانَ هَادِيًّا إِلَى التَّوْحِيدِ، فَكَيْفَ يَكُونُ مُشْرِكًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ..﴾^(١)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ..﴾^(٢)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ..﴾^(٣)، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى: وَظِيفَةُ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) حَسْمُ مَادَّةِ الشُّرْكَ عَنِ الْعِبَادِ، فَلَا يَكُونُ مَتَّصِفًا بِهِ؛ لِاسْتِزْمَامِهِ الْجَمْعَ بَيْنَ الْمُتَنَاقِضِينَ، لِأَنَّ فِعْلَ النَّبِيِّ حُجَّةٌ كَقَوْلِهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فَإِذَا كَانَ قَوْلُهُ مُخَالَفًا لِلشُّرْكَ، وَفَعْلُهُ مُوَافِقًا بِهِ، وَيَلْزَمُ اتِّبَاعُهُ، فَإِنْ أَتْبَعَهُ فِي الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ يَلْزَمُ مَا ذَكَرْنَاهُ، وَإِنْ افْتَرَقَ بَيْنَهُمَا، يَلْزَمُ كَوْنُهُ مَتَّبِعًا وَغَيْرَ مَتَّبِعٍ، وَكِلَاهُمَا مُسْتَحِيلَانِ، فَثَبِتَ أَنَّهُ غَيْرُ مُشْرِكٍ مُطْلَقًا، وَأَمَّا أَنَّهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) كَرِيمُ الْمِيلَادِ، فَسَيَأْتِي فِي شَرْحِ قَوْلِهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (كَرِيمًا مِيلَادُهُ).

وَأَمَّا أَنَّهُ حَسَنُ الْخُلُقِ، فَكَفَى فِي إِثْبَاتِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لَهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٤)، وَ﴿.. لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ..﴾^(٥)، وَأَمَّا إِتْيَانُهُ بِالْمُعْجَزَاتِ، فَقَدْ ذَكَرْنَا شَطْرًا مِنْهَا وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهَا عَلَى أَهْلِهَا فَوْقَ حَدِّ التَّوَاتُرِ، كَمَا لَا يَخْفَى عَلَى الْمُتَدَبِّرِ فِي الْآثَارِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِعْجَازٌ إِلَّا الْقُرْآنُ لَكْفَى، فَضْلًا عَنْ سَائِرِ مُعْجَزَاتِهِ، وَأَمَّا أَنَّهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) كَانَ ذَا

(١) الممتحنة، الآية: ١٢.

(٢) المائدة، الآية: ٧٢.

(٣) النساء، الآية: ٤٨.

(٤) القلم، الآية: ٤.

(٥) آل عمران، الآية: ١٥٩.

عزم راسخ، فهو أظهر من الشمس، وأبين من الأمس، كيف لا وهو (صلى الله عليه وآله) بُعثَ في مكة، ولا ناصر له ولا معين إلا الله، مع أن جزيرة العرب بل كل الناس من العرب والعجم خالفوه له، حتى أعمامه وأقربائه، وصارت أذاهم إياه (صلى الله عليه وآله) إلى حدّ قال (صلى الله عليه وآله): (مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ بِمِثْلِ مَا أُوذِيَْتُ)^(١)، ومع هذا استمرّ على دعوته، وذكرنا حديث مجيء قريش إلى عمّه أبى طالب، وشكايتهم عنه (صلى الله عليه وآله) وجوابه له ولهم. وأمّا كونه تاركاً لهواه مطيعاً لله تعالى في أعلى مرتبة الزهد والتقوى، فلا يحتاج إلى بيان مستأنف، وقد قال الله تعالى: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(٢). وأمّا كونه عالماً بكلّ شيء فهو أيضاً ظاهر كيف، وقد قال عليّ (عليه السلام) مع علوّ مقامه، ورفعة شأنه في حقّه (صلى الله عليه وآله):

(أنا عبدٌ من عبيدٍ محمدٍ (صلى الله عليه وآله)^(٣)، وقال: (عَلَّمَنِي أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ يُفْتَحُ مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفُ بَابٍ)^(٤)، وقد أقرّ المعصومون (سلام الله عليهم) بأنّ علومهم مأخوذة منه (صلى الله عليه وآله)، وكلماته (صلى الله عليه وآله) ومواعظه ونصائحه في الشئون المختلفة كافية لإثباته. وأمّا أنّه ما قال من نفسه فيدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٥).

(١) معترك الاقران في إعجاز القران، جلال الدين السيوطي: ٥٥ / ٢.

(٢) طه، الآية: ١-٢.

(٣) الكافي: ٩٠ / ١.

(٤) الخصال: ٥٧٢.

(٥) النجم، الآية: ٣-٤.

وأما كونه أقرب الخلائق إلى الله، فيكفي في إثباته خطاب الله عزَّ وجلَّ له في ليلة المعراج: (لَوْلَا كَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ) ^(١)، وأما كونه مُنزَّها عن السَّهو والنسيان وأمثالهما؛ فلائها منافيةٌ للعصمة، وبعد ثبوت العصمة له (صلى الله عليه وآله) لا نحتاج إلى الاستدلال على نفيها عنه، فمن نَسَبَ السَّهو والنسيان إليه (صلى الله عليه وآله) فقد سها ونسي، ولل كلام فيه محلُّ آخر.

وأما كونه مُصدِّقا للأنبياء الماضين فيدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ...﴾ ^(٢)، وهذه الآية فإذا كان الإيمان بالأنبياء الماضين مشروطًا في الإيمان به، والإيمان به مشروطًا بالإيمان بهم، بالنسبة إلى المؤمنين، فكيف لا يكون مُصدِّقا لهم؟! وهذا ظاهر.

وأما بشارة أنبياء السلف بمجيئه وبعثته، فقد ذكرنا شرطًا منها قال الله تعالى في كتابه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ^(٣)، وهذه الآية صريحة بأن الأمم السابقة كانوا عارفين به، ومن المعلوم أنه لولا تبشير الأنبياء لهم، فمن أين حصل العلم لهم بوجوده وبعثته، ومع وجود هذه الآية لا نحتاج إلى الروايات الدالة على المدعى، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ^(٤).

(١) الآداب الدينية للخزانة المعينية، الطبرسي: ٤٣.

(٢) البقرة، الآية: ٤.

(٣) البقرة، الآية: ١٤٦.

(٤) الصف، الآية: ٦.

واعلم أن نبيّنا (صلى الله عليه وآله) أفضل من الأنبياء والرسل بأجمعهم، آدم ومن دونه؛ ولذلك قال (صلى الله عليه وآله): (كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطَّيْنِ)^(١)، وقال (صلى الله عليه وآله): (آدَمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ)^(٢)، وقال (صلى الله عليه وآله) (لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَتْبَاعِي)^(٣)، وأمثال ذلك من الروايات.

وهذه الأفضليّة ثابتة له (صلى الله عليه وآله) من جهتين:

الأولى: من حيث الوجود؛ لأنّه العِلَّةُ الغائيّة لِكُلِّ الموجودات، فإنّ روحه المقدّس هو الصادر الأوّل، والقلم الأعلى، واللّوح المحفوظ، والعرش، والعقل، على ما مرّ بيّانه في أوّل ما خلق الله، ويدلّ عليه (لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلاكَ) وهذا ممّا لا كلام لنا فيه فعلاً.

الثانية: أفضليّته بالنظر إلى سعة وجوده التي أشار إليها بقوله: (لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَتْبَاعِي) وإلى هذا المعنى أشار (صلى الله عليه وآله) في الحديث المشهور بين العامّة والخاصّة، المرويّة بطرقٍ مختلفة وأسانيد متفاوتة؛ فعن الباقر (عليه السلام) أنّه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أُعْطِيتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ قَبْلِي):

١- جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا.

٢- وَأُحِلَّ لِي الْمَغْنَمُ.

(١) جواهر الفقه، القاضي ابن البراج: ٢٤٨.

(٢) مجمع الزوائد، الهيثمي: ٣٧٢/٢.

(٣) غريب الحديث، ابن سلام الهروي: ١١٧/٤، مادّة (لب).

٣- وَنَصَرْتُ بِالرُّعْبِ.

٤- وَأُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ.

٥- وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ^(١).

وعن الصادق (عليه السلام) يقول: (اتَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَفْضَلُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ أَحَدًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ فَضَّلَهُ)^(٢).

وروي في الكافي بسنده عن الحسين بن عبد الله، قال: (قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام):

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) سَيِّدٌ وَوَلَدُ آدَمَ؟ فَقَالَ: كَانَ وَاللَّهُ سَيِّدًا مَنْ خَلَقَ اللَّهُ، وَمَا بَرَأَ اللَّهُ بَرِيَّةً خَيْرًا مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)^(٣)، ولما كان وجوده الختمة في مقام جمع الجمع؛ أعني كل ما ثبت من الكمالات لجميع الأنبياء وسائر الموجودات، فهي موجودة في نسخة وجوده الأتم الأكمل، وليس كل ما له سائر المخلوقات، فهو النسخة الجامعة الوجودية، لا مقام فوق مقامه إلا مقام خالقه وبارئه، فتبارك الله أحسن الخالقين، وقد قيل في حقه:

إِذَا الْمَكَارِمُ فِي آفَاقِنَا ذُكِرَتْ فَإِنَّمَا بِكَ فِينَا يُضْرَبُ الْمَثَلُ^(٤)

وحيث انجرّ كلامنا إلى هذا المقام، وقلنا إنه (صلى الله عليه وآله) أفضل

(١) الأمل، الصدوق: ٢٨٥.

(٢) قرب الإسناد، الحميري القمي: ١٢٩.

(٣) الكافي: ١/٤٤٠.

(٤) البيت في غير نسبة في الدرّ الفريد وبيت القصيد، محمد بن أيّدمر: ١٤١/٩، وينسبه بهاء الدين العاملي في كشكوله لحسان بن ثابت: ٢٣٧/١ ولم أعر عليه في ديوانه، الدرجات الرفيعة، علي خان المدني: ٣٦٤.

من جميع الأنبياء والمرسلين فضلاً عن غيرهم، فلا بُدَّ له (صلى الله عليه وآله) من المعجزات ما ثبت لتسام الأنبياء الماضين، ومن الكمالات أيضاً كذلك، فنقول مستعيناً بالله:

أما آدم (عليه السلام):

فإن كان لآدم سجود الملائكة مرة واحدة فلمحمد (صلى الله عليه وآله) صلواتُ الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم القيامة، وإن كان آدم قبلة الملائكة في سجودهم له، فجعله الله أمام الأنبياء ليلة المعراج، فصار أمام آدم أيضاً، وإن خُلِقَ آدم من طين فإنه^(١) خُلِقَ من نور الله عزَّ وجلَّ؛ كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ، وإن كان آدم أول الخلق فقد صار محمد قبله؛ لقوله (صلى الله عليه وآله):

(خَلَقَنِي مِنْ نُورٍ وَخَلَقَ ذَلِكَ النُّورَ قَبْلَ آدَمَ بِأَلْفِي أَلْفِ سَنَةٍ) وإن كان آدم أبا البشر فمحمد (صلى الله عليه وآله) سيد البشر، قال (صلى الله عليه وآله): (آدمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، وإن كان آدم أول الأنبياء، فنبوته (صلى الله عليه وآله) أقدم منه؛ لقوله (صلى الله عليه وآله): (كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ)^(٢)، وإن عجزت الملائكة عن طيته فمحمد أُعْطِيَ القرآن الذي عجز عنه الأولون والآخرون، وإن قيل لآدم: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾^(٣)، فقال له: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(٤)، وإن دخل

(١) أي: النبي محمد (صلى الله عليه وآله).

(٢) جواهر الفقه، القاضي ابن البراج: ٢٤٨.

(٣) البقرة، الآية: ٣٧.

(٤) الفتح، الآية: ٢.

آدم الجنة فمحمّد (صلى الله عليه وآله) عُرِجَ به إلى قاب قوسين أو أدنى^(١).

إدريس النبي:

وإن قيل لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾^(٢)؛ أي السماء، فقيل للنبي: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(٣)، وإن ناجى إدريس ربّه، فنادى الله محمّداً: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(٤)، وإن أُطعم إدريس بعد وفاته، فقد أطعمه الله في حياته؛ لقوله (صلى الله عليه وآله): إِنِّي لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ إِنِّي أَبِيْتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي^(٥).

نوح النبي:

جرت له السفينة على الماء، وهي تجري للمؤمن والكافر، ولمحمّد [صلى الله عليه وآله] جرى الحجرُ على الماء؛ وذلك أنّه كان على شفير غدير، وراء الغدير تلٌّ عظيم، فقال عكرمة ابن أبي جهل^(٦): يا محمّد إن كنت نبياً فادعُ من صخور ذلك التلّ حتّى يخوض الماء فيعبر، فدعا بالصخرة، فجعلت تأتي على وجه الماء حتّى مثّلت بين يديه، فأمرها بالرجوع فرجعت كما جاءت.

(١) ينظر: مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ١ / ١٨٤.

(٢) مريم، الآية: ٥٧.

(٣) الشرح، الآية: ٤.

(٤) النجم، الآية: ١٠.

(٥) ينظر: مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٨٤.

(٦) عكرمة ابن أبي جهل: أسلم يوم فتح مكة وأقام فيها فلما كانت حجة الوداع استعمله رسول الله (صلى الله عليه وآله) على هوازن يصدقها، وبعدها توفي رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وخرج عكرمة إلى الشام وقتل هناك في عهد أبي بكر. ينظر: الطبقات: ٥ / ٤٤٤.

وإن أُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ عَلَى قَوْمِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ...﴾^(١)، فهطلت له السماء بالعقوبة، فأجيبت لمحمد بالرحمة؛ حيث قال حوالينا ولا علينا، فنوح رسول العقوبة، ومحمد رسول الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).
 دعا نوح لنفسه ولنفر يسير، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ...﴾^(٣)، ومحمد دعا لأُمَّتِهِ مَنْ وُلِدَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُولَدْ، وقال تعالى في ذرية نوح: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^(٤)، وفي ذرية محمد: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾^(٥)، كانت سفينة نوح سبب النجاة في الدنيا، وسفينة محمد سبب النجاة في العقبى، لقوله (صلى الله عليه وآله): (مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي كَسَفِينَةِ نُوحٍ... إلخ).

وقال حسان بن ثابت:

على الفلكِ بالقومِ لما نجى
إلى الغارِ في الليلِ لما نجى

وإن كان نوحٌ نجا سالماً
فإنَّ النبيَّ نجا سالماً

وقال حسان أيضاً:

على القومِ فاستأصلوا بالبلاءِ
على المشركين بسيفِ الفناءِ^(٦)
بلبيكَ لبيكَ سل ما تشاء^(٧)

وإن كان لوطٌ دعا ربُّه
فإنَّ النبيَّ بدرِ دعا
فناداهُ جبريلُ من فوقه

(١) نوح، الآية: ٢٦.

(٢) الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٣) نوح، الآية: ٢٨.

(٤) الصافات، الآية: ٧٧.

(٥) آل عمران، الآية: ٣٤.

(٦) (الفنا) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١/ ١٨٤.

(٧) ينظر: مناقب آل أبي طالب: ١/ ١٨٤، ولم أعر على الأبيات في ديوان حسان بن ثابت.

إبراهيم الخليل:

الخليل نظر من الملك إلى الملكوت: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ...﴾^(١) إلخ، والحبيب نظر من الملكوت إلى الملك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾^(٢)، والخليل طالب: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾^(٣)، والحبيب مطلوب: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية^(٤)، قال الخليل: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي﴾^(٥)، وقيل للحبيب: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾^(٦) الآية، قال الخليل: ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾^(٧)، وللحبيب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٨)، وقال الخليل وسط النار: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾^(٩)، وقيل للحبيب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾^(١٠)، قال الخليل: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ﴾^(١١)، وقيل للحبيب: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(١٢)، قال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا﴾^(١٣)، وقيل

(١) الأنعام، الآية: ٧٥.

(٢) الفرقان، الآية: ٤٥.

(٣) الصافات، الآية: ٩٩.

(٤) الإسراء، الآية: ١.

(٥) الشعراء، الآية: ٨٢.

(٦) الفتح، الآية: ٢.

(٧) الشعراء، الآية: ٨٧.

(٨) البقرة، الآية: ١٠٤.

(٩) الأنبياء، الآية: ١٠٩.

(١٠) الأنفال، الآية: ٦٤.

(١١) الشعراء، الآية: ٨٤.

(١٢) الشرح، الآية: ٤.

(١٣) البقرة، الآية: ١٢٨.

للحبيب ﴿لِنُرِيَهُ﴾^(١) الآية، قال الخليل ﴿وَجْعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾^(٢)، وقيل للحبيب: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٣)، الخليل اقسم بالله: ﴿وَتَاللَّهِ لَا أَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾^(٤)، وأقسم الله بالحبيب ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ﴾^(٥)، واتخذ مقام الخليل قبلة، ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾^(٦)، وجعل أحوال الحبيب وأفعاله وأقواله قبلة وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٧)، الخليل كسر الأصنام خفية، والحبيب كسر الأصنام جهرة، ثلاثمائة وستين صنماً، وأذل من عبدها بالسيف، الخليل بعد الابتلاء: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ﴾^(٨)، والحبيب قبل الابتلاء ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي﴾^(٩)، الخليل بذل ماله لأجل الجليل، وخلق الجليل العالم لأجل الحبيب، مقام الخليل مقام الخدمة، ومقام الحبيب مقام الشفاعة، مقام الخليل ابتداء الوصلة، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ﴾^(١٠)، ومقام الحبيب بقاء الوصلة ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾^(١١)، وللبقاء فضل على الابتلاء، صير الله حر النار على الخليل برداً وسلاماً، وصير السم في جوف الحبيب سلاماً، ثم سخر له نار جهنم التي كانت نار الدنيا كلها جزءاً منها، قال للخليل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي

(١) الإسراء، الآية: ١.

(٢) الشعراء، الآية: ٨٥.

(٣) الأعلى، الآية: ١٧.

(٤) الأنبياء، الآية: ٥٧.

(٥) الحجر، الآية: ٧٢.

(٦) البقرة، الآية: ١٢٥.

(٧) الأحزاب، الآية: ٢١.

(٨) البقرة، الآية: ١٣٠.

(٩) الحج، الآية: ٧٥.

(١٠) الأنعام، الآية: ٧٦.

(١١) يونس، الآية: ٧٢.

كَيْفَ نُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ... ﴿١﴾، وقال للحبيب: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ...﴾ ﴿٢﴾ إلخ، قال الخليل: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي﴾ ﴿٣﴾، وقال للحبيب: ﴿لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ﴾، وَصَلَ الخليل إلى الخليل بالواسطة ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ...﴾ ﴿٤﴾، وَصَلَ الحبيب إلى الخليل بلا واسطة ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ...﴾ ﴿٥﴾ إلخ، أراد الخليل رضا الله في رفع الكعبة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ ﴿٦﴾، وأراد الله القبلة في رضا الحبيب: ﴿فَلَنُوَلِّينَاكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ ﴿٧﴾، سأل الخليل ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ ﴿٨﴾، وقال للحبيب ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ﴾ ﴿٩﴾ إلخ، الخليل من يخالك والحبيب من تخاله فلا جرم ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ﴿١٠﴾، الخليل المرید، والحبيب المراد، الخليل عطشان، والحبيب ريان ﴿١١﴾.

يعقوب النبي:

يعقوب كان له اثنا عشر ابناً، ولمحمد (صلى الله عليه وآله) اثنا عشر وصياً، جعل الأسباط من سلالة صُلبه، ومريم من بناته، والهداة في ذريته، ومحمد (صلى الله عليه وآله) جعلت فاطمة سيّدة نساء العالمين من بناته،

(١) البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٢) البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٣) الشعراء، الآية: ٧٧.

(٤) الأنعام، الآية: ٧٥.

(٥) الأنعام، الآية: ٧٥.

(٦) البقرة، الآية: ١٢٧.

(٧) البقرة، الآية: ١٤٤.

(٨) البقرة، الآية: ١٢٦.

(٩) الأحزاب، الآية: ٣٣.

(١٠) الضحى، الآية: ٥.

(١١) ينظر: مناقب آل أبي طالب: ١/١٨٦-١٨٧.

والحسن والحسين من ذريته، وآتاه القرآن^(١).

يوسف النبي:

(كان ليوسف جمالٌ ولمحمد ملاحه وكمال، كما قال (صلى الله عليه وآله):
يوسف أصبح مني وأنا أملك منه).

وكان يوسف في الدنيا نورانيًا، ومحمد في الدنيا والعقبى نوراني، صبر يوسف في الجبِّ والحبس، وصبر محمد (صلى الله عليه وآله) على أذى المشركين^(٢).

(إن كان الله أعطى موسى اثنتي عشرة عينًا: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾^(٣)، فمحمد (صلى الله عليه وآله) أمر البراء ابن عازب بغرس سهمه يوم المبضاة بالحديبية في قلب جافة فتفجرت اثنتا عشرة عينًا حتى كفت ثمانية آلاف رجل، وكان لموسى انفجار الماء من الحجر، ولمحمد انفجار الماء من بين أصابعه.

خلف موسى هارون في قومه ومحمد عليًا في قومه، كان لموسى اثنا عشر نقيبًا ولمحمد اثنا عشر إمامًا، كان لموسى انفلاق البحر، ولمحمد [صلى الله عليه وآله] انشقاق القمر، وانفلاق البحر بالعصا، فاضرب بعصاك البحر، وانشقاق القمر بإصبعه، وقال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي﴾^(٤)، وقال الله لمحمد (صلى الله عليه وآله): ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾^(٥).

(١) ينظر: الاحتجاج، الطبرسي: ٣١٩/١.

(٢) ينظر: مناقب آل أبي طالب: ١٨٧/١.

(٣) البقرة، الآية: ٦٠.

(٤) طه، الآية: ٢٥.

(٥) الشرح، الآية: ١.

وأعطى الله موسى المنّ والسّلوى، وأحلّ الغنائم لمحمّد [صلّى الله عليه وآله] ولأُمَّته، ولم يُجَلِّ لأحدٍ قبله، وقال في موسى: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾^(١)، والنبِيُّ كان يسير الغمام فوقه، وكَلَّمَ الله موسى تكليماً عند طور سيناء، وناجى الله محمّداً سدرَةَ المنتهى، وكان بين موسى والحقّ واسطة، ولم يكن بين محمّد [صلّى الله عليه وآله] وربّه أحد.

إذ ليس من ناداه كمن ناجاه، فمن بعد نُودي ومن قُرب نُوجي، ولنعَم ما قال حسان في هذا المقام:

شَرِيفٍ مِنَ الطُّورِ يَوْمَ النِّدَاءِ^(٣)
حَبَى^(٤) بِالرِّسَالَةِ فَوْقَ السَّمَاءِ^(٥)
عَلَى قَابِ قَوْسَيْنِ لَمَّا دَنَا^(٦)
عُيُونًا مِنَ الصَّخْرِ ضَرْبَ الْعَصَاءِ^(٧)
عُيُونٌ مِنَ الْمَاءِ يَوْمَ الظُّمَاءِ^(٨)
حَبَى^(٩) بِالْوَزَارَةِ يَوْمَ الْمَلَأِ^(١٠)

لَتُنْ كَلَّمَ اللهُ مُوسَى عَلَى
فَإِنَّ النَّبِيَّ أَبَا قَاسِمٍ
وَقَدْ صَارَ بِالْقُرْبِ مِنْ رَبِّهِ
وَإِنْ فَجَّرَ الْمَاءَ مُوسَى لَكُمْ^(٢)
فَمِنْ كَفِّ أَحْمَدَ قَدْ فَجَّرَتْ
وَإِنْ كَانَ هَارُونَ مِنْ بَعْدِهِ

(١) الأعراف، الآية: ١٦٠.

(٢) (لهم) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٩٠.

(٣) (الندا) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٩٠.

(٤) في مفتاح السعادة: (حسي)، وما أثبتناه من المصدر لاستقامة الوزن.

(٥) (السماء) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٩٠.

(٦) (دنا) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٩٠.

(٧) (العصا) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٩٠.

(٨) (الظلماء) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٩٠.

(٩) في مفتاح السعادة: (حسي)، وما أثبتناه من المصدر لاستقامة الوزن.

(١٠) (الملاء) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٩١.

فَإِنَّ الْوَزَارَةَ قَدْ نَالَهَا عَلِيٌّ بِإِلَاحِ شَكِّ يَوْمِ الْإِنْدَاءِ^(١)

وقال: كعب بن مالك الأنصاري:

فَإِنَّ يَكَّ مُوسَى كَلَّمَ اللَّهَ جَهْرَةً عَلَى جَبَلِ الطُّورِ الْمُنِيفِ الْمُعْظَمِ
فَقَدْ كَلَّمَ اللَّهَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا عَلَى الْمَوْضِعِ الْأَعْلَى الرَّفِيعِ الْمُسَوِّمِ^(٢)

داود النبي:

قال لداود: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾^(٣)، وقال في محمد [صلى الله عليه وآله]: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَى﴾^(٤)، ولداود: ﴿وَالطَّيْرُ مُحْشُورَةٌ كُلُّ لَهْ أَوَّابٌ﴾^(٥)، ولمحمد (صلى الله عليه وآله) البراق، وقال في داود: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾^(٦)، وشدد ملك محمد [صلى الله عليه وآله] حتى نسخ بشريعته سائر الشرائع^(٧).

سليمان النبي:

قال في حقه: ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾^(٨)، وعلم محمدًا (صلى الله عليه وآله) جميع اللغات، وسخرت له الريح، ولمحمد البراق.

وسئل ملكًا دينيًا فقال رب: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ...﴾^(٩) الخ، وعرض مفاتيح

(١) مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٩٠-١٩١، ولم أعر على الأبيات في ديوان حسن.

(٢) ديوان كعب بن مالك: ٩٥-٩٦.

(٣) ص، الآية: ٢٦.

(٤) النجم، الآية: ٢.

(٥) ص، الآية: ١٩.

(٦) ص، الآية: ٢٠.

(٧) ينظر: مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٩١.

(٨) النمل، الآية: ١٦.

(٩) ص، الآية: ٣٥، وتامها: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

خزائن الأرض على محمد (صلى الله عليه وآله) فردّها، فشتان بين من يسأل، وبين من يعطى، فلا يقبل فأعطاه الله ﴿الكَوْثَرَ﴾^(١)، والشّفاة والمقام المحمود، وقال لسليمان: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾^(٢)، وقال لنبينا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣).

قال حسان:

وَأِنْ كَانَتْ الْجِنُّ قَدْ سَاسَهَا وَسَلِيمَانُ وَالرِّيْحُ تَجْرِي رُخَاءً^(٥)
فَشَهْرٌ غَدُوٌّ بِهِ رَائِيًا^(٤) وَشَهْرٌ رَوَاحٌ بِهِ أَنْ يَشَاءَ^(٦)
فَإِنَّ النَّبِيَّ سَرَى لَيْلَةً مِنْ الْمَسْجِدَيْنِ إِلَى الْمُرْتَقَى^(٧)

قال كعب:

فَإِنْ تَكُ نَمَلُ الْبَرِّ بِالْوَهْمِ كَلَّمْتَ سُلَيْمَانَ ذَا الْمَلِكِ الَّذِي لَيْسَ بِالْعَمِي
فَهَذَا نَبِيُّ اللَّهِ أَحْمَدُ سَبَّحَتْ صِغَارُ الْحَصَى فِي كَفِّهِ بِالْتَرْتُمِ^(٨)

يحيى النبيّ:

(قال الله تعالى في حقّه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾^(٩)، وكان في عصر لا جاهليّة

(١) الكوثر، الآية: ١.

(٢) ص، الآية: ٣٩.

(٣) الحشر، الآية: ٧.

(٤) (رأياً) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١/ ١٩٢.

(٥) (رخا) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١/ ١٩٢.

(٦) (يشا) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١/ ١٩٢، ولم أعر على الأبيات في ديوان حسان بن ثابت.

(٧) ينظر: مناقب آل أبي طالب: ١/ ١٩١-١٩٢.

(٨) ديوان كعب بن مالك: ٩٩، وفيه: (وإن) بدلاً من (فإن).

(٩) مريم، الآية: ١٢.

فيه، ومحمد [صلى الله عليه وآله] أوتي الحكم والفهم صبيًا بين عبدة الأوثان، وكان يجيى أزهة أهل زمانه وأعبدهم، ومحمد [صلى الله عليه وآله] أزهة الخلائق وأعبدهم من الأولين والآخرين حتى قيل في حقّه: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(١).

[قال] حسان بن ثابت:

وإن كان يحيى بكت عينه
فإن النبي بكى قائمًا
فناداه طه أبا قاسم
ولا تشق بالوحي لما أتى^(٢).

عيسى روح الله:

عيسى أبراً الأكمه والأبرص، ونبينا (صلى الله عليه وآله) أتاه معاذ بن عفراء، فقال: يا رسول الله إنني قد تزوجت، وقالوا للزوجة إن بجنبي بياضاً، فكرهت أن تُزف إليّ، فقال: اكشف لي عن جنبك، فكشفت جنبي، فمسحهُ بعودٍ، فذهب ما به من البرص، وإن كان عيسى يُشفي الأعمى، فقد روي أنه جاءت امرأة إليه، ومعها عكة سمنٍ، وأقط، ومعها ابنة لها، فقال: يا رسول الله وُلدت هذه كأُمّها، فأخذ رسول الله عودًا فمسح به عينيها، فأبصرتا^(٣).

وإن كان عيسى قد ﴿وأحيى الموتى بإذن الله﴾^(٤)، فقد روي عن الرضا (عليه السلام) أنه، قال: (اجتمعت قريش إلى رسول الله، فسألوه أن يحيي

(١) طه، الآية: ١-٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ١/ ١٩٢.

(٣) ينظر: مناقب آل أبي طالب: ١/ ١٩٢-١٩٣، لم أعثر على الأبيات في ديوان حسان.

(٤) آل عمران، الآية: ٤٩.

لَهُمْ مَوْتَاهُمْ، فَوَجَّهَ لَهُمَ عَيْلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: اذْهَبْ إِلَى الْجَبَانَةِ، فَنَادِ بِاسْمِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ عَنْهُمْ بِأَعْلَى صَوْتِكَ، يَا فُلَانُ وَيَا فُلَانُ وَيَا فُلَانُ يَقُولُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ قُومُوا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَقَامُوا يَنْفُضُونَ التُّرَابَ عَن رُؤُوسِهِمْ، فَأَقْبَلْتُ قُرَيْشُ تَسْأَلُهُمْ عَن أُمُورِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرُوهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ بُعِثَ نَبِيًّا^(١) الْخَبْر.

قال حسان بن ثابت:

وإن كان من مات يحيى لكم
فإن الذراع لقد سمها
فنادته إني لمسمومة
يُنَادِيهِ عَيْسَى بَرِّ الْعُلَى
يَهُودٌ لِأَحْمَدَ يَوْمَ الْقُرَى
فَلَا تَقْرَبْنِي وَقِيَتِ الْأَذَى^(٢)

فظهر أنه (صلى الله عليه وآله) كان واجداً لجميع الكمالات، وآتياً بجميع المعجزات، فهو النسخة الجامعة لجميع الأنبياء والمرسلين، فيليق بأن يكون خاتماً لهم، وشريعته ناسخةً لشرائعهم، وأوصياؤه أفضل أوصيائهم، وأُمَّته أشرف من أممهم. والحمد لله رب العالمين^(٣).

سابعاً- السيد نبيل الحسنی:

يُرشد قوله (عليه الصلاة والسلام): «مَشْهُورَةٌ سَمَاتُهُ» -فضلاً عما أفاده الشراح- إلى أمور؛ منها:

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام)، الصدوق: ١/ ١٤٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ١/ ١٩٢-١٩٣، وفيه: (مسمومة) بدلاً عن (لمسمومة)، ولم أعر على الأبيات في ديوان حسان.

(٣) مفتاح السعادة: ١/ ١١٢-٤٣٠.

أولاً: المراد من الشهرة اختصاصها عند الأنبياء (عليهم السلام).

إنَّ المراد من الشهرة في (سماته)؛ أي علاماته عند الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) الذين سبقوه؛ وذلك بدلالة ما سبق من قوله (عليه السلام): «مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِثَاقُهُ»، فتكون سماته مشهورةً عندهم وقد حدَّثوا أممهم بها فاشتهرت هذه العلامات على مرِّ العصور والأزمنة وفي كلِّ الأمكنة التي بُعثوا فيها.

ثانياً: إنَّ الشهرة في سماته لقطع الحجَّة على أهل زمانه.

إنَّ هذه العلامات مشهورة في زمانه (صلى الله عليه وآله)؛ وقبل بعثه، وذلك لقطع الحجَّة على الناس في نكرانه، والاهتداء إليه، وقد تواترت الأخبار في بيان حال كثيرٍ من الرهبان وأهل الكتاب في تتبُّع هذه العلامات الكاشفة عنه (صلى الله عليه وآله).

ثالثاً: انقسام السَّمات المشهورة على قسمين.

إنَّ هذه السَّمات تنقسم على قسمين:

الأول: كونية، أي قبل مبعثه؛ فقد أخرج الحاكم النيسابوري، عن العرباض بن سارية السلميّ، قال سمعتُ النبيَّ (صلى الله عليه وآله)، يقول: «إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ لِحَاتِمِ النَّبِيِّينَ، وَأَنَّ آدَمَ لَمُنْجِدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنْبِكُمْ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةِ عَيْسَى قَوْمَهُ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ»^(١)، وتضليل الغمام له، واستسقاء جدِّه عبد المطلب بوجهه الكريم، وتسليم الشجر والحجر عليه بالنبوة، وغيرها لكثير.

(١) المستدرک علی الصحیحین: ٦٠٠/٢.

الثاني: شخصيَّة؛ أي إن هذه العلامات المشهورة بين الناس كانت تكمن في سِماته الشخصية التي اشتهر بها؛ كِسِمَةِ (الصادق الأمين)، واعتزاله قومه ونواديهم، وشجاعته، وكرم نفسه، وغيرها من السِّمات الأخلاقية التي شَهِدَ بها له ربُّ العِزَّة جَلَّ جلالُه، فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

رابعًا: لا صِحَّة لما رواه التستريُّ في ترغيب ورقة بن نوفل لأُمِّ المؤمنين خديجة (عليها السلام) من الزواج بالنبيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ).

إنَّ ما رواه التستريُّ (رحمه الله)، قائلاً: «ومَن عرفه بسِماته ورقة بن نوفل ابنُ عمِّ خديجة، ورغبها في التزوُّج به لذلك، وزادها في رغبتها فيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) أخبار ميسرة غلامها بما سمع من أخبار الشام فيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)».

فهو وإن تناقلته الأقلام عن ابن هشام في السيرة إلاَّ أنَّه لا صِحَّة له؛ وذلك أنَّ زواج أُمِّ المؤمنين (عليها السلام) لم يكن بترغيبٍ من ورقة بن نوفل الذي زَجَّ به المتزلِّفون للسلطة الأموية والعباسية في هذه الفترة الزمنية من عمر الإسلام، أي بدء البعثة، كما مرَّ بيانه في المطلب السابق.

ومن ثمَّ فالصحيح: إنَّها (عليها السلام) كانت تُدرك مَنْ هو (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، ولاسيما أنَّه قد اشتهرت سِماته الكونية والأخلاقية، ولذا لم تكن تنتظر أن يُرغَّبها فيه أحد، وهي التي قد بلغت قبل الإسلام منزلةً سامية في مكة وبين قريش، ولقد ذكرها أهل السير والتاريخ بكلمات تكشف عن عِظَم هذه المنزلة وسُمُو تلك المكانة.

(١) القلم، الآية: ٤.

فكانت - كما ذكروا-: «امرأة حازمة، ضابطة، جليدة، قويّة، شريفة، مع ما أراد الله لها من الكرامة والخير، وهي يومئذٍ: أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وأحسنهم جمالاً»^(١).

«وكانت تُدعى في الجاهلية بد(الطاهرة)»^(٢).

ويقال لها: «سيّدة قريش»^(٣).

«وكلُّ قومها كان حريصاً على الاقتران بها لو يقدر عليه»^(٤).

وقد خطبها رجالٌ من قريش برزوا في ساحتها «وبذلوا لها الأموال»^(٥).

(١) راجع: طبقات ابن سعد: ١/ ١٠٥، الروض الأنف، السهيلي: ١/ ٢١٣، السيرة النبويّة، ابن جرير الطبري: ٣٨، البداية والنهاية، ابن كثير: ٢/ ٢٩٤، ط دار الكتب العلميّة، و ٢/ ٣٥٩، ط دار إحياء التراث العربيّ - بيروت، أسد الغابة، ابن الأثير: ٧/ ٧٨، ط دار الشعب، و ٥/ ٤٣٥، ط دار الكتاب العربيّ - بيروت، السيرة الحليّة: ١/ ٢٢٣، تاريخ الإسلام، الذهبي: ٢/ ١٥٢، تاريخ الخميس، الديار البكري: ١/ ٢٦٣، الوفا بأحوال المصطفى (صلى الله عليه وآله)، السمهودي: ١/ ١٤٤، المواهب اللدنيّة، القسطلاني: ١/ ٢٠٠، تهذيب الأسماء واللغات، النووي: ١/ ٣٤١، المنتظم، سبط ابن الجوزي: ٢/ ٣١٤، السيرة النبويّة، أبو حاتم: ٦٢، حقائق الأنوار، ابن البديع الشيباني الشافعي: ١/ ١٥٥.

(٢) تاريخ دمشق، ابن عساكر: ٣/ ١٩٣، التبيين في أنساب القرشيين: ٧١، تاريخ الخميس: ١/ ٢٦٣-٢٦٤، سمط النجوم العوالي، العاصمي: ١/ ٣٦٥، السيرة الحليّة: ١/ ٢٢٣، مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور قسم السيرة النبويّة: ٢٦٤، رفع الخفا شرح ذات الشفا، محمّد بن حسن الآلاني الكردي: ١/ ١٣٣، تهذيب الأسماء واللغات: ١/ ٤٣٢، المواهب اللدنيّة: ١/ ١٩٩، علل ذلك قائلاً: «سُميت بالطاهرة لشدة عفّتها وصيانتها»، الخصائص الفاطمية، الشيخ الكجوري: ١/ ١٦١.

(٣) تاريخ الخميس: ١/ ٢٦٥، المواهب اللدنيّة: ١/ ١٩٩، الروض الأنف: ١/ ٢٥.

(٤) راجع في ذلك: السيرة، ابن هشام: ١/ ٢٢٦، عيون الأثر، ابن سيّد الناس: ١/ ١١٧، السيرة النبويّة، ابن جرير: ٣٨، حقائق الأنوار: ١/ ١٥٥، عيون التواريخ، ابن شاعر الدمشقي: ١/ ٣٨، الوفا: ١/ ١٤٤، المواهب اللدنيّة: ١/ ٢٠٠.

(٥) راجع طبقات ابن سعد: ١/ ١٠٥، الوفا: ١/ ١٤٤، تاريخ الخميس: ١/ ٢٦٣، المنتظم: ٢/ ٣١٤،

وَمَنْ خَطَبَهَا: «عقبة بن أبي معيط، والصلت بن أبي يهاب، وأبو جهل، وأبو سفيان»^(١).

ويبدو أن السبب في رفضها هو عدم توفر الصفات الخيرة والسجايا الطيبة والنفس الكريمة في مثل هؤلاء! وذلك أن أي امرأة تتوفر فيها مثل هذه الصفات من النسب الرفيع، والمال الكثير، مع ما لها من الجمال البالغ، لا توافق على أحد ممن تقدموا لخطبتها.

فلذلك لم يكن عندها دافع آخر يدفعها من الزواج سوى البحث عن الفضيلة بأسمى درجاتها؛ وهذا ما لا يمكن توفره في مثل هذه الشخصيات التي ذكرت النصوص التاريخية والتي لم تذكر، باستثناء شخصية النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي سار ذكره بالمحاسن وعلا خبره بالفضائل في مكة حتى عُرف بـ(الصادق الأمين) قبل أن يُبعث نبياً، فضلاً عما ظهر له من الكرامات التي طأطأت لها رؤوس الأشراف، فكان هذا ما تبحث عنه سيّدة قريش.

والحمد لله على فضله وفضل رسوله (صلى الله عليه وآله).

المطلب الرابع: الحقول المعرفية في قوله (عليه السلام): «كريمًا ميلادُهُ».
اشتمل النص الشريف على جملة من الحقول المعرفية؛ كاللغة، والإعراب، والشرح، وهي على النحو الآتي:

المواهب اللدنية: ١/ ٢٠٠، السيرة النبوية، محمد أبو شبة: ١/ ٢٢٠، عيون التواريخ: ١/ ٣٨، عيون الأثر، ابن سيّد الناس: ١/ ٧١.
(١) راجع البحار، المجلسي: ١٦/ ٢٢.

المسألة الأولى: المعنى اللُّغوي:

أولاً- الراوندي:

قال: «الميلاد: الولادة»^(١)»^(٢).

ثانياً- البحراني:

قال: «ميلاد الرجل: محلُّ ولادته من الزمان والمكان»^(٣)»^(٤).

ثالثاً- الخوئي:

قال: «الميلاد كالمولِد: وقتُ الولادة»^(٥)، ولم يستعمل في الموضوع كما توهمه الشارحُ البحراني^(٦)؛ بل مختصٌّ بالزمان، والمولد يُطلَق على الوقت والموضع كما صرَّح به الفيومي^(٧)»^(٨).

المسألة الثانية: الإعراب:

أولاً- البحراني:

قال: «كذلك الحال في المنصوبين الباقيين»^(٩)»^(١٠).

(١) أساس البلاغة، الزمخشري: ٢/ ٣٥٣، مادة (ولد).

(٢) منهاج البراعة: ١/ ٨٨.

(٣) ينظر: الصحاح: ٢/ ٥٥٤، مادة (ولد).

(٤) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠٠. وورد هذا المعنى في: مفتاح السعادة: ١/ ٣٨٤.

(٥) ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي: ١/ ٣٢٧، مادة (ولد).

(٦) ينظر: شرح نهج البلاغة، البحراني: ١/ ٢٠٠.

(٧) ينظر: المصباح المنير، الفيومي: ٢/ ٦٧١، مادة (ولد).

(٨) منهاج البراعة: ٢/ ١٦٢.

(٩) مرَّ المنصوب الأول (مشهورة)، والمنصوب الثاني المعني هنا (كريباً).

(١٠) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠٥.

ثانياً- مؤسّسة علوم نهج البلاغة:

قال (عليه السلام): «كريمًا ميلادُهُ»: (كريمًا): حال ثالثة، (ميلادُهُ): فاعل مرفوع، وهو مضاف والهاء ضمير مضاف إليه.

المسألة الثالثة: أقوال الشراح:

أولاً- الراوندي:

قال: «بكرم الأصل موصوفًا»^(١).

ثانياً- البحراني:

قال: «مع ذكاء^(٢) أصله، وكرم مادة حملته، وشرف وقت سمح به»^(٣).

ثالثاً- الخوئي:

قال: «كريمًا ميلادُهُ؛ أي وقت ولادته (صلى الله عليه وآله)، فقد تولّد وكان طالع ولادته على ما حكاه المجلسي (قده) عن أبي معشر: (الدرجة العشرون من جدي، وكان زحل والمشتري في العقرب، والمريخ في بيته في الحمل، والشمس في الحمل في الشرف، والزُّهرة في الحوت في الشرف، والعطارد أيضًا في الحوت، والقمر في أول الميزان، والرأس في الجوزاء، والذنب في القوس)^(٤).

وروي أيضًا: اتّفاق الحكماء على أنّ طالعه (صلى الله عليه وآله) المشتري والعطارد والزُّهرة والمريخ، وقالوا: إنّ نظر المشتري علامة العلم والحكمة

(١) منهاج البراعة: ٨٦/١.

(٢) أي بعث (صلى الله عليه وآله وسلم) حال ما كانت أمارات ظهوره مشهورة مع ذكاء...

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢٠٥/١.

(٤) بحار الأنوار، المجلسي: ٢٥٠-٢٤٩/١٥.

والفطنة والكياسة والرياسة له (صلى الله عليه وآله)، وإن نظر العطار د كان آية لطافته وظرافته وملاحظته وفصاحته وحلاوته (صلى الله عليه وآله)، وإن نظر الزهرة دليل صباحته وسروره وبشاشته وحسنه وطيبه وبهائه وجماله ودلاله (صلى الله عليه وآله)، وإن نظر المريخ علامة شجاعته وجلادته ومحاربه وقاتله وقهره وغلبته^(١) .

وأما تاريخ ولادته (صلى الله عليه وآله) فقد قال في الكافي، إنه:

(وُلِدَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً مَضَتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ فِي عَامِ الْفِيلِ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ، مَعَ الزَّوَالِ، وَرُويَ أَيْضًا عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَحَمَلَتْ بِهِ أُمُّهُ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ عِنْدَ الْجُمُرَةِ الْوُسْطَى، وَكَانَتْ فِي مَنْزِلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَوَلَدَتْهُ فِي شَعْبِ أَبِي طَالِبٍ فِي دَارِ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ، فِي الزَّوَايَةِ الْقُصُوى عَنِ يَسَارِكِ وَأَنْتَ دَاخِلُ الدَّارِ، وَقَدْ أَخْرَجَتْ الْخَيْزُرَانُ ذَلِكَ الْبَيْتَ فَصَيَّرْتَهُ مَسْجِدًا يُصَلِّي النَّاسُ فِيهِ)^(٢). انتهى كلامه رُفِعَ مقامه.

أقول^(٣): أمّا ما ذكره من كون تولده في ثاني عشر من شهر ربيع الأول فهو المشهور بين الجمهور، ولعلّه (ره) وافقهم على ذلك تقيّةً، ولبعض العامة قولٌ بكونه في ثامن ذلك الشهر، وقولٌ آخر بأنّه في عاشره^(٤)، وقولٌ شاذٌّ بكونه في شهر رمضان^(٥) .

(١) ينظر: مناقب آل أبي طالب: ١/ ١٢٠، بحار الأنوار، المجلسي: ١٥/ ٢٧٥.

(٢) الكافي: ١/ ٤٣٩.

(٣) القول للخوئي.

(٤) ينظر: العدد القويّة، المطهر الحلي: ١١١.

(٥) ينظر: الاستيعاب، ابن عبد البر: ١/ ٣٠، البداية والنهاية، ابن كثير: ٢/ ٣٢٠.

والمشهور في أخبارنا وبين أصحابنا؛ بل المدعى عليه إجماعنا في جملة من العبارة أن تولده (صلى الله عليه وآله) في السابع عشر^(١).

وأما ما ذكره من أن أمه حملت به في أيام التشريق عند الجمرة الوسطى يستلزم بقاءه في بطن أمه؛ إما ثلاثة أشهر أو سنة وثلاثة أشهر؛ مع أنه خلاف ما اتفق عليه أصحابنا من كون أقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثرها تسعة، ولم يقل أحدًا أيضًا بكون ذلك من خصائصه ولا وردت عليه رواية.

وأجاب عنه جمع من الأصحاب كالمجسبي^(٢) (ره) والمحدث الجزائري (ره) وغيرهما: (بأنه مبني على النسيء المراد بقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾^(٣)؛ وذلك أن المشركين كانوا يؤخرون موسم الحج؛ فمرة كانوا يُجُجُونَ في صفر، وأخرى في محرم، وهكذا تبعًا لاعتدال الوقت والهواء، وكان حجهم في سنة تولده في جمادى الآخرة)^(٤).

قال الجزائري: (ويؤيده ما رواه ابن طاووس في كتاب الإقبال أنه (صلى الله عليه وآله)، حملت به أمه في ثمان عشر مضت من جمادى الآخرة، ولما فتح النبي (صلى الله عليه وآله) مكة كان حجهم في شهر ذي الحجة، فقال الآن دار الزمان كما كان فلا يجوز لأحدٍ تغييره ولا تبديله)^(٥) انتهى.

وكيف كان فقد كان مولده على مذهب الشيعة اليوم السابع عشر من

(١) ينظر: المنفعة، المفيد: ٤٥٦، مصباح التهجد، الطوسي: ٧٩١.

(٢) ينظر: مرآة العقول، المجسبي: ١٧١/٥.

(٣) التوبة، الآية: ٣٧.

(٤) الأنوار النعمانية، نعمة الله الجزائري: ٢٦٢/١.

(٥) المصدر نفسه.

شهر ربيع الأول، وبعث للرسالة يوم السابع والعشرين من رجب، وله حينئذ أربعون سنة^(١)»^(٢).

رابعاً- مغنية:

قال: «(كريمًا)؛ مولده لأنه كان خيرًا على الإنسانية جمعاء، وإيدانًا بتحولها الخطير من الظلمات إلى النور، وليست الكرامة في نسبه فقط كما شرح الشارحون»^(٣).

خامساً- التستري:

قال: «(كريمًا ميلاده) (عن الصادق (عليه السلام):

(كَانَ إِبْلِيسُ يَخْتَرِقُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ، فَلَمَّا وُلِدَ عَيْسَى (عليه السلام) حُجِبَ عَنْ ثَلَاثِ سَمَاوَاتٍ، وَكَانَ يَخْتَرِقُ أَرْبَعَ سَمَاوَاتِ السَّبْعِ، فَلَمَّا وُلِدَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله) حُجِبَ عَنِ السَّبْعِ كُلِّهَا، وَرُمِيَتِ الشَّيَاطِينُ بِالنُّجُومِ، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: هَذَا قِيَامُ السَّاعَةِ، كُنَّا نَسْمَعُ أَهْلَ الْكُتُبِ يَذْكُرُونَهُ، وَقَالَ عَمْرُو ابْنُ أُمَيَّةَ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ: انظُرُوا هَذِهِ النُّجُومَ الَّتِي يُهْتَدَى بِهَا، وَيُعْرَفُ بِهَا أَزْمَانُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَإِنَّ كَانَ رُومِي بِهَا فَهُوَ هَالِكٌ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِنْ كَانَتْ ثَبَتَتْ وَرُومِي بِغَيْرِهَا فَهُوَ أَمْرٌ حَدَثَ.

وَأَصْبَحَتِ الْأَصْنَامُ كُلُّهَا صَبِيحَةً مَوْلِدِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله) لَيْسَ مِنْهَا صَنَمٌ إِلَّا وَهُوَ مُنْكَبٌّ عَلَى وَجْهِهِ، وَارْتَجَسَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِيوَانُ كِسْرَى،

(١) ينظر: المقنعة، المفيد: ٣٧١، جمل العلم والعمل، الشريف المرتضى: ٩٦، الاقتصاد، الطوسي: ٢٧٤.

(٢) منهاج البراعة: ٢/١٦٩-١٧١.

(٣) في ظلال نهج البلاغة: ١/٦٢.

وَسَقَطَتْ مِنْهُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ شُرْفَةً، وَغَاظَتْ بُحَيْرَةً سَاوَةً، وَفَاضَ وَادِي السَّهَاةِ،
 وَحَدَّتْ نِيرَانُ فَارِسَ وَلَمْ تَحْمُدْ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَلْفِ عَامٍ، وَرَأَى الْمُؤَبَّدَانِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ
 فِي الْمَنَامِ إِبْلَاءً صَعَابًا تَقْوُدُ خَيْلًا عَرَابًا، وَقَدْ قَطَعْتَ دِجْلَةَ وَانْسَرَبْتَ فِي بِلَادِهِمْ،
 وَانْفَصَمَ طَاقُ مُلْكِكَ كَسَرَى مِنْ وَسْطِهِ، وَانْحَرَقَتْ عَلَيْهِ دِجْلَةُ الْعَوْرَاءِ، وَانْتَشَرَ
 لِلْإِسْتِقْصَاءِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ نُورٌ مِنْ قِبَلِ الْحِجَازِ، ثُمَّ اسْتَطَالَ حَتَّى بَلَغَ الْمَشْرِقَ،
 فَلَمْ يَبْقَ سَرِيرٌ لِمَلِكٍ مِنْ مَلُوكِ الدُّنْيَا إِلَّا أَصْبَحَ مَنكُوسًا، وَالْمَلِكُ مُحْرَسًا لَا
 يَتَكَلَّمُ يَوْمَهُ ذَلِكَ، وَانْتَزَعَ عِلْمَ الْكَهَنَةِ، وَبَطَلَ سِحْرَ السَّحْرَةِ، وَلَمْ يَبْقَ كَاهِنَةٌ
 فِي الْعَرَبِ إِلَّا حُجِبَتْ عَنِ صَاحِبِهَا، وَعَظُمَتْ قُرَيْشُ فِي الْعَرَبِ، وَسُمُّوا آلَ
 اللَّهِ، إِلَى أَنْ، قَالَ (وَقَالَتْ آمَنَةٌ: إِنَّ ابْنِي وَاللَّهِ سَقَطَ فَاتَّقَى الْأَرْضَ بِيَدِهِ، ثُمَّ رَفَعَ
 رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ خَرَجَ مِنِّي نُورٌ أَضَاءَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَسَمِعْتُ
 فِي الضُّوءِ^(١) قَائِلًا يَقُولُ: إِنَّكَ قَدْ وُلِدْتَ سَيِّدَ النَّاسِ فَسَمِّهِ مُحَمَّدًا وَأْتِ بِهِ عَبْدَ
 الْمَطْلَبِ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَقَدْ بَلَغَهُ مَا قَالَتْ أُمُّهُ، فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ، ثُمَّ، قَالَ:

هَذَا الْغُلَامَ الطَّيِّبَ الْأَرْدَانِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَانِي

قَدْ سَادَ فِي الْمَهْدِ عَلَى الْغِلْمَانِ

ثُمَّ عَوَّذَهُ بِأَرْكَانِ الْكَعْبَةِ، وَقَالَ فِيهِ أَشْعَارًا)، قَالَ^(٢):

(وَصَاحَ إِبْلِيسُ فِي أَبَالِسْتِهِ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا: مَا الَّذِي أَفْزَعَكَ يَا
 سَيِّدَنَا؟، فَقَالَ لَهُمْ: وَيَلَكُمْ لَقَدْ أَنْكَرْتُ السَّيِّئَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْذُ اللَّيْلَةِ، لَقَدْ
 حَدَّثَ فِي الْأَرْضِ حَدْثٌ عَظِيمٌ مَا حَدَّثَ مِثْلَهُ مِنْذُ وُلْدِ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ،

(١) «الضوء» هكذا في بهج الصباغة ولكن باتفاق المصادر «الضوء».

(٢) أبو عبد الله الصادق (عليه السلام).

فاخْرُجُوا فَانظُرُوا مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي قَدْ حَدَّثَ.

فَأَفْتَرَقُوا ثُمَّ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا: مَا وَجَدْنَا شَيْئًا، فَقَالَ إِبْلِيسُ: أَنَا هَذَا الْأَمْرُ، ثُمَّ أَنْغَمَسَ فِي الدُّنْيَا فَجَاهَلَهَا حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْحَرَمِ، فَوَجَدَ (الْحَرَمَ) مَحْفُوظًا بِالْمَلَائِكَةِ، فَذَهَبَ لِيَدْخُلَ فَصَاحُوا بِهِ، فَرَجَعَ ثُمَّ صَارَ مِثْلَ الصَّرِّ وَهُوَ الْعُصْفُورُ، فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ حِرَاءَ، فَقَالَ لَهُ جَبْرَائِيلُ: وَرَاكَ^(١) لَعَنَكَ اللَّهُ، فَقَالَ لَهُ: حَرْفٌ أَسْأَلُكَ عَنْهُ يَا جَبْرَائِيلُ؛ مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي حَدَّثَ مُنْذُ اللَّيْلَةِ؟ فَقَالَ لَهُ: وَوَلِدُ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، فَقَالَ لَهُ: هَلْ لِي فِيهِ نَصِيبٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَفِي أُمَّتِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: رَضِيتُ^(٢)»^(٣).

سادسًا- النقيوي:

قال (رحمه الله): «قوله (عليه السلام): (كريمًا ميلادُهُ)؛ الكريم على وزن فعيل صفة مُشَبَّهة بمعنى ذو الكرم، قال في المنجد: وهو من الأسماء الحسنى، يقال: رجل كريم جمع كرام وكرماء، ويُطلق الكريم من كل شيء على أحسنه، وعلى كل ما يُرضى ويُحمَدُ في بابه^(٤).

وقال الراغب في مفرداته: الكرم إذا وُصفَ اللهُ تعالى به فهو اسم لإحسانه وأنعامه المتظاهرة المتظاهرة؛ نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ﴾^(٥)، وإذا

(١) (ما وراك) ورد هكذا في: روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ٦٦، مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ٣١/١.

(٢) الأُمالي، الصدوق: ٣٦١-٣٦٢، روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ٦٥-٦٦.

(٣) بهج الصباغة: ١٣١/٢-١٣٢.

(٤) المنجد في اللغة، لويس معلوف: ٦٨٢.

(٥) النمل، الآية: ٤٠. ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ هكذا عند الراغب الأصفهاني في كتابيه: (مفردات ألفاظ القرآن) و(المفردات في غريب القرآن).

وُصِفَ به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه^(١). انتهى.

و(الميلاد) على [وزن] مِفْعَال: وقت الولادة؛ فعلى هذا يكون المعنى أن وقت ولادته كان كَرِيماً، أي حَسَنًا، ونحن قبل الخوض في إثبات حُسن وقت ولادته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) من جهاتٍ شَتَّى سَيَأْتِي إن شاء الله، نُقَدِّمُ تاريخَ ولادته، وكيفية ولادته، وسائر ما يتعلَّق بها حتى يتضح الحال وينكشف المرام.

وُلِدَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) في سابع عشر شهر ربيع الأول على المشهور بين الإمامية^(٢)؛ وذهب أكثر المخالفين إلى أنها كانت في الثاني عشر منه^(٣)، واختاره الكليني (قده) منّا إما اختياراً، أو تقيّة^(٤)، وذهب قليل من المخالفين إلى أنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) وُلِدَ في شهر رمضان^(٥)، وآخرون إلى أنها كانت في ثامن ربيع الأول^(٦).

وأما يوم الولادة: فالمشهور بين الإمامية أنه كان يوم الجمعة^(٧)، وعند المخالفين أنه يوم الاثنين^(٨)، ثم الأشهر بيننا وبينهم أنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) وُلِدَ بعد طلوع الفجر وقيل عند الزوال، وذكر المؤرِّخون وأرباب السير

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ٤٢٨، مادة (كرم)، مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني: ٧٠٧، مادة (كرم).

(٢) ينظر: المنفعة: ٤٥٦، مصباح المتهدّد: ٧٩١، إقبال الأعمال، ابن طاووس: ٣/١٢٢.

(٣) ينظر: الكامل في التاريخ: ١/٤٥٨، تفسير القرطبي: ٢٠/١٩٤.

(٤) ينظر: الكافي: ١/٤٣٩.

(٥) ينظر: الاستيعاب، ابن عبد البر: ١/٣٠، البداية والنهاية: ٢/٣٢٠.

(٦) ينظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي: ٢/٢٤٦، البداية والنهاية: ٢/٣٢٠.

(٧) ينظر: مسار الشيعة في مختصر تواريخ الشريعة، المفيد: ٥٠، مصباح المتهدّد: ٧٩١.

(٨) ينظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: ٢/٢٤٦، الكامل في التاريخ: ١/٤٥٨.

أنه كان في ساعة الولادة غفر من منازل القمر طالعا، وكان اليوم موافقا للعشرين أو للثامن والعشرين أو الغرة من شهر نيسان الرومي والسابع عشر من (دي ماه) بحساب الفرس، وكانت في عهد كسرى أنوشيروان بعد مضيّ اثنين وأربعين من ملكه، وبعد مضيّ اثنين وثمانين وثمانائة من وفاة إسكندر الرومي، وقيل بعد مضيّ ثمانية وأربعين من ملك كسرى، وكانت ولادته (صلّى الله عليه وآله) في عام الفيل بعد مضيّ خمسة وخمسين أو أربعين يوماً من الواقعة، وقيل في يوم الواقعة، وقيل بعد ثلاثين سنة منها، وقيل بعد أربعين منها، والأصح أنها كانت في تلك العام، وقال أبو معشر البلخي من المنجمين: إنه كان طالع ولادته (صلّى الله عليه وآله) الدرجة العشرين من الجدي، وكان الزحل والمشتري في العقرب والمريخ في بيته في الحمل، والشمس في الحمل في الشرف، والزهرة في الحوت والشرف والعطارد أيضاً في الحوت، والقمر في أول الميزان، والرأس في الجوزاء، والذنب في القوس^(١).

وقعت ولادته (صلّى الله عليه وآله) في الدار المعروف بدار محمد بن يوسف^(٢)، وكان للنبي فوهبه لعقيل بن أبي طالب، فباعه أولاد محمد بن يوسف أخي الحجاج، فأدخله في داره، فلما كان زمن هارون أخذته خيزران أمه فأخرجته وجعلته مسجداً، وهو الآن معروف يُزار ويُصلّى فيه^(٣).

(١) بحار الأنوار: ٢٤٩/١٥ - ٢٥٠.

(٢) محمد بن يوسف الثقفي: وهو أخو الحجاج الثقفي، تولى الإمارة في اليمن في عهد عبد الملك بن مروان وبعده، وهو الذي أمر بسب الإمام عليّ (عليه السلام) على المنابر في اليمن، وتوفي عام ١٠٠ للهجرة أو قبل ذلك. (ينظر: الوافي بالوفيات، الصفدي:

١٥٨-١٥٩)

(٣) ينظر: الكافي: ٤٣٩/١، مناقب آل أبي طالب: ١٤٩/١.

ونُقل عن كتاب أسماء حجج الله تعالى: أنّه (صلى الله عليه وآله) وُلِدَ في ليلة السابع عشر من شهر ربيع الأوّل في عام الفيل^(١)، وقيل: وُلِدَ (عليه السلام) (عند طلوع الفجر من يوم الجمعة السابع عشر من ربيع الأوّل بعد خمسة وخمسين يومًا من هلاك أصحاب الفيل)^(٢)، وقال بعض العامّة: يوم الاثنين الثامن أو العاشر من ربيع الأوّل لسبع بقين من مُلك أنوشيروان، ويُقال: في ملك هرمز ابن أنوشيروان^(٣)، وذكر الطبري:

إنّ مولده كان لاثنين وأربعين سنة من ملك انوشيروان^(٤)، ووافق شهر الروم العشرين من شباط، ونُقل عن كتاب مواليد الأئمّة (أنّه وُلِدَ لثلاث عشرة بقيت من شهر ربيع الأوّل في عام الفيل يوم الجمعة مع الزوال، وروي عند طلوع الفجر قبل المبعث بأربعين سنة، وحملت به أمّه في أيام التشريق عند الجمرة الوسطى، وكانت في منزل عبد الله ابن عبد المطلب، وولده في شُعب أبي طالب في دار محمّد بن يوسف في الزاوية القصوى)^(٥).

وقيل غير ذلك، وقد أطال المؤرّخون وأربابُ السير الكلامَ في ولادته، ونقلوا الأقوال المختلفة فيها، والمشهور ما ذكرناه.

نَسَبُ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله وسلّم) من أبيه: هو محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب (اسمه شيبية الحمد) ابن هاشم (اسمه عمرو) ابن عبد مناف

(١) العدد القويّة: ١١٠، بحار الأنوار: ٢٥٠ / ١٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٤٩، الدرّ النظيم: ٥٨.

(٣) ينظر: الأخبار الطوال، أبو حنيفة الدينوري: ٧٤.

(٤) ينظر: تاريخ الطبري: ١ / ٥٧١.

(٥) العدد القويّة: ١١١، بحار الأنوار: ٢٥٠ / ١٥.

(واسمه المغيرة ابن قُصي) اسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر (وهو قريش سُمي بالنضر لأن الله تعالى اختاره) ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس النبي بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان^(١).

روي عنه (صلى الله عليه وآله) أنه، قال: (إِذَا بَلَغَ نَسَبِي إِلَى عَدْنَانَ فَأَمْسِكُوا)^(٢).

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئَنِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعْتَنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعِ^(٣)

وقال الشاعر في آبائه (صلى الله عليه وآله):

هُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ نَجْلُ الشَّيْبَةِ	هُوَ ابْنُ هَاشِمٍ بَدْوَنَ الرَّيْبَةِ
عَبْدُ مَنْافٍ جَدُّهُ نَجْلُ قُصَيِّ	ابْنُ كِلَابٍ مُرَّةٌ كَعْبُ لُؤَيِّ
هُوَ ابْنُ مُضَرَ نِزَارِ مَعْدٍ	هُوَ ابْنُ عَدْنَانَ وَفِي الْعَهْدِ
هُوَ ابْنُ أَدَدٍ هُوَ ابْنُ الْيَسَعِ	ابْنُ سَلَامَانَ مِنَ الْهَمِيسَعِ
هُوَ ابْنُ غَالِبٍ هُوَ ابْنُ فَهْرٍ	هُوَ ابْنُ مَالِكٍ هُوَ ابْنُ النَّضْرِ
هُوَ ابْنُ قَيْدَارِ ابْنِ إِسْمَاعِيلِ	هُوَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَنَا الْخَلِيلِ
ابْنُ كِنَانَةَ ابْنِ أَنْجَبِ النَّاسِ	خُذَيْمَةٌ مُدْرَكَةٌ وَإِلْيَاسُ
أُولَئِكَ الْأَطَائِبُ الْكِرَامُ	لَأَدَمٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

وقال أصحاب التواريخ: إن عدنان هو أد بن أدد بن اليسع بن الهميسع

(١) ينظر: المعارف، ابن قتيبة: ١١، تاريخ يعقوبي: ١١٨/٢، أسد الغابة، ابن الأثير: ١٣/١.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ١/١٣٤، بحار الأنوار: ١٥/١٠٥.

(٣) البيت للفرزدق وهو في ديوانه/ ٣٦٠.

بن سلامان بن نبت بن حمل ابن قيدار ابن إسماعيل.

وقال ابن عباس: عدنان بن أد بن أدد بن اليسع بن الهميسع، ويُقال: ابن يامين بن يمشب بن صخر^(١) بن صابوغ بن الهميسع بن نبت بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارح^(٢) بن ناخور بن سروغ^(٣) بن ارغو وهو هود، ويُقال: رقانع بن غابر^(٤) وهو هود بن أرفخشذ بن متوشلخ ابن سام ابن نوح ابن أمك ابن أخنوخ^(٥) وهو إدريس بن مهلائيل ابن زيايرز^(٦) رز ابن متينان ابن انوش، ويقال ميانان ابن أدد بن أنوش ابن شيث وهو هبة الله ابن آدم (عليهم السلام).

وأما نسبه (صلى الله عليه وآله) من جانب أمه، فأمه (صلى الله عليه وآله) وأمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، إلى آخر النسب، فرسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمنة أمه يجتمعان في النسب إذا بلغا إلى الكلاب إلى آخر النسب، كما لا يخفى، فنسبه ونسبها صلوات الله عليهما يصل إلى آدم أبي البشر بتسعة وأربعين أباً^(٧).

(١) (ناحور بن ساروغ) هكذا في: أعلام الوري، الطبرسي: ٤٤ / ١، (يشخب بن منحر) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١٣٥ / ١.

(٢) (تارح) هكذا في: أعلام الوري: ٤٤ / ١، مناقب آل أبي طالب: ١٣٥ / ١.

(٣) (ناحور بن ساروغ) هكذا في: أعلام الوري: ٤٤ / ١، (شروغ) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١٣٥ / ١.

(٤) (رقالغ بن عابر) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١٣٥ / ١.

(٥) (بن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ) هكذا في: أعلام الوري: ٤٤ / ١، (ملك بن أخنوخ) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١٣٥ / ١.

(٦) (قيل مهائل بن زياد) هكذا في: مناقب آل أبي طالب: ١٣٥ / ١.

(٧) ينظر: أعلام الوري: ٤٤-٤٥، مناقب آل أبي طالب: ١٣٥ / ١.

وقال ابن هشام في سيرته ما هذا لفظه: (محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب، (شيبه)، ابن هاشم (عمرو بن عبد مناف)؛ واسم عبد مناف: المغيرة ابن قُصي؛ واسم قُصي زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة (اسمه قيس ابن خزيمة ابن مدركة واسم مدركة عامر) ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد ويقال: أدد، وذهب بعضهم أن أد هو ابن أد مؤلف^(١)، ابن مقوم بن ناحور بن يترح^(٢) بن يعرب بن يشجب بن ثابت^(٣) بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارخ وهو آذر^(٤) بن ناحور بن ساروغ بن راعوا بن فالخ بن عبير بن شالغ بن ارفخشذ^(٥) بن سام بن نوح بن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ؛ وهو إدريس النبي فيما يزعمون والله أعلم، وكان أول بني آدم أُعطي النبوة وخط بالقلم ابن يرد بن مهائل (مهليل) ابن قين بن يانش بن شيث بن آدم صلى الله عليه وآله وسلم^(٦). انتهى.

ثم نقل عن بعض: أن إسماعيل بن إبراهيم تارخ؛ وهو آذر بن ناحور^(٧) بن اسرغ بن ارغوا^(٨) بن فالخ بن عابر بن شالغ بن ارفخشذ بن سام بن نوح بن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قاين بن

(١) (وذهب بعضهم أن أد هو ابن أد مؤلف) هذا الكلام لم يرد في أصل المصدر.

(٢) (تيرح) هكذا في: السيرة النبوية، ابن هشام: ١ / ١.

(٣) (نابت) هكذا في: السيرة النبوية، ابن هشام: ١ / ١.

(٤) (بن تارح، وهو آزر) هكذا في: السيرة النبوية: ١ / ١.

(٥) (أرفخشذ) هكذا في: السيرة النبوية: ١ / ١.

(٦) ينظر: السيرة النبوية: ١ / ١.

(٧) (ابن تارح، وهو آزر، بن ناحور) هكذا في: السيرة النبوية: ٢ / ١.

(٨) (أرعو) هكذا في: السيرة النبوية: ٢ / ١.

الفرشق^(١) شيث بن آدم (عليه السلام)^(٢).

أقول: وأنت ترى أنّ الاختلاف الواقع بينهم في أجداده (صلى الله عليه وآله)، إنّما هو بعد عدنان، ولعلّ الرسول (صلى الله عليه وآله) لهذه الجهة، قال: (إِذَا بَلَغَ نَسَبِي إِلَى عَدْنَانَ فَأَمْسِكُوا)^(٣).

وأما نسبه (صلى الله عليه وآله) من طرف الأمّ إلى كلاب بن مُرّة، فلا خلاف فيه أصلاً.

هذا كيفية ولادته (صلى الله عليه وآله) وما وقع فيها.

(روي أنّه تُصوّر لعبد المطلب أنّ ذبح الولد أفضل قرابة، لما علم من حال إسماعيل (عليه السلام)؛ فنذر أنّه متى رُزق عشرة أولاد ذكور أن ينحر أحدهم للكعبة شكراً لربه، فلما وجدهم عشرة قال لهم: يا بنيّ ما تقولون في نذري؟ فقالوا: الأمر إليك، ونحن بين يديك، فقال: لينطلق كلّ واحدٍ منكم إلى قَدحه وليكتب عليه اسمه، ففعلوا وأتوه بالقِداح، فأخذها، وقال:

عاهدتهُ والآن أوفي عهدهُ
نذرتُ نذراً لا أحبُّ ردهُ
إذ كان مولايَ وكنْتُ عبدهُ
ولا أحبُّ أن أعيشَ بعدهُ

فقدّمهم^(٤) ثمّ تعلّق بأستار الكعبة ونادى: اللهم ربّ البلد الحرام

(١) (أنوش) هكذا في: السيرة النبويّة: ٢ / ١.

(٢) ينظر: السيرة النبويّة: ٢ / ١.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٣٤.

(٤) (فقدحهم) هكذا في مناقب آل أبي طالب: ٢١ / ١.

والركن والمقام وربّ المشاعر العظام والملائكة الكرام، اللهم أنت خلقت الخلق لطاعتك وأمرتهم بعبادتك لا حاجة منك في الكلام له، ثم أمر بضرب القداح، وقال: اللهم إليك أسلمتهم ولك أعطيتهم فخذ من أحببت منهم فيني راضٍ بما حكمت وهب لي أصغرهم سنًا فإنه أضعفهم ركنًا ثم أنشأ، يقول:

يا ربّ لا تخرج عليه قدحي
واجعل له واقيةً من ذبحي
فخرج السهم على عبد الله، فأخذ الشفرة وأتى عبد الله حتى أضجعه في الكعبة، وقال:

هذا بُنيّ قد أريد نحره
والله لا يقدر شيءٌ قدره
فإن يؤخره يقبل عذره

وهمّ بذبحه فأمسك أبو طالب يده، وقال:

كلّا وربّ البيت ذي الأنصاب
ما ذبح عبد الله بالتلعاب^(١)
ثم، قال: اللهم اجعلني فديته وهب لي ذبحة، ثم قال:

خذها إليك هديّة يا خالقي
رُوحِي وَأَنْتَ مَلِيكُ هَذَا الْخَافِقِ^(٢)
وعاونه أخواله من بني مخزوم، وقال بعضهم:

يا عجبًا من فعل عبد المطلب
وذبحه ابنه كتمثال الذهب

فأشاروا إليه بكاهنة بني سعد، فخرج في ثمانمائة رجل، وهو يقول:

(١) ورد الشطر الثاني في الديوان هكذا: (مَا قَتَلَ عَبْدَ اللَّهِ بِاللُّعَابِ) ديوان أبي طالب: ٣٣٠.
(٢) لم أعثر عليه في ديوان أبي طالب.

وَلَمْ أَسْتَطِعْ مِمَّا تَجَلَّلَنِي دَفْعًا
وَمَا لَلْفَتَى مِمَّا قَضَى رَبُّهُ مَنَعًا
أَقْرَبُ مِنْهُمْ وَاحِدًا مَا لَهُ رَجْعًا
أَيُّ بِيَدِكَ النَّذْرِ تَارَ لَهُ جَمْعًا
سَأْرُضِيهِ مَشْكُورًا لِيُبَسِّنِي نَفْعًا

تَعَاوَرَ بِي^(١) أَمْرٌ فَضِيقْتُ بِهِ ذَرْعًا
نَذَرْتُ وَنَذَرْتُ الْمَرْءَ دَيْنٌ مُلَازِمٌ
وَعَاهَدْتُهُ عَشْرًا إِذَا مَا تَكَمَّلُوا
فَأَكْمَلُهُمْ عَشْرًا فَلَمَّا هَمَمْتُ أَنْ
يَصُدُونَنِي عَنِ أَمْرِ رَبِّي وَإِنِّي
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهَا، قَالَ:

إِنْ شِئْتَ أَهَمَّتَ الصَّوَابَ وَالرَّشْدَ

يَا رَبِّ إِنِّي فَاعِلٌ لِمَا تُرِيدُ^(٢)

فقالت: كم دية الرجل عندكم؟ قالوا: عشرة من الإبل، قالت: وأخرجوا^(٣) على الغلام وعلى الإبل القِداح؛ فإن خرج القِداحُ على الإبل فانحروها وإن خرج عليه فزيدوا في الإبل عشرة عشرة حتى يرضى ربكم، وكانوا يضربون القِداح على عبد الله وعلى عشرة فيخرج السهم على عبد الله، إلى أن جعلها مائةً وضرب فخرج القِداح على الإبل فكبر عبد المطلب وكبرت قريش ووقع عبد المطلب مغشياً عليه، وتوالت بنو مخزوم وحملوه على أكتافهم فلما أفاق من غشيته قالوا: قد قبل الله منك فداً ولذك، فبينما هم كذلك فإذا بهاتف يهتف في داخل البيت وهو يقول: قبل الفداء ونفذ القضاء وأن ظهور محمد المصطفى (صلى الله عليه وآله)، فقال عبد المطلب: القِداح تُخطي وتُصيب حتى أضرب ثلاثاً، فلما ضربها خرج على الإبل، فارتجز يقول:

(١) (تغادري) هكذا في مناقب آل أبي طالب: ٢٢ / ١.

(٢) (تود) هكذا في مناقب آل أبي طالب: ٢٢ / ١.

(٣) (واضربوا) هكذا في مناقب آل أبي طالب: ٢٢ / ١.

دَعَوْتُ رَبِّي مُخْلِصًا وَجَهْرًا يَا رَبِّ لَا تَنْحَرُ بُنْيَّ نَحْرًا

فَنَحَرَهَا كُلَّهَا فَجَرَتْ السُّنَّةَ فِي الدِّيَةِ بِمَاءَةٍ مِنَ الْإِبِلِ^(١).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أَنَا ابْنُ الذَّبِيحِينَ)^(٢).

(فلما فرغ عبد المطلب من الإبل، انصرف بابنه عبد الله وهو آخذٌ بيده، فمرَّ على أمِّ قتالِ نوفل بن أسدِ أختِ ورقة بن نوفل وهي عند البيت، فقالت له حين نظرت إليه وإلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ فقال: مع أبي، واسمها فاطمة، وقد قرأت الكتب، وقالت له أيضًا أنت: الذي فداك أبوك بمائةٍ من الإبل؟ قال: نعم، فقالت: هل لك أن تقع عليّ مرّةً وأعطيك من الإبل مائةً، فنظر إليها وأنشأ:

أَمَّا الْحَرَامُ فَأَمَمَاتُ دُونَهُ وَالْحِلُّ لَا حِلُّ فَاَسْتَبِيْنَهُ
فَكَيْفَ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَبْغِيْنَهُ يَحْمِي الْكَرِيْمُ عَرْضَهُ وَدِيْنَهُ

ومضى مع أبيه فزوجه أمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فأقام عندها يومًا و ليلةً وقيل ثلاثًا، فحملت بالنبي (صلى الله عليه وآله)، ثم انصرف عبد الله فمرَّ بها ثانيًا، فقال لها: عند ذلك مختبرًا: هل لك فيما قلت لي؟ فقالت: يا فتى ما أنا بصاحبة ربية ولكنني رأيت في وجهك نورًا فأردت أن يكون لي، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد فما صنعت بعدي؟ قال عبد الله: زوجني أبي أمنة بنت وهب، قالت فاطمة بنت مرّ في هذا:

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢١-٢٣.

(٢) الخصال: ٥٥.

فَتَأَلَّاتِ بِحَنَاتِمِ الْقَطْرِ
مَا حَوْلَهُ كإِضَاءَةِ الْبَدْرِ
وَقَعَتْ بِهِ وَعِمَارَةَ الْفَقْرِ
مَا كُلُّ قَادِحِ زَنْدِهِ يُورِي
مِنْكَ الَّذِي سَلَبَتْ وَمَا تَدْرِي

إِنِّي رَأَيْتُ مَخِيلَةً لَمَعَتْ
فَسَمَا بِهَا نُورٌ يُضِيءُ بِهِ
وَرَأَيْتُ سُقْيَاهَا حَيَا بَلَدِ
فَرَجَوْتُهُ فَخَرًّا أَبْوءُ بِهِ
لِلَّهِ مَا زُهْرِيَّةٌ سَلَبَتْ

وقالت أيضًا:

أَمِينَةٌ إِذِ اللَّبَاهِ يَغْتَلِجَانِ
فَتَائِلَ قَدْ بُلَّتْ لَهُ بِدِهَانِ
لِعَزْمٍ وَلَا مَا فَاتَهُ لِتَوَانِ
سَيَكْفِيكَهُ جَدَّانِ يَغْتَلِجَانِ
حَوَتْ مِنْهُ فَخْرًا مَا لِذَلِكَ ثَانِ^(١)

بَنِي هَاشِمٍ قَدْ غَادَرَتْ مِنْ أَحْيِكُمْ
كَمَا غَادَرَ الْمِصْبَاحَ عِنْدَ حُمُودِهِ
وَمَا كُلُّ مَا يَحْوِي الْفَتَى مِنْ مَلَاذِهِ
فَأَجْمَلُ إِذَا طَالَبْتَ أَمْرًا فَإِنَّهُ
وَمَا حَوَتْ مِنْهُ أَمِينَةٌ مَا حَوَتْ

ثم أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمرًا فمات بالمدينة، وقيل بل كان بالشام، فأقبل في عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها ودُفن في دار النابغة الجعدي، وله خمس وعشرون أو ثمان وعشرون سنة^(٢)، وأمنة حاملة برسول (صلى الله عليه وآله)^(٣).

(فلما وضعت أمه (صلى الله عليه وآله) أرسلت إلى جدّه عبد المطلب أنّه قد وُلِدَ لَكَ غَلامٌ فَاتِهِ فَانظُرْ إِلَيْهِ، فَأَتَاهُ فَانظَرَ إِلَيْهِ وَحَدَّثَتْهُ بِمَا رَأَتْ حِينَ حَمَلَتْ

(١) ينظر: تاريخ الطبري: ٢/٦-٧.

(٢) الكامل في التاريخ: ١٠/٢.

(٣) ينظر: البداية والنهاية: ٢/٣٢٣.

به، وما قيل لها فيه وما أمرت به أن تُسمّيه، فأخذه عبد المطلب ودخل به الكعبة، فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه، ثم خرج به إلى أمّه فدفعه إليها والتمس لرسول الله (صلى الله عليه وآله) الرضعاء؛ فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها حليلة ابنة أبي ذؤيب، وأبو ذؤيب هو عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناحرة بن فصية بن نصر بن سعد بن بكر هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان، واسم أبيه الذي أرضعه (صلى الله عليه وآله) الحارث بن عبد العزي بن رفاة بن ملآن بن ناصرة بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن وقيل هلال بن ناصرة وإخوته من الرضاعة عبد الله بن الحارث، وإنسية بن الحارث وخذافة بنت الحارث، وهم لحليمة بنت أبي ذؤيب.

ويذكرون أن الشيماء كانت تحضنه مع أمّها إذا كان عندهم وكانت حليلة تُحدّث أنّها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير اسمه عبد الله تُرضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء لم يُبق لنا شيئاً، قالت: فخرجتُ على أتان لي قمراء، معنا شارفٌ لنا والله ما تبضُّ بقطرةٍ وما ننام ليلنا أجمع من صبيّنا الذي معنا من بكائه من الجوع؛ ما في ثديي ما يُغنيه وما في شارفنا ما يُغذيّه، ولكنّا كنّا نرجو الغيثَ والفرجَ، فخرجتُ على أتاني تلك فقد أدمت بالركب حتى شقّ ذلك عليهم ضعفاء وعجفا حتى قدّمتُ مكة التمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله (صلى الله عليه وآله) فتأباه إذا قيل لها أنّه يتيّم؛ وذلك أنّنا نرجوا المعروفَ من أب الصبيّ فكُنّا نقول:

يتيم! وما عسى أن تضع أمه وجدّه؟ فكُنّا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلمّا أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إنّي لأكرهه أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم فلاخُذّته، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركةً، قالت: فذهبتُ إليه فأخذته؛ وما حملني على أخذه إلا أنّي لم أجد غيره، قالت: فلمّا أخذته رجعتُ به إلى رحلي فلمّا وضعته في حجرِي أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبنٍ، فشرب حتّى روي وشرب معه أخوه حتّى روي، ثمّ ناما وما كُنّا ننام معه قبل ذلك.

وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنّها لحافل؛ فحلب منها ما شرب وشربتُ معه، حتّى انتهينا ربيّاً وشبعاً فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي: حين أصبحنا تعلمي والله يا حلّيمة لقد أخذت نسمةً مباركةً، قالت: فقلتُ: والله إنّي لأرجو ذلك، قالت: ثمّ خرجنا وركبتُ أنا أتاني وحملته عليها معي فوالله تبارك لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيءٌ من حُرهم حتّى أنّ صواحيبي ليقلن لي:

يا بنت أبي ذؤيب ويحك أربعي علينا، أليست هذه أتانك الذي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهُنّ: بلى والله إنّها لهي، فيقلن: والله إنّ لها لشأناً، قلتُ: ثمّ نزلنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب بها (منها)، فكانت غنمي تررع عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع، حتّى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي

بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياغاً ما تبصُّ لبناً، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزل نتعرّف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشبُّ شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً.

قالت: فقدّمنا به على أمّه ونحن أحرصُّ شيءٍ على مكثه فينا؛ لما كُنّا نرى من بركته، فكلّمنا أمّه وقلّت لها: لو تركت بُني عندي حتى يغلظ فيني أخشى عليه وباء مَكّة، قالت: فلم نزل بها حتى ردّته معنا، قالت: فرجعنا به فوالله إنّه بعد مقدّمنا به بأشهرٍ مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتدّ، فقال لي ولأبيه: ذلك أخي القرشيّ قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيض فأضجعا فشقّا بطنه فهما يسوطانه.

قالت: فخرجتُ أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه، قالت: فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له: ما لك يا بُني، قال: جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيض فأضجعا وشقّا بطني، فالتَمَسا فيه شيئاً لا أدري ما هو، قالت: فرجعنا به إلى خبائنا، قالت: وقال لي أبوه: يا حلّيمة لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به.

قالت: فاحتملناه وقدمنا به على أمّه فقالت: ما أقدمك به يا ظئر وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مكثه عندك! قلت: قد بلغ الله بابني وقضيتُ الذي عليّ وتخوّفتُ الأحداث عليه فأدّيته إليك كما تُحبّين، قالت: ما هذا شأنك فأصدقيني خبرك، قالت: فلم تدعني حتى أخبرتها، قالت: أفتخوّفت عليه الشيطان؟ قالت: قلتُ: نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإنّ لبني لشأنًا أفلا أخبرك خبره؟ قلتُ: بلى، قالت: رأيتُ حين حملتُ به

أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملتُ به فوالله ما رأيتُ من حَمَلٍ قطَّ كان أخفَّ عَيِّي ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وأنه لو أضعُ يديه على الأرض رافعُ رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلقني راشدة^(١) انتهى.

ثم، قال في السيرة: (وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع أمه آمنة بنت وهب وجدّه عبد المطلب ابن هاشم في كَلَاة الله وحِفظِ يُنبته الله نباتًا حسنًا لما يُريد به من كرامته، فلما بلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ست سنين تُوفيتُ أمه آمنة بنت وهب بالأبواء منصرفه إلى مكة بين مكة ومدينة ورسول الله ابن ست سنين، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع جدّه عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يأتي وهو غلام صغير حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذ رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لَشَانًا، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسرّه^(٢) ما يراه يصنع^(٣)).

وفاة عبد المطلب:

فلما بلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثماني سنين، توفي عبد المطلب بن هاشم وذلك بعد عام الفيل بثماني سنين، ولما حضرته الوفاة وعرف

(١) ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام: ١٠٤-١٠٧.

(٢) (يسرد ما يراه) هكذا في: السيرة النبوية: ١٠٩/١.

(٣) ينظر: السيرة النبوية: ١٠٩/١.

أنه ميّت، جمع بناته وكنّ ستّ نسوة: صفيّة، وبردة، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء، وأميمة، وأروى، وقال هُزنّ: ابكين عليّ حتى أسمع ما تقلنّ قبل أن أموت، فقالت صفيّة بنت عبد المطلب تبكي أباهما:

أرقتُ لصوتِ نائحتِ بليلٍ	على رجلٍ بقارعة الصّعيدِ
ففاضتُ عندَ ذلكمُ دموعي	على خدي كمنحدرِ الفريدِ
على رجلٍ كريمٍ غيرِ وغلٍ	له الفضلُ المبينُ على العبيدِ
على الفيّاضِ شبيّةِ ذي المعالي	أبيك الخيرِ وارثِ كلِّ جودِ
صدوقٍ في المواطنِ غيرِ نكسٍ	ولا شختِ المقامِ ولا سنيدِ
طويلِ الباعِ أزوعٍ شنطمي ^(١)	مطاعٍ في عشيرته حميدِ
رفيعِ البيتِ أبلجِ ذي فضولٍ	وغنيتِ الناسِ في زمنِ الحرودِ
كريمِ الجدِّ ليسِ بذِي وُصومٍ	يروقُ على المسودِّ والمسودِ
عظيمِ الحلمِ من نَفَرِ كرامٍ	خضارمتِ مَلاوثتِ أسودِ
فلو خلدَ امرؤٌ لقديمِ مجدٍ	ولكنّ لا سبيلَ إلى الخلودِ
لكانَ مخلدًا أخرى اللّيايِ	لفضلِ المجدِ والحسبِ التليدِ

وقالت سائر بناته أيضًا نظير هذه الأشعار، راجع سيرة ابن هشام.

فلما توفّي عبد المطلب كان رسول الله مع عمّه أبي طالب، وكان ذلك بوصيّة من عبد المطلب إلى أبي طالب؛ وذلك لأنّ عبد الله أبا رسول الله وأبا طالب أخوان لأبٍ وأمٍّ؛ أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم^(٢).

(١) (شيظمي) هكذا في: السيرة النبويّة: ١ / ١١٠.

(٢) للمزيد من التفصيل ينظر: السيرة النبويّة، ابن هشام: ١ / ١٠٩-١١٦.

وقد ذكرنا كيفية خروجه (صلى الله عليه وآله) مع عمّه إلى الشام وما جرى بينه وبين البحيراء الراهب وسائر ما وقع من كرامته (صلى الله عليه وآله) عند شرح قوله (عليه السلام): (مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ) فراجع (١).

وَلِنَذْكُرَ بَعْضَ صِفَاتِهِ (صلى الله عليه وآله) تَيَمُّنًا وَتَبَرُّكًا بِهِ، فنقول:

أَمَّا جُودُهُ وَسَخَائِهِ (صلى الله عليه وآله)، فقد رُوِيَ عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، قال:

(كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) أَجْوَدَ النَّاسِ كَفًّا، وَأَكْرَمَهُمْ عِشْرَةً، مَنْ خَالَطَهُ فَعَرَفَهُ أَحَبَّهُ) (٢).

وعنه (عليه السلام) كان إذا وصف رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال:

كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ كَفًّا وَأَجْرًا النَّاسِ صَدْرًا، وَأَصْدَقَ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَوْفَاهُمْ ذِمَّةً، وَأَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمَهُمْ عِشْرَةً، وَمَنْ رَأَاهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ فَعَرَفَهُ أَحَبَّهُ، لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَبْلَهُ، وَلَا بَعْدَهُ (٣).

شجاعته (صلى الله عليه وآله): (عن عليّ (عليه السلام)، قال: لَقَدْ رَأَيْتَنِي يَوْمَ بَدْرٍ، وَنَحْنُ نَلُودُ بِالنَّبِيِّ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا.

وعنه (عليه السلام)، قال: كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ [مِنَّا] أَقْرَبُ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ) (٤).

(١) ينظر: مفتاح السعادة: ١/ ٤٠٠-٤٠٥.

(٢) مكارم الأخلاق، الطبرسي: ١٧.

(٣) ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام: ٢/ ٢٧٢، الطبقات: ١/ ٤١٢.

(٤) ينظر: نهج البلاغة، تحقيق صالح: ٥٢٠، وما بين المعقوفتين من المصدر.

علامة رضاه وغضبه (صلى الله عليه وآله): (عن ابن عمر، قال: كان رسول الله يُعرف رضاه وغضبه في وجهه، وكان إذا رضي فكأنها تلاحك الجدد^(١) وجهه، وإذا غضب خصف^(٢) لونه واسودّ، وعن كعب بن مالك، قال: كان رسول الله، إذا سرّه الأمر استنار وجهه كأنه دارة القمر، وعن عليّ (عليه السلام)، قال: كان رسولُ الله (صلى الله عليه وآله) إذا رأى ما يُحِبُّ، قال: الحمدُ لله الَّذي بنعمته تُتَمُّ الصّالحاتُ)^(٣).

رفقهُ (صلى الله عليه وآله) بأُمَّتِه: (عن أنس، قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه؛ فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده)^(٤).

بكاؤه (صلى الله عليه وآله): (عن أنس، قال رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإبراهيم يجود بنفسه فدمعت عيناه، فقال رسول الله: تَدَمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا أَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ)^(٥).

مشيته (صلى الله عليه وآله): (عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّوًّا كَأَنَّمَا يَتَقَلَّعُ مِنْ صَبَبٍ لَمْ أَرِ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ)^(٦).

(١) (الجزر) هكذا في: مكارم الأخلاق: ١٩.

(٢) (خسف) هكذا في: مكارم الأخلاق: ١٩.

(٣) مكارم الأخلاق: ١٩.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ينظر: مكارم الأخلاق: ٢٢.

(٦) مكارم الأخلاق: ٢٢.

(وعن جابر، قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا مشى مشى مشياً يُعرف أنه ليس بمشي عاجزٍ ولا بكسلان^(١)).

خصائصه (صلى الله عليه وآله): قال العلامة (قده) في التذكرة: (فأما الواجبات عليه دون غيره من أُمَّته أمورٌ:

الأول: السَّوَاك، الثاني: الوتر، الثالث: الأُضحية.

رُويَ عنه (صلى الله عليه وآله) أنه، قال: ثَلَاثٌ كُتِبَتْ عَلَيَّ، وَلَمْ تُكْتَبْ عَلَيَّكُمْ: السَّوَاكُ وَالْوِتْرُ وَالْأُضْحِيَّةُ).

الرابع: قيامُ اللَّيْلِ، الخامس: قضاءُ دَيْنٍ مَن مات مُعْسِراً، السادس: مُشاورةُ أُولَى النَّهْيِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾^(٢)، وقيل ليس بواجبٍ عليه بل أمرٌ لاستمالة قلوبهم، وهو المعتمد، فإنَّ عقلَ النبيِّ أوفرُّ من عُقول كلِّ البشر.

السابع: إنكار المنكر إذا رآه؛ لأنَّ إقراره على ذلك يوجب جَوَازَه.

الثامن: كان عليه تَخْيِيرُ نِسَائِهِ بَيْنَ مَفَارِقَتِهِ وَمِصَاحِبَتِهِ؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَتَعَالَيْنَّ أُمَتَّعُنَّ وَأُسْرَحُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾^(٣).^(٤)

وأما المحرَّمات عليه (صلى الله عليه وآله) فقِسْمَان: قِسْمٌ ما حُرِّمَ عَلَيْهِ

(١) مكارم الأخلاق: ٢٢، وقد نسب الرواية إلى ابن عباس.

(٢) آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٣) الأحزاب، الآية: ٢٨.

(٤) ينظر: تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي: ٢ / ٥٦٥.

خاصة في غير النكاح، وقسم حرم عليه في النكاح، أما القسم الأول فأمور:

الأول: الزكاة المفروضة.

الثاني: الصدقة المندوبة.

الثالث: أنه لا يأكل الثوم والبصل والكراث.

الرابع: كان لا يأكل مُتَكِنًا، والأقرب كراهته، وكذا الثالث.

الخامس: يُحَرِّمُ عَلَيْهِ الْخَطُّ وَالشَّعْرُ؛ لقوله تعالى ﴿وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ﴾^(١)،

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾^(٢).

السادس: إنه إذا لبس لامة الحرب يُحَرِّمُ عَلَيْهِ نَزْعُهَا حَتَّى يَلْقَى الْعَدُوَّ وَيُقَاتِلَ.

السابع: إذا ابتدأ بتطوع حرم عليه تركه قبل إتمامه، وفيه خلاف.

الثامن: يُحَرِّمُ عَلَيْهِ أَنْ يُمَدَّ عَيْنُهُ إِلَى مَا مَتَّعَ اللَّهُ بِهِ النَّاسَ؛ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾^(٣).

التاسع: يُحَرِّمُ عَلَيْهِ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ؛ وفسرها بالإيذاء إلى مباح من ضرب

أو قتل.

العاشر: يُحَرِّمُ عَلَيْهِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى مَنْ لَهُ دَيْنٌ، على اختلاف فيه.

الحادي عشر: هل يجوز عليه الصلاة على مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ مع وجود

الضامن أو لا يجوز؟

(١) العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) يس، الآية: ٦٩.

(٣) طه، الآية: ١٣١.

الثاني عشر: لم يكن له أن يُمنَّ ليستكثر؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُنُّنَّ تَسْتَكْبِرُنَّ﴾^(١).
وأما ما يُجرَم عليه في النكاح خاصّة [فأمور]:
الأوّل: إمساكُ مَنْ تَكَرَّهُ نِكَاحَهُ وَتَرَعُبُ عَنْهُ، الثاني: نكاح الكُفَّار^(٢).
عددُ أزواجه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ):

قال أبو عبيدة: تزوّج رسول الله ثمانى عشرة امرأة، واتَّخَذَ مِنَ الْآبَاءِ ثَلَاثًا،
وقال بعضُ آخر: خمسة عشر، ومات رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عَنْ
تسع نسوة: عائشة، حفصة، أم سلمة، أم حبيبة، ميمونة، جويرة سودة،
وصفيّة، وزينب بنت جحش، وجميع من تزوّج بهنّ خمسة عشر، وجمع
بين إحدى عشر، ودخل بثلاثة عشر، وفارق امرأتين في حياتهما: إحداهما:
الكلبيّة والأخرى التي تَعَوَّذَتْ مِنْهُ، وأوّل مَنْ تزوّج به (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)
هو خديجة بنتُ خويلد (سلام الله عليها)^(٣)«^(٤).

سابعًا- مكارم الشيرازي:

قال: «قوله (عليه السلام): (كريمًا ميلادُهُ) ولعلَّ العبارة الأخيرة إشارة
إلى كرامة آبائه وأجداده، أو بركات ولادته التي عمّت أرجاء العالم؛ فقد
صرّحت بعض السّير التاريخيّة بتهايوي أوثان الكعبة، وانطفاء نار المجوس،
وجفاف بحيرة ساوه التي كانت تحظى بعبادة بعض الناس، وتهدّم قصور

(١) المدر، الآية: ٦.

(٢) ينظر: تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي: ٥٦٦/٢ - ٥٦٧.

(٣) ينظر: تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي: ٥٦٧/٢.

(٤) مفتاح السعادة: ٤٣١ / ١ - ٤٤٩.

بعض الجابرة تزامناً مع الولادة الميمونة للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وكلُّ هذه الأحداث دلالةً واضحةً على بداية عصرٍ جديدٍ بانطلاقةِ شرارةِ التوحيد والوقوف بوجه كافة مظاهر الشرك والإلحاد^(١).

ثامناً- السيد نبيل الحسنی:

يُرشد قوله (عليه الصلاة والسلام): «كريمًا ميلادُهُ» -فضلاً عما أفاده الشُّراح- إلى أمور؛ منها:

أولاً- لم يُولد النبي (صلى الله عليه وآله) من سفاح.

تناول الشُّراح النصَّ الشريف بمزيد من البيان فيما يرتبط بنسب النبي (صلى الله عليه وآله) بوصفه طريقاً إلى بيان كرم مولده، فضلاً عن بيان ما تعلق بساعة مولده وآثارها الفلكية، وهو أمرٌ اهتمَّ العلماء به في وقته ولم يزل يُنظر إليه عبر الأبراج التي تتحدّد مع ساعة ولادة الإنسان ويومه، فأصبح في وقتنا الحاضر من الترف المعرفي لا غير.

ومن ثمَّ فقد قدّم الشُّراح معارفاً متعدّدة فيما اكتنزه النصّ الشريف: «كريمًا ميلادُهُ»، إلا أنّي وجدتُ أنّ قصديّة النصّ تكمن في بيانه (عليه السلام) لطيب مولده، وأنّه طاهر الآباء والأمهات من لدن نبيّ الله آدم (عليه السلام) إلى والديه عبد الله وآمنة (عليهما السلام)، فهو لم يولد من سفاح، وإنّما من نكاح، وهذا يقتضي أن آباءه (عليهم السلام) وأمّهاته كلّهم موحدون مؤمنون بالله تعالى يدينون الله بما شهدوا في أزمانهم من الرسالات والشرائع التي جاءت بها الرُّسل، فضلاً عن أنّ كثيراً من آباءه (صلى الله عليه وآله)

وآله) هم أنبياء ورُسل.

وقد أخرج الصنعاني (ت ٢١١هـ)، عن الإمام جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه الباقر (عليهما السلام)، أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «أُخْرِجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أُخْرَجْ مِنْ سِفَاحٍ»^(١).

ومن ثم فقد ذهب الإمامية إلى الاعتقاد بأن (آباء النبي مسلمون من آدم إلى أبيه عبد الله، وأن أبا طالب كان مسلماً، وأمه آمنة بنت وهب كانت مسلمة، وأن عبد المطلب كان حُجَّةً وأبا طالب كان وصيه)^(٢).

ثانياً- إشكالية حديث إرضاع حليلة السعدية للنبي (صلى الله عليه وآله).

نما أورده الشارح النقوي (رحمه الله) حديث إرضاع حليلة السعدية للنبي (صلى الله عليه وآله)، قائلاً: (فاسْتَرْضِعَ لَهُ امْرَأَةً مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، يُقَالُ لَهَا حَلِيمَةُ ابْنَةِ أَبِي ذُوَيْبٍ)، والرواية أوردها ابن هشام نقلاً عن ابن أسحاق المطلبي مصنف السيرة الأول^(٣).

إلا أن الرواية -وعلى طولها- يردُ عليها جملة من الاستفهامات على الرغم من سبكها الإنشائي وصياغتها الأدبية التي رُتبت بعناية فائقة، تنجذب إليها النفوس، وتأنس بها القلوب؛ وذلك لطابعها القصصي والروائي الجذاب، فضلاً عن الجوانب الإنسانية المرتبطة بالأمومة والطفولة، فكيف إذا كانت تتحدّث عن طفولة سيّد الخلق أجمعين (صلى الله عليه وآله).

(١) المصنّف: ٣٠٣/٧.

(٢) الاعتقادات في دين الإمامية، الصدوق: ١١٠.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام: ١/١٠٤-١٠٧.

إلا أن الرواية تُعارضها أمورٌ فكريةٌ وعقديةٌ وشرعيةٌ، وهي على النحو الآتي:

١- إنَّ العقيدة الثابتة في النبي (صلى الله عليه وآله) توجب ملازمة حرمة قبل البعثة وبعدها، حيًّا وميتًّا، ويجب على المسلم أن يتجنب كل ما يمسُّ حرمة، ويُقلِّل من شأنه؛ ومنها إطعامه من لبن امرأة مشرَّكة ليشبَّ عليه. ومن ثمَّ فإنَّ ذلك يُدخل الأذى على الله تعالى، فيقود إلى سوء الظنِّ به، وعليه (صلى الله عليه وآله)؛ عبر التقليل من شأنه وحرمة، وهو مُحَرَّم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(١).

٢- إنَّ إرضاع سيِّد الأنبياء والمرسلين (صلى الله عليه وآله) من امرأة مشرَّكة مخالف للنصوص الشريفة الكاشفة عن الكراهة الشديدة في استرضاع المشرَّكة، ومن ثمَّ فقد تناول الفقهاء الموضوع في مصنفاتهم، ولاسيَّما ما يختصُّ بكراهة استرضاع المشرَّكة، فقالوا:

«المرضعة كلُّ امرأة حيَّة والدة بالنكاح الصحيح، دائماً كان أو متعةً أو ملك يمينٍ وشبهة، كنكاح الشُّبهة، وسواء كانت الولادة عن تمام أو سقط، فلا اعتبار بلبن البهيمة، ولا لبن الرجل، ولا الميتة، ولا مَنْ دَرَّ لبنها من غير ولادة، ولا مَنْ لبنها من زنا، ويُعتدُّ بلبن المنكوحه بالشُّبهة على الأقوى.

ويُستحبُّ: أن تكون عاقلةً مسلمةً عفيفةً وضيئةً، ويكره: استرضاع الكافرة؛ فإن اضطرَّ سترضع الذميمة، ومنعها من شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وكُرِّه له تسليم الولد لتحمله إلى منزلها.

(١) الأحزاب، الآية: ٥٧.

ويتأكد الكراهية في استرضاع المجوسية، ويكره أيضاً استرضاع مَنْ وُلدت أو وُلدت من زنا، وذات البدعة في دينها، والسوء في خلقها والحمق»^(١).

ومن ثمَّ يكون أمر إرضاعه من حليلة السعدية أمرٌ مُشكِل؛ وذلك لتنزّهه (صلى الله عليه وآله) عن كل أمرٍ قبيح كرهه الله تعالى للمسلم، فكيف بسيد الأنبياء والمرسلين (صلى الله عليه وآله)، وحاله قبل النبوة لا يختلف عن حاله بعدها في سماته وأخلاقه وأفعاله وأقواله، وحسبنا في ذلك قول أمير المؤمنين (عليه السلام):

«وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ»^(٢).

٣- بل كيف يصحُّ الاعتقاد بإرضاعه (صلى الله عليه وآله) من مشركة وقد أكرم الله تعالى نبيّه موسى (عليه السلام) وحرّم عليه المراضع وردّه إلى أمّه كي تُرضعه، ويترك سيد أنبيائه ورسله بيد المشركات يُرضعنه، فقال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

٤- ممّا لا ريب فيه أنّ العلوم الطبيّة الحديثة ولاسيما الطبّ الغذائيّ قد توصّل إلى كثير من النتائج التي تُظهر أثر الغذاء على تكوين جسم الإنسان

(١) تحرير الأحكام: العلامة ابن المطهر الحلي: ٤٤٧/٣.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق صلاح الفرطوسي: ٢/٢١٢.

(٣) القصص، الآية: ١٢-١٣.

ونفسيته؛ مما يشكّل عاملاً أساساً في صحّة الإنسان وسلامة عقله ونفسه وجسمه، فكيف إذا كان هذا اللبن نجسًا، وقد ورد في الحديث عن أبي جعفر (عليه السلام)، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): لَا تَسْتَرِضِعُوا الْحَمَقَاءَ فَإِنَّ اللَّبْنَ يُعْدِي وَإِنَّ الْغُلَامَ يَنْزِعُ إِلَى اللَّبَنِ يَعْنِي إِلَى الظُّرِّ فِي الرَّعُونَةِ وَالْحُمُقِ^(١).

وروي عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، قال: «كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (صلوات الله عليه) يَقُولُ: لَا تَسْتَرِضِعُوا الْحَمَقَاءَ فَإِنَّ اللَّبْنَ يَغْلِبُ الطَّبَّاعَ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): لَا تَسْتَرِضِعُوا الْحَمَقَاءَ فَإِنَّ الْوَلَدَ يَشَبُّ عَلَيْهِ»^(٢).

وروي عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام): انظروا من ترضع أولادكم فإن الولد يشب عليه»^(٣).

٥- كيف يطمئن عبد المطلب (عليه السلام) إلى تلك المرأة فيسلمها النبي (صلى الله عليه وآله) لتأخذه إلى قومها شهرًا عدة وقد تربص به الكهنة واليهود وسار بذكره الركبان، بل لقد ظهرت لعبد المطلب الآيات في بيان منزلته ونبوته من قبل أن يولد، بل إنّه كان كما وصفه أمير المؤمنين (عليه السلام): «مَشْهُورَةٌ سَمَائُهُ» ومرّ بيانه مفصلاً في المطلب السابق.

ومن ثمّ فإنّ إرساله إلى جهةٍ محفوفةٍ بالمخاطر مُعَارِضٌ للحكمة وسيرة العقلاء، بل لا يقوم به أيّ والدٍ يخشى على ولده الهلكة، فكيف بعبد المطلب

(١) الكافي، الكليني: ٤٣/٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٤٤/٦.

وهو سيّد البطحاء الذي أكرمه الله تعالى بهلاك أبرهة، بعد تسليمه البيت الحرام إليه لحمايته، فقال قولته الشهيرة: «إِنَّ لَلبَيْتِ رَبًّا يَحْمِيهِ»^(١)؛ أفتراه يكون غافلاً عن حفيده وهو يعلم شأنه؟!

ومن ثمّ لا يصحّ أمر إرساله (صلى الله عليه وآله) إلا إذا قيّد ببقاء حلّيمة السعدية في بيت عبد المطلب وتحت ناظره، تأكل من طعامه، وتُسقى من ماء زمزم، وأنها كانت على ملّة إبراهيم (عليه السلام)؛ لرفع الكراهة عن إرضاعها للنبيّ (صلى الله عليه وآله) وعدم المساس بحرمته وشأنه.

وأنّ مرضعته أمّهُ آمنة بنت وهب (عليها السلام) كما أرضعت أمّ موسى ولدها الكليم (عليهما السلام)، وكما أرضعت مريم ولدها عيسى (عليهما السلام).

ثالثاً- تحقيق حديث شقّ بطن النبيّ (صلى الله عليه وآله) وإخراج علقة سوداء منه.

ومّا أورده الشارح النقويّ (رحمه الله) في ولادة النبيّ (صلى الله عليه وآله) حديث شقّ بطنه الذي روته حلّيمة السعدية عنه، أنّه قال: «جاءني رجُلانِ عليهما ثيابٌ بيضٌ فأضجعاني وشقّا بطني فالتَمَسا فيه شيئاً لا أدري ما هو». والحديث رواه غير واحدٍ من أهل السُنّة والجماعة، وبألفاظٍ مختلفة؛ فمنها:

١- قالت حلّيمة: «فأتاه الملكان هناك فشقّا بطنه واستخرجا علقة سوداء فطرّحاهما وغسّلا بطنه بهاء الثلج في طسّيتٍ من ذهبٍ...»^(٢).

(١) كشف الخفاء، العجلوني: ١٣٩/٢.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ١/١١٢، المنتظم، ابن الجوزي: ٢/٢٦٩.

٢- «فَشَقَّا بَطْنَهُ وَاسْتَخْرَجَا مَا فِيهِ مِنَ الْغَلِّ وَالِدَّنَسِ»^(١).

٣- قال (صلى الله عليه وآله): «وَشَقَّا بَطْنِي ثُمَّ اسْتَخْرَجَا مِنْهُ شَيْئًا فَطَرَحَاهُ ثُمَّ رَدَّاهُ كَمَا كَانَ...».

٤- قال (صلى الله عليه وآله): «أَتَانِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضٌ مَعَهُمَا طَسْتٌ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٌ ثَلَجًا، فَأَضَجَعَانِي فَشَقَّا بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقَّاهُ فَأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ فَأَلْقَيَاهَا، ثُمَّ غَسَلَا قَلْبِي وَبَطْنِي بِذَلِكَ الثَّلَجِ، حَتَّى إِذَا أَلْقَيَاهُ رَدَّاهُ كَمَا كَانَ...»^(٢).

٥- قال (صلى الله عليه وآله): «فَأَقْبَلَ إِلَيَّ طَائِرَانِ أَبْيَضَانِ كَأَنَّهُمَا نَسْرَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَهْوَ هُوَ؟ فَقَالَ نَعَمْ! فَأَقْبَلَا يَتَدَرَانِي فَأَخَذَانِي فَبَطَحَانِي لِلْقَفَا فَشَقَّا بَطْنِي ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقَّاهُ، فَأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَتَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ...».

٦- وأخرج مسلم في صحيحه، عن أنس بن مالك: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ] أَتَاهُ جَبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَامَهُ^(٣)، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ، يَعْنِي طَيْرَهُ، فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَفِعٌ اللَّوْنِ، قَالَ أَنَسُ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمَخِيطِ فِي صَدْرِهِ»^(٤).

وغيرها من الألفاظ التي لا نعتقد بصحتها، وأنها مما تزلف بها الرواة

(١) تاريخ الطبري: ٤٤ / ٢.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ٣٣٥ / ٢.

(٣) أي خاطه بالمخيط.

(٤) صحيح مسلم، باب: الإسراء برسول الله (صلى الله عليه وآله): ١٠١ / ١.

للخلفاء، بقصدٍ أو بغيره، فهي جميعها تُسيء للنبي (صلى الله عليه وآله)؛ وذلك لجملة من الأمور، منها:

١- أنه وُلِدَ ناقصًا غير تامٍّ من العيوب؛ وهذا مُشكِلٌ شرعًا، وذلك أنَّ الأنبياء (عليهم السلام) يولدون وهم مُنزّهون من جميع العيوب الخلقية والخلقية كي لا يُستهزأ بهم، ويُتخذ من ذلك العيب والنقص ذريعةً في تنفير الناس عنهم.

٢- إنَّ «فيه من الغلِّ والدَّنَس»!! وفي لفظ مالك ابن أنس: (إن في قلبه علقَةٌ سوداء هي حَظُّ الشيطان)!! -والعياذ بالله- وهذا مع فداحته وإساءته لله ورسوله (صلى الله عليه وآله) معارض لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١)

وكيف ينسجم ذلك مع كرامة الله لموسى (عليه السلام) فيتولَّى صناعته، فيُخاطبُه: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾^(٢)، ويولد سيِّدُ خَلْقِه وفيه الغلُّ والدَّنَسُ وحَظُّ الشيطان!!؟

٣- الظاهر أنَّ هذه النصوص والروايات يُرادُ منها إظهار منقبةٍ لأبي بكرٍ وعمر؛ وذلك لما رواه ابن سعد، قال: «جاءت ظُئْرُ النبي (صلى الله عليه وآله) إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فبسط لها رداءه، وأدخل يده في ثيابها، ووضعها على صدرها، قال: وقضى حاجتها، قال: فجاءت إلى أبي بكر، فبسط لها رداءه، وقال لها: دعيني أضع يدي خارجًا من الثياب؟! قال:

(١) الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) طه، الآية: ٣٩.

ففعل وقضى لها حاجتها، ثم جاءت إلى عمر ففعل مثل ذلك»^(١).
ومن ثم: إن جميع ما علق بمولده (صلى الله عليه وآله) من النصوص الحديثية والتاريخية هو مخالف لقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «كريمًا ميلادُهُ».
والحمد لله على فضله وفضل رسوله (صلى الله عليه وآله).

المطلب الخامس: الحقول المعرفية في قوله (عليه السلام): «وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره».

اشتمل النص الشريف على جملة من الحقول المعرفية؛ كاللغة، والإعراب، والشرح، وهي على النحو الآتي:

المسألة الأولى: المعنى اللغوي:

أولاً- الراوندي:

قال: «قوله (عليه السلام): (يَوْمَئِذٍ)، أي يوم إذ كان كذا، فلما حذف الجملة نَوَّنَ إِذٌ^(٢)، ومِلَّةٌ كُلُّ قَوْمٍ مَذْهَبُهُمْ^(٣)، (وَالْجَمْعُ مِلَلٌ)^(٤)، (وهوى النفس: مقصور)^(٥)، والتشتت: التفرق بعد الاجتماع^(٦)، والمشبهة: [هم

(١) الطبقات الكبرى: ١ / ١١٤.

(٢) ينظر: الصحاح: ٢ / ٥٦٠، مادة (إذ).

(٣) ينظر: جمهرة اللغة، ابن دريد: ١ / ١٦٨، مادة (ملل)، الصحاح: ٥ / ١٨٢١، مادة (ملل).

(٤) المخصّص، ابن سيده: ٤ / ٦٩، باب (الملل والنحل).

(٥) جمهرة اللغة: ١ / ٢٥١، مادة (هوي).

(٦) ينظر: تهذيب اللغة، الأزهرى: ١١ / ١٨٤، مادة (شتت)، الصحاح: ١ / ٢٥٤، مادة (شتت).

الذين يُجوزون على معبودهم ما يصحُّ على الأجسام ويشبّهونه بها^(١)،
والملحد: المائل على الاستقامة، والعاذل عن الحقّ^(٢)»^(٣).

ثانياً- الخوئي:

قال: «المِلَلُ: جمعُ المِلَّةِ وهي الشريعة والدين^(٤)، والأهواء: جمع هوا
بالقصر^(٥)، (إرادة النفس)^(٦)، (وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ)، أي متفرقة^(٧)، والمُلحد: من
الإلحاد؛ يقال أَلحدَ ولحدَ إذا حاد عن الطريق وعَدِلَ عنه^(٨)»^(٩).

ثالثاً- مغنية:

قال: «والمِلَلُ: الأديان^(١٠)، وطوارق وطارقات: (جمع طارقة)^(١١)، وتُطلَق
على العشيرة، و (مُلحدٍ في اسمه): حاد به عن معناه الحقيقي^(١٢)»^(١٣).

(١) ينظر: شمس العلوم، نشوان الحميري: ٦/٣٣٦٩.

(٢) ينظر: العين: ٣/١٨٣، مادة (لحد)، تهذيب اللُّغة: ٤/٢٤٣، مادة (لحد). وورد هذا المعنى
في: شرح نهج البلاغة، البحراني: ١/٢٠٠، مفتاح السعادة: ١/٣٨٤.

(٣) منهاج البراعة: ١/٨٨.

(٤) ينظر: الصحاح: ٥/١٨٢١، مادة (ملل)، لسان العرب: ١١/٦٣١، فصل الميم، مادة
(ملل).

(٥) ينظر: جمهرة اللُّغة: ٢/٩٩٨، مادة (وهي).

(٦) تاج العروس: ٤٠/٣٢٦، مادة (هوى).

(٧) ينظر: معجم ديوان الأدب: ٣/١٨٦، الصحاح: ١/٢٥٤، مادة (شتت).

(٨) ينظر: الصحاح: ٢/٥٣٤، مادة (لحد)، النهاية في غريب الحديث: ٤/٢٣٦، مادة (لحد)،
وورد هذا المعنى في: مفتاح السعادة: ١/٣٨٤.

(٩) منهاج البراعة: ٢/١٦٢.

(١٠) ينظر: النهاية في غريب الحديث: ٤/٣٦٠، مادة (ملل).

(١١) النهاية في غريب الحديث: ٣/١٢١، مادة (طرق).

(١٢) ينظر: تهذيب اللُّغة: ٤/١٩٨، (أبواب الحاء والسين).

(١٣) في ظلال نهج البلاغة: ١/٦١.

رابعاً- مكارم الشيرازي:

قال: «(مُلْحِدٍ) من مادة (لحد) على وزن مهد بمعنى الحفرة الواقعة على جانب، ومن هنا أُطلق على مثل هذه الحفرة اسم اللحد، كما أُطلق الإلحاد على كلِّ عملٍ يخرج عن حالة الاعتدال ويَجْنَح نحو الإفراط والتفريط، ومن هنا نُعِتَت الوَثْنِيَّةُ والشُّرْكُ بالإلحاد^(١)»^(٢).

المسألة الثانية: الإعراب:

أولاً- البحراني:

قال: «الواو في قوله: (وأهل الأرض) للحال أيضاً، وموضع الجملة نصب، وقوله: (وأهواء) خبر مبتدأ محذوف تقديره (أهواؤهم أهواءٌ متفرقة)، وكذلك قوله: (وطوائف)؛ أي وطوائفهم»^(٣).

ثانياً- الخوئي:

قال: «كما أن محلَّ الجملة أعني قوله (عليه السلام): (وأهل الأرض)، كذلك. و(مِلَلٌ)، و(أهواءٌ)، و(طرائقٌ) مرفوعاتٌ على الخبرية من (وأهل الأرض)، وإسنادها إليه من باب التوسُّع، والأصل: ذو (مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ)، وقيل: إنَّ المبتدأ محذوف؛ أي: مِلَلُهُم مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وأهواؤهم أهواءٌ منتشرة، وطرائقهم طرائقٌ متشتتة، و(بَيْنَ) ظرف متعلق بقوله: (مُتَشَتِّتَةٌ)، وهو من الظروف المبهمة لا يتبيَّن معناه إلا بالإضافة إلى اثنين فصاعداً أو ما يقوم مقامه

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٤٤٨، مادة (لحد).

(٢) نفحات الولاية: ١/ ١٥٠.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠٥.

كقوله تعالى: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾^(١)، قال الفيوميّ في المصباح: (والمشهور في العطف بعدها أن يكون بالواو؛ لأنّها للجمع المطلق، نحو: (المال بين زيد وعمرو)، وأجاز بعضهم بالفاء مستدلاً بقول أمرؤ القيس:

..... بين الدّخول فحومل

وأجيب بأنّ الدّخول اسمٌ لمواضع شتّى، فهو بمنزلة قولك المال بين القوم وبها يتمّ المعنى^(٢) انتهى.

إذا عرفت ذلك، فأقول: الظاهر أنّ كلمة (أَوْ) في قوله (عليه السلام): (أَوْ مُلْحِدٍ)، (أَوْ مُشِيرٍ)، بمعنى الواو؛ إجراء للفظ بين على ما هو الأصل فيه، مضافاً إلى عدم معنى الانفصال هاهنا، وقول الشارح البحرانيّ: إنّ (الانفصال هنا لمنع الخُلُوِّ)^(٣) فاسد؛ ضرورة أنّ بعض أهل الأرض عند بعثة النبيّ (صلى الله عليه وآله) كان من أهل التوحيد حسبما تعرفه، وهؤلاء ليس داخلاً في أحد الأصناف الثلاثة، فافهم جيّداً^(٤).

ثالثاً- مغنيّة:

قال: «(مِلَلٌ) على حذف المضاف إليه، أي: ذو مِلَل، ومثله (أَهْوَاءٌ) (وَطَرَائِقُ)، و (بَيْنٌ) ظرف متعلّق بـ (مُشْتَتَةٌ)»^(٥).

(١) البقرة، الآية: ٦٨.

(٢) المصباح المنير: ١ / ٧٠، مادّة (بين).

(٣) شرح نهج البلاغة، البحراني: ١ / ٢٠٧.

(٤) منهاج البراعة: ٢ / ١٦٢-١٦٣.

(٥) في ظلال نهج البلاغة: ١ / ٦٢.

رابعاً- مؤسّسة علوم نهج البلاغة:

قال (عليه السلام): «وَأَهْلُ الْأَرْضِ»: الواو: استثنائية، (أَهْلُ): مبتدأ مرفوع، وهو مضاف، (الْأَرْضِ): مضاف إليه مجرور، «يَوْمَئِذٍ»: يوم: ظرف زمان، وهو مضاف، و (إِذْ): مضاف إليه. (مِلَلٌ): خبر مرفوع، (مُتَفَرِّقَةٌ): صفة لـ (مِلَلٌ). «وَأَهْوَاءٌ مُتَشَرِّعَةٌ»: معطوفة على «مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ» و(وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ) أيضاً.

«بَيْنَ مُشَبِّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ»: (بَيْنَ): ظرف مكان وهو مضاف، (مُشَبِّهِ): مضاف إليه مجرور، (لِلَّهِ): جارٌّ ومجرور متعلق بـ (مُشَبِّهِ)، (بِخَلْقِهِ): جارٌّ ومجرور متعلق بـ (مُشَبِّهِ)، (أَوْ): حرف عطف، (مُلْحِدٍ): اسم معطوف على ملحد مجرور، (فِي اسْمِهِ): جارٌّ ومجرور متعلق بـ (مُلْحِدٍ) وهو مضاف، والهاء ضمير متصل في محلّ جرٍّ بالإضافة، (أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ) معطوفة على سابقتها وتُعرّب إعرابها.

المسألة الثالثة: أقوال الشراح:

أولاً- البيهقي:

قال: «قوله (عليه السلام): (أَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَشَرِّعَةٌ)؛ كان أهل المِلل في عهد رسول الله، (صلى الله عليه وآله وسلم)، اليهود والنصارى، والمجوس، وفرقة من الصابئين، والدهريّة، وعبدة الأوثان، والسميّة، وأهل مكة ومن حولهم لا يدينون بدين، كان قس بن ساعدة^(١) وزيد

(١) قس بن ساعدة عمرو بن عدي بن مالك الإيادي، بالضم بليغ مشهور وهو حكيم العرب، وهو أسقف نجران، وإياد هو ابن نزار بن معد.

بن عمرو بن نفيل^(١) وغيرهما - كما ذكر في مجامع الأمثال - من الموحدّين المبشّرين بنبوّة محمّد، (صلّى الله عليه وآله)، وقوم عبدوا الأوثان، وبقي فيهم آثار حسان من ملّة إبراهيم (عليه السلام)، وقوم منهم سافروا وساروا في البلاد وأخذوا مذهب الدهريّة؛ منهم عقبة بن أبي معيط^(٢)، كما حكى الله تعالى عنه، حيث قال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا﴾^(٣).

قوله: من (مُشِبِّهِ لِه بِخَلْقِهِ): هم النصاري والصابئون، (أو مُلْحِدِي فِي اسْمِهِ): هم الدهريّة، (أو مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ): عبدة الأوثان وعبدة الكواكب من الصابئين^(٤).

ثانياً- الراوندي:

قال: «(قوله (عليه السلام): (أو مُلْحِدِي فِي اسْمِهِ): أي يميل في تسميته فيُسَمِّيهِ بما لا يستحقّه، أو يُسَمِّي الأصنام باسمه، كما قالوا: اللات بدلاً عن الله، والعزى بدلاً عن العزيز»^(٥).

(١) زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوي، كان يتعبّد في الجاهليّة ويطلب دين إبراهيم الخليل، وكان لا يأكل ممّا ذُبِح على النُصب، ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ثمّ تذبّحونها على غير اسم الله. (ينظر: أسد الغابة، ابن الأثير: ٣٦٨ / ٢)

(٢) قال ابن أبي الحديد: «عقبة بن أبي معيط هو العدو الأزرق بمكّة والذي كان يؤذّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في نفسه وأهله، وأخباره في ذلك مشهورة، فلما ظفر به يوم بدر ضرب عنقه، وورث ابنه الوليد الشنآن والبغضة لمحمّد وأهله (صلّى الله عليه وآله) فلم يزل عليهما إلى أن مات.

قال الشيخ أبو القاسم: وهو أحد الصبية الذين قال أبو عقبة فيهم، وقد قدم ليضرب عنقه: مَنْ لِلصبية يا محمّد؟ فقال: النار، اضربوا عنقه». شرح نهج البلاغة: ٨١ / ٤.

(٣) الجاثية، الآية: ٢٤.

(٤) معارج نهج البلاغة: ٧٢.

(٥) منهاج البراعة: ٨٨ / ١.

ثالثاً- الكيذري:

قال: «قوله: (وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مَلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ)؛ كان أهل الملل في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والدهرية؛ وعبدة الأوثان، والسميئة؛ وأهل مكة ومن حولهم لا يدينون بدين؛ إلا أن فيهم من بقي فيهم آثار حسان من ملة إبراهيم (عليه السلام)؛ وفيهم من وحد وبشر بنبوّة محمد (صلى الله عليه وآله)؛ كقس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهما، وفيهم من سافر في البلاد وأخذ مذهب الدهرية؛ كعقبة بن أبي معيط، حكى الله تعالى عنه فقال: ﴿وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(١)، وفيهم من عبدة الأوثان .

قوله: (بَيْنَ مَشَبِّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ): هم النصارى والصابئون (أو ملحد في اسمه): هم الدهرية (أو مشير إلى غيره): عبدة الأوثان؛ وعبدة الكواكب من الصابئين»^(٢).

رابعاً- المعتزلي:

قال: «قوله (عليه السلام): (وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مَلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ)، فإن العلماء يذكرون أن النبي [صلى الله عليه وآله] بعث والناس أصناف شتى في أديانهم: يهود، ونصارى، ومجوس، وصابئون، عبدة أصنام، وفلاسفة، وزنادقة.

أديان العرب في الجاهلية:

(فأما الأمة التي بعث محمد (صلى الله عليه وآله) فيها فهم العرب،

(١) الجاثية، الآية: ٢٤.

(٢) حدائق الحقائق، الكيذري: ١/ ١٤١.

وكانوا أصنافاً شتى؛ فمنهم معطّلة، ومنهم غير معطّلة؛ فأما المعطّلة منهم فبعضهم أنكّر الخالق والبعث والإعادة، وقالوا: ما قال القرآن العزيز عنهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(١)، فجعلوا الجامع لهم الطَّبَع، والمهلك لهم الدهر، وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعث، وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٢)، ومنهم مَنْ أقرّ بالخالق ونوع من الإعادة، وأنكروا الرُّسل، وعبدوا الأصنام، وزعموا أنّها شفعاء عند الله في الآخرة، وحجّوا لها، ونحروا لها الهدّي، وقربوا لها قربان، وحلّلوا وحرّموا، وهم جمهور العرب، وهم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٣).^(٤)

فممن نطق شعره بإنكار البعث بعضهم يرثي قتلى بدر:

فَمَاذَا بِأَنْفَلَيْبِ قَلَيْبِ بَدْرِ	مِنْ الْفُتْيَانِ وَالْقَوْمِ الْكِرَامِ
وَمَاذَا بِأَنْفَلَيْبِ قَلَيْبِ بَدْرِ	مِنْ الشَّيْزَى تُكَلَّلُ بِالسَّنَامِ!
أَيُخْبِرُنَا ابْنُ كَبْشَةَ أَنْ سَنَحْيَا	وَكَيْفَ حَيَاةَ أَصْدَاءِ وَهَامِ؟
إِذَا مَا الرَّأْسُ زَالَ بِمَنْكَبِيهِ	فَقَدْ شَبِعَ الْأَنْيْسُ مِنَ الطَّعَامِ
أَيَقْتُلُنِي إِذَا مَا كُنْتُ حَيًّا	وَيُحْيِينِي إِذَا رَمَتْ عِظَامِي! ^(١)

(١) الجاثية، الآية: ٢٤.

(٢) يس، الآية: ٧٨.

(٣) الفرقان، الآية: ٧.

(٤) ينظر: الملل والنحل: ٣/ ٧٩-٨٠.

(١) تنسب الأبيات لأبي بكر شداد بن الأسود بن عبد شمس. (ينظر: ربيع الأبرار، الزمخشري:

١٠/ ٥، جامع الأصول، ابن الأثير أبو السعادات: ٨/ ٢١٠)

وكان من العرب مَنْ يعتقد التناسخ وتُنقل الأرواح في الأجساد؛ ومن هؤلاء أربابُ الهامة، التي قال (عليه السلام) عنهم: لا عَدُوِي وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفْرَ^(١)، وقال ذو الإصبع:

يَا عَمْرُو! لَا تَدْعُ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي أَضْرِبِكَ حَيْثُ تَقُولُ الْهَامَةَ اسْقُونِي^(٢)

وقالوا: إن ليلي الأخيلية لما سلّمت على قبر توبة بن الحمير خرج إليها هامةٌ من القبر صائحة، أفزعت ناقتها، فوقصت بها فماتت^(٣)، وكان ذلك تصديق قوله^(٤):

وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلَيَّ وَدُونِي جَنْدَلٌ وَصَفَائِحُ
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدْيٌ مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ^(٥)

وكان توبة ويلي في أيام بني أمية.

وكانوا في عبادة الأصنام مختلفين؛ فمنهم مَنْ يجعلها مشاركة للبارئ تعالى، ويُطلق عليها لفظة (الشريك)، ومن ذلك قولهم: في التلبية: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ: لا شريك لك، إلا شريكاً هَوَ لَكَ، تملكه وما ملك^(٦).

ومنهم من لا يُطلق عليها لفظ (الشريك)، ويجعلها وسائل وذرائع إلى

(١) ينظر: الملل والنحل: ٨١/٣.

(٢) ديوان ذي الإصبع العدواني: ٩٢، وفيه: (حتّى) بدل (حيث).

(٣) ينظر: سمط اللآلي في شرح أمالي القاضي، أبو عبيد الأندلسي: ١١٩-١٢٠.

(٤) هذان البيتان لتوبة بن الحمير. (ينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة: ٤٣٧/١)

(٥) مروج الذهب: ١٣٣/٢، الأمالي، القاضي: ٨٨/١.

(٦) ينظر: المعجم الكبير، الطبراني: ١٦/١٢.

الخالق سبحانه، وهم الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(١).

وكان في العرب مُشَبَّهَةٌ ومُجَسِّمَةٌ؛ منهم أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْتِ، وهو القائل:

مِنْ فَوْقِ عَرِشٍ جَالِسٍ قَدْ حَطَّ رِجْلُ
لَيْهِ إِلَى كُرْسِيِّهِ الْمَنْصُوبِ

وكان جمهورهم عبدة الأصنام، فكان ودّ لكلب بدومة الجندل، وسواع لهذيل، ونسر لحمير، ويغوث لهمدان، واللات لثقيف بالطائف، والعزى لكنانة وقريش وبعض بني سليم، ومناة لغسان والأوس والخزرج، وكان هبل لقريش خاصة على ظهر الكعبة، وأساف ونائلة على الصفا والمروة^(٢).

وكان في العرب من يميل إلى اليهودية، منهم جماعة من التبابعة وملوك اليمن، ومنهم نصارى كبنى تغلب والعباديّين رهط عدي بن زيد، ونصارى نجران، ومنهم من كان يميل إلى الصابئة ويقول بالنجوم والأنواء^(٣).

فأمّا الذين ليسوا بمُعطّلة من العرب فالقليل منهم؛ وهم المتأهّون أصحاب الورع والتحرّج عن القبائح: كعبد الله، وعبد المطلب، وابنه أبي طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة الإياديّ، وعامر بن الظرب العدوانيّ، وجماعة غير هؤلاء.

وغرضنا من هذا الفصل بيان قوله (عليه السلام): (بَيْنَ مُشَبَّهٍ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ) إلى غير ذلك، وقد ظهر بما شرحناه^(٤).

(١) الزمر، الآية: ٣.

(٢) ينظر: الملل والنحل: ٣/ ٨١-٨٢.

(٣) ينظر: الملل والنحل: ٣/ ٨٢.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١/ ١١٧-١٢٠.

خامساً- البحراني:

قال: «أراد (عليه السلام) بعد ذلك أن يزيد بعثة محمد (صلى الله عليه وآله) تعظيماً، ويُبين فضيلة شرعه وكيفية انتفاع الخلق به، فقال: (وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَّةٌ مُتَّفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَشَرِّعَةٌ وَطَوَائِفُ مُتَشَتِّتَةٌ)، (طَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ)؛ أي بعثه وحال أهل الأرض يوم بعثه ما ذكر من تفرق الأديان، وانتشار الآراء، واختلافها، وتشتت الطرق والمذاهب، واعلم أن الخلق عند مقدم محمد (صلى الله عليه وآله) إما من عليه اسم الشرائع أو غيرهم، أما الأولون فاليهود والنصارى والصابئة والمجوس، وقد كانت أديانهم اضمحلّت من أيديهم، وإنّما بقوا متشبهين بأهل الملل، وقد كان الغالب عليهم دين التشبيه، ومذهب التجسيم كما حكى القرآن الكريم عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾^(١)، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾^(٢)، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾^(٣)، والمجوس أثبتوا أصلين؛ أسندوا إلى أحدهما الخير وإلى الثاني الشرّ، ثمّ زعموا أنّه جرت بينهما محاربة، ثمّ إنّ الملائكة توسّطت وأصلحت بينهما على أن يكون العالم السفليّ للشّير مدّة سبعة آلاف سنة^(٤)، إلى غير ذلك من هذيانهم وخطبهم.

وأما غيرهم من أهل الأهواء المنتشرة والطوائف المتشّتتة فهم على أصناف

(١) المائدة، الآية: ١٨.

(٢) التوبة، الآية: ٣٠.

(٣) المائدة، الآية: ٦٤.

(٤) ينظر: الملل والنحل: ٢/ ٣٨-٣٩.

شَتَّى؛ فمنهم العرب أهل مكّة وغيرهم، وقد كان منهم معطّلة ومنهم مُحَصِّلَة نوع تحصيل، أمّا المعطّلة فصنّف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني؛ وهم الذين حكى القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(١)، وقصروا الحياة والموت على تحلّل الطبائع المحسوسة وتركّبها فالجامع هو الطبع، والمهلك هو الدهر ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٢)، وصنّف منهم أقرّوا بالخالق وابتداء الخلق عنه، وأنكروا البعث والإعادة؛ وهم المحكّي عنهم في القرآن الكريم: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^(٣)، وصنّف منهم اعترفوا بالخالق ونوع من الإعادة لكنّهم عبدوا الأصنام وزعموا أنّها شفعاؤهم عند الله كما قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٤)، ومن هؤلاء قبيلة يقف وهم أصحاب اللات بالطائف، وقريش وبنو كنانة وغيرهم أصحاب العزى، ومنهم من كان يجعل الأصنام على صور الملائكة، ويتوجّه بها إلى الملائكة، ومنهم من كان يعبد الملائكة كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾^(٥).^(٦)

وأما المحصّلة فقد كانوا في الجاهليّة على ثلاثة أنواع من العلوم:

(١) الجاثية، الآية: ٢٤.

(٢) الجاثية، الآية: ٢٤.

(٣) يس، الآية: ٧٨-٧٩.

(٤) يونس، الآية: ١٨.

(٥) سبأ، الآية: ٤١.

(٦) ينظر: الملل والنحل: ٧٩/٣-٨٢.

أحدها: علم الأنساب والتواريخ والأديان، والثاني: علم تعبير الرؤيا، والثالث: علم الأنواء، وذلك بما يتولاه الكهنة والقافة منهم، وعن النبي (صلى الله عليه وآله):

مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوَاءٍ كَذَا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ^(١).

ومن غير العرب البراهمة من أهل الهند؛ ومدار مقالاتهم على التحسين والتقيح العقليين والرجوع في كل الأحكام إلى العقل، وإنكار الشرائع، وانتسابهم إلى رجل منهم يُقال له براهام^(٢)، ومنهم أصحاب البددة (والبدد عندهم شخص في هذا العالم لا يُولد ولا يَنكح ولا يُطعم ولا يَشرب ولا يَهرم ولا يَموت)^(٣)، ومنهم أهل الفكرة؛ وهم أهل العلم منهم بالفلك وأحكام النجوم^(٤)، ومنهم أصحاب الروحانيات الذين أثبتوا وسائط روحانية تأتيهم بالرسالة من عند الله في صورة البشر من غير كتاب فتأمرهم وتنهاهم^(٥)، ومنهم عبدة الكواكب، ومنهم عبدة الشمس، ومنهم عبدة القمر؛ وهؤلاء يرجعون بالآخرة إلى عبادة الأصنام؛ إذ لا يستمر لهم طريقة إلا بشخص حاضر ينظرون إليه ويرجعون إليه في مهماتهم، ولهذا كان أصحاب الروحانيات والكواكب يأخذون أصنامًا على صورها، فكان الأصل في وضع الأصنام ذلك؛ إذ يبعد ممن له أدنى فطنة أن يعمل خشبًا بيده ثم يتخذة إلهًا، إلا أن الحلق لما عكفوا عليها وربطوا حوائجهم بها

(١) ينظر: الملل والنحل: ٨٣/٣ - ٨٥.

(٢) ينظر: الملل والنحل: ٩٥-٩٦/٣.

(٣) الملل والنحل: ٩٧/٣.

(٤) ينظر: الملل والنحل: ٩٨/٣.

(٥) ينظر: الملل والنحل: ١٠١/٣.

من غير إذن شرعي ولا حُجَّة ولا برهان من الله تعالى، كان عكوفهم ذلك وعبادتهم لها إثباتاً لإلهيتها^(١)، ووراء ذلك من أصناف الآراء الباطلة والمذاهب الفاسدة أكثر من أن تُحصى مذكورة في الكتب المصنفة في هذا الفن، وإذا عرفت ذلك ظهر معنى قوله (عليه السلام): مِنْ مُشَبِّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ كَالْبَقِيَّةِ مِنْ أَصْحَابِ الْمَلَلِ السَّابِقَةِ؛ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ أَثْبَتُوا صَانِعًا إِلَّا أَنْ أَذْهَابَهُمْ مُكَيِّفَةٌ بِكَيْفِيَّةِ بَعْضِ مَصْنُوعَاتِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مِنَ الْجَسْمِيَّةِ وَتَوَابِعِهَا، وَمَنْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ؛ كَالَّذِينَ عَدَّلُوا عَنِ الْحَقِّ فِي أَسْمَائِهِ بِتَحْرِيفِهَا عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ إِلَى أَسْمَاءِ اشْتَقَّوْهَا لِأَوْثَانِهِمْ وَزَادُوا فِيهَا وَنَقَّصُوا؛ كَاشْتِقَاقِهِمُ اللَّاتِ مِنَ اللَّهِ، وَالْعَزَّى مِنَ الْعَزِيزِ، وَمَنَاةٌ مِنَ الْمَنَانِ؛ وَهَذَا التَّوِيلُ مَذْهَبُ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٢)، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَ الْمُلْحِدِينَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ بِالْكَاذِبِينَ فِي أَسْمَائِهِ؛ وَعَلَى هَذَا كُلِّ مَنْ سَمَّى اللَّهَ بِمَا لَمْ يُسَمَّ بِهِ ذَهَنَهُ وَلَمْ يَنْطِقْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا وَرَدَ فِيهِ إِذْنٌ شَرْعِيٌّ فَهُوَ مُلْحِدٌ فِي أَسْمَائِهِ، وَقَوْلُهُ: وَمَنْ (مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ) كَالدَّهْرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عَبَدَةِ الْأَصْنَامِ، وَالْإِنْفِصَالُ هَا هُنَا لِمَنْعِ الْخُلُوعِ أَيْضًا^(٣).

سادساً- الخوئي:

قال: «(وَ) قَدْ كَانَ (أَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ)؛ أَي يَوْمَ بَعْثِهِ وَتَصْدِيْعِهِ بِالرَّسَالَةِ ذِي (مَلَلٍ) وَشَرَائِعٍ (مُتَفَرِّقَةٌ وَأَهْوَاءٌ)؛ أَي آرَاءِ (مُتَشَبِّهَةٌ وَطَرَائِقُ)؛ أَي مَسَالِكِ (مُتَشَبِّهَةٌ) وَمُتَفَرِّقَةٌ وَمَذَاهِبٌ مُخْتَلِفَةٌ (بَيْنَ مُشَبِّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ).

(١) ينظر: الملل والنحل: ٣/١٠٣-١٠٤.

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي: ٣/١٩٩.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١/٢٠٥-٢٠٧.

قال الشارح المعتزلي: إن العلماء يذكرون أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) بعث والناس أصناف شتى في أديانهم... وجماعة غير هؤلاء^(١)، انتهى باختصار منا.

إذا عرفت هذا فأقول: قوله (عليه السلام): (بَيْنَ مُشَبَّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ)، إشارة إلى بعض هذه الفرق، وهم المشبهة الذين شبهوا الله تعالى بال مخلوقات ومثله بالحادثات وأثبتوا له صفات الجسم، فمنهم مشبهة الحشوية؛ قالوا: هو جسم لا كالأجسام، ومركب من لحم ودم لا كاللحوم والدماء، وله الأعضاء والجوارح، ويجوز عليه الملامسة والمعانقة والمصافحة للمخلصين.

ومنهم الذين قالوا: إن الله على العرش من جهة العلوّ تماس له من الصفحة العليا، ويجوز عليه الحركة والانتقال^(٢)، قال أمية بن أبي الصلت: **مِنْ فَوْقِ عَرْشِ جَائِسٍ قَدْ حَطَّ رِجْلٌ لِيَهُ عَلَى كُرْسِيِّهِ الْمَنْصُوبِ**^(٣).

ومنهم اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾^(٤)، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾^(٥)، وقالت اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾^(٦).

وقد أثبتوا له سبحانه يداً وولداً، إلى غير هؤلاء من المشبهة والمجسمة.

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة: ١١٧/١ - ١٢٠.

(٢) ينظر: المواقيف: ٧١٥ - ٧١٦.

(٣) شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ١١٩/١.

(٤) المائدة، الآية: ١٨.

(٥) التوبة، الآية: ٣٠.

(٦) المائدة، الآية: ٦٤.

وقوله (عليه السلام): (أَوْ مُلْحِدٍ فِي إِسْمِهِ) إشارة إلى فرقة أخرى من هذه؛ وهم (الذين يعدلون بأسماء الله تعالى عما هي عنه فيُسَمَّونَ بها أصنامهم، ويغيرونها بالزيادة والنقصان، فاشتقوا اللَّات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان)^(١) وهذا المعنى حكاه الطبرسي عن ابن عباس ومجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾^(٢)، ثم قال: وقيل: (إن معنى يُلْحِدُونَ في أسمائه، يصفونه بما لا يليق به، ويُسمَّونه بما لا يجوز تسميته به؛ وهذا الوجه أعمُّ فائدة، ويدخل فيه قول الجبائي: أراد تسميتهم المسيح بأنه ابن الله، ثم قال وفي هذا دلالة على أنه لا يجوز أن يسمَّى الله إلا بما سمَّى به نفسه)^(٣).

وقوله (عليه السلام): (أَوْ مُشِيرٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ) إشارة إلى الدهريَّة وبعض عبدة الأصنام ممن لم يدخل في القسمين السابقين.

والحاصل: أن الناس عند بعث النبي (صلى الله عليه وآله) كانوا على مذاهب مختلفة، وآراء متفرقة من اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والدهرية، وعبدة الأصنام وغيرهم^(٤).

سابعاً- مغنية:

قال: «قوله (عليه السلام): (وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مَلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَشَرِّعَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ) - إلى قوله - (مِنَ الْجَهَالَةِ)؛ كان الناس عند بعثة

(١) تفسير مجمع البيان، الطبرسي: ٤/٣٩٩-٤٠٠.

(٢) الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٣) تفسير مجمع البيان: ٤/٤٠٠.

(٤) منهاج البراعة: ٢/١٧١-١٧٤.

محمد (صلى الله عليه وآله) على أديان شتى، ومذاهب متعدّدة، وتقاليد مختلفة، فجاءهم النبي (صلى الله عليه وآله) برسالة إلهية إنسانية عامّة لا تختص بأمة دون أمة، ولا بشعب دون شعب. . ويلمح المتأمل هذا الشمول في جميع تعاليم الإسلام ومبادئه، فالقرآن الكريم والسنة النبوية يتضمّنان من القواعد الكلية، والأحكام الجزئية ما يرشد الناس إلى جميع المصالح التي يجهلون، ويضع دائماً وفي كل وقت الحلول الأساسية لمشاكل الإنسان وضروراته: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)؛ أي إنّ الله سبحانه أودع في القرآن كل شيء يلائم طبيعته في إرشاد الخلق لمصالحهم الفردية والاجتماعية^(٢)، وقرأت في جريدة الجمهورية المصرية عدد ١٤ مايو أيار سنة ١٩٧٠: قال برنارد شو الفيلسوف العالمي: إنّ دين محمد هو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنّه حائز على أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة؛ بحيث يستطيع أن يكون جاذباً لكلّ جيل. إنّ محمداً يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وأعتقد أنّه لو تولّى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح في حلّ مشاكله بطريقة تجلب إلى العالم السعادة والسلام، إنّ محمداً أكمل البشر من السابقين والحاضرين، ولا يتصوّر وجود مثله في الآتين»^(٣).

ثامناً- التستري:

قال: «قوله (عليه السلام): (وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَّةٌ مُّتَّفَرِّقَةٌ) كاليهود والنصارى والمجوس، (وَأَهْوَاءٌ مُّتَشَرِّعَةٌ) كالثنوية وعابدي الملائكة، وعابدي

(١) النحل، الآية: ٨٩.

(٢) ينظر: تفسير الرازي: ٢٠/ ٩٩.

(٣) في ظلال نهج البلاغة: ١/ ٦٢-٦٣.

الشمس، قال ابن قتيبة: (كان في العرب قوم يعبدون الشمس ويُسمونها الإلاهة، قال الأعشى:

فَلَمْ أَذْكَرِ الرَّهْبَ حَتَّى انْفَتَلْتُ قُبَيْلَ الْإِلَاهَةِ مِنْهَا قَرِيْبًا^(١).

وقال البلاذري: (إنَّ الأَسْبَدِيَّينَ قوم كانوا يعبدون الخيلَ بالبحرين)^(٢).

وقال هشام الكلبي: (هم وُلْدُ عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وقيل لهم: الأَسْبَدِيَّونَ؛ لأنَّهم كانوا يعبدون فرسًا، قلتُ: يُقال للفرس بالفارسيَّة: أسب)^(٣).

وفي نسب قريش مصعب الزبيري: (كان يُقال لعمر بن حبيب الفهريِّ المحاربيِّ جدَّ جدِّ ضرار بن الخطَّاب: آكل السقب؛ لأنَّه كان أغار على بني بكر، وكان لهم سقب يعبدونه من دون الله، فأخذه وأكله)^(٤)، (والسقب: الذَّكْرُ مِنْ وُلْدِ النَّاقَةِ)^(٥).

وفي حلية أبي نعيم، قال أبو رجاء العطاردي: (كُنَّا نجمع التراب في الجاهلية فنجعل وسطه حفرة، فنحلب فيها، ثمَّ نسعى حولها ونقول: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هولك، تملكه وما ملك)^(٦)، (وكنَّا نعمد إلى الحجر الأبيض فنعبده زمانًا ثمَّ نُلقِيه)^(٧).

(١) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة: ١١٨.

(٢) فتوح البلدان، البلاذري: ٩٥/١.

(٣) معجم البلدان، الحموي: ١٧١/١.

(٤) نسب قريش، مصعب الزبيري: ٤٨٣-٤٨٤.

(٥) الصحاح: ١٤٨/١.

(٦) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني: ٣٠٦/٢.

(٧) المصدر نفسه.

(وطوائف) هكذا في المصريّة^(١)، والصواب: (وطرائق) كما في ابن أبي الحديد^(٢)، وابن ميثم^(٣)، والخطيئة.

(مُتَشَتِّتَةٌ) كالدهريّة والوثنيّة، كان لربيعة بيت يطفون به يُسمّى (ذو الكعبات)، وكان لخنعم بيت كان يُدعى (كعبة اليمامة)، وكان فيه صنم يُدعى (الخالصة)، ولما هزمت بنو بغيض من غطفان صدّاء من مذحج قالوا: لتتخذنّ حرماً مثل مكّة لا يُهاج عائذه؛ فبنوا حرماً وولّيه بنو مرّة بن عوف، فبلغ ذلك زهير بن جناب^(٤)، فقال: والله لا أُخليّ غطفان تتخذ حرماً، فغزاهم وظفر بهم، وأخذ فارساً منهم في حرمهم، فقتله وعطل ذلك الحرم^(٥).

(وكانت بنو حنيفة اتّخذوا في الجاهليّة إهّاً من حيس فعبدوه دهرًا طويلاً، ثمّ أصابهم مجاعة فأكلوه، فقال رجل من بني تميم:

أَكَلَتْ رَبِّهَا حَنِيفَةً مِنْ جُوٍّ
عِ قَدِيمٍ بِهَا وَمِنْ إِعْوَازٍ^(٦).

(وكان الحارث بن قيس السهمي^(٧) وهو أحد المستهزئين بالنبي (صلّى الله

(١) نهج البلاغة، تحقيق: محمّد عبدة: ٢٥ / ١.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة: ١١٦ / ١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٩٩ / ١، وفيه (وطوائف).

(٤) زهير بن جناب بن عبد الله بن كنانة الكلبيّ شاعرٌ جاهليّ، وكان سيّداً مطاعاً شريفاً في قومه، وهو من المعمرين في الجاهليّة، واختلفت الأخبار في عمره ما بين ٣٠٠ إلى ٤٢٠ عام. (ينظر: مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور: ٥٩ / ٩)

(٥) ينظر: الكامل في التاريخ: ٥٠٣ / ١.

(٦) المعارف، ابن قتيبة: ٦٢١.

(٧) الحارث بن قيس بن عديّ بن سعد القرشيّ السهميّ، يُعدّ أحد أشراف قريش في الجاهليّة، ويده السلطة والمال، وأحد المستهزئين بنبوّة الرسول محمّد (صلّى الله عليه وآله)، وقيل أنّه أسلم فيما بعد وهاجر إلى الحبشة. (ينظر: أسد الغابة، ابن الأثير: ١ / ٦٣١)

عليه وآله) يأخذ حجراً يعبده، فإذا رأى أحسن منه ترك الأوّل وعَبَدَ الثاني، قيل: وفيه نزل ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...﴾ (١). (٢)

وكان أهل الجاهلية ينحرون لصخرة يعبدونها، ويُلطِّخونها بالدم ويسمونها (سعد الصخرة)، وكان إذا أصابهم داءٌ في إبلهم وأغنامهم جاؤوا إلى تلك الصخرة وتمسَّحوا بها الإبل والغنم، فجاء رجل بإبل له يريد أن يتمسَّح لها بالصخرة، وبيارك عليها، فنفرت وتفرقت، فقال:

أَتَيْتُ إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا فَشَتَّتْنَا سَعْدٌ فَمَا نَحْنُ مِنْ سَعْدٍ
وَهَلْ سَعْدٌ إِلَّا صَخْرَةٌ بَتَّنُوفَةٍ مِنَ الْأَرْضِ لَا تَدْعُو لِيٍّ وَلَا رُشْدٍ (٣).

ومرَّ بسعد ذلك رجلٌ وثعلبٌ يبولُ عليه، فقال:

أَرَبُّ يَبُولِ الثَّعْلَبَانِ بِرَأْسِهِ لَقَدْ ذُلٌّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ (٤)

وفي تاريخ يعقوبي: (كان أوّل شأن الأصنام أن الناس كانوا إذا مات لأحدهم الميت الذي يعزُّ عليهم من أبٍ أو أخٍ أو ولدٍ صنعوا صنماً على صورته، وسمّوه باسمه، فلمّا أدرك الخلف الذي بعدهم ظنّوا، وحدثهم الشيطان: أنّه إنّما صنعت هذه لتعبد فعبدوها، ثمّ فرّق الله دينهم؛ فمنهم من عبَدَ الأصنام، ومنهم من عبَدَ الشَّمْسَ، ومنهم من عبَدَ القمر، ومنهم من عبَدَ الطَّير، ومنهم من عبَدَ الحجارة، ومنهم من عبَدَ الشَّجر، ومنهم من

(١) الفرقان، الآية: ٤٣.

(٢) ينظر: الكامل في التاريخ: ٧١ / ٢.

(٣) ينظر: السيرة النبويّة، ابن هشام: ٥٣ / ١.

(٤) مجمع الأمثال، الميداني: ١٨١ / ٢.

عَبَدَ الْمَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ الرِّيحَ، وَفْتَنَهُمُ الشَّيْطَانُ وَأَضَلَّهُمْ وَأَطْغَاهُمْ^(١).
 (بَيْنَ مُشَبَّهٍ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ)؛ كاليهود حيث أثبتوا له ابناً وهو عزيز، وكالنصارى
 حيث أثبتوا له ابناً وهو عيسى، وكصنف من العرب حيث أثبتوا له بناتٍ؛
 أي: الملائكة، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم إلى الله تعالى، وهم الذين أخبر تعالى
 عنهم في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾^(٢)، وفي قوله:
 ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا...﴾^(٣).

(أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ)؛ حيث جعلوا الصانع الدهر والنور والظلمة، ولما قال
 النبي (صلى الله عليه وآله) لقومه: (أَدْعُواكُمْ إِلَى شَهَادَةِ الْإِلَهِ إِلَّا اللَّهَ، وَخَلَعَ
 الْأَنْدَادِ)^(٤).

قالوا: نَدْعُ ثَلَاثَةَ وَسْتِينَ إِلَهًا، وَنَعْبُدُ إِلَهًا وَاحِدًا^(٥).

وقال ابن أبي الحديد: كان بعض العرب يقول: ﴿...مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
 الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ...﴾^(٦)، وبعضهم أقر بالخالق وأنكر
 البعث، ومن قولهم في قتلى بدر:

وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءِ وَهَامِ
 فَقَدْ شَبِعَ الْأَنْيَسُ مِنَ الطَّعَامِ

أَيُخْبِرُنَا ابْنُ كَبْشَةَ أَنْ سَنَحْيَا
 إِذَا مَا الرَّأْسُ زَالَ بِمَنْكَبِيهِ

(١) تاريخ يعقوبي: ٢١ / ١.

(٢) النحل، الآية: ٥٧.

(٣) الزخرف، الآية: ١٥.

(٤) ينظر: تفسير القمي: ٣٧٩ / ١.

(٥) إعلام الوری: ١٠٧ / ١.

(٦) الجاثية، الآية: ٢٤.

أَيَقْتُلْنِي إِذَا مَا كُنْتُ حَيًّا وَيُحْيِينِي إِذَا رَمَتْ عِظَامِي (١).

وبعضهم أقرَّ بالخالق ونوع من الإعادة وأنكر الرُّسل، وعبدوا الأصنام وزعموا أنَّهم شفعاء في الآخرة، وحجَّوا لها ونحروا لها الهدْيَ وقربوا قربانَ لها، وحلَّلوا وحرَّموا، وهم جمهور العرب الذين قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ...﴾ (٢).

ومنهم من يجعل الأصنام مشاركة للباري تعالى؛ كقولهم في تليبتهم: (لا شريك لك إلا شريكاً هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ)، ومنهم من يجعلها وسائل؛ وهم الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (٣)، وبعضهم يعتقد التناسخ، ومنهم أرباب الهامة التي قال النبي (صلى الله عليه وآله) عنهم: (لا عدوى ولا هامة ولا صفر).

وقال ذو الإصبع:

يَا عَمْرٍو [و] لَا تَدْعُ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي أَضْرِبَكَ حَيْثُ تَقُولُ الْهَامَةَ اسْقُونِي (٤)

وبعضهم مُشَبَّهَةٌ ومُجَسِّمَةٌ؛ ومنهم أُمِّيَّةٌ بن أبي الصلت، فقال:

إِمِنْ [فَوْقِ عَرْشِ] جَالِسٍ قَدْ حَطَّ رِجْلُ لِي إِلَيْ كُرْسِيِّهِ الْمَنْصُوبِ

(١) تُنسب الأبيات للنصر بن الحارث، وهي في المصدر سوى البيت الثاني، وفيه: (تُحْبَرْنَا) بدل (أُجْبَرْنَا). أخلاق الوزيرين، أبو حيان التوحيدي: ٣٨١-٣٨٢.

(٢) الفرقان، الآية: ٧.

(٣) الزمر، الآية: ٣.

(٤) ديوان ذي الإصبع العدواني: ٩٢، وما بين المعقوفين من الديوان وفيه: (حتَّى) بدل (حيث).

(٥) في نهج البلاغة: (العرش)، وما أثبتناه من المصدر، لاستقامة الوزن به.

وكان فيهم مُتَاهِلَةٌ أصحاب الورع؛ كعبد الله، وعبد المطلب، وأبي طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة، وعامر بن الظرب، وكان فيهم مَنْ يميل إلى اليهودية؛ كجماعة من التابعة وملوك اليمن، ومنهم نصارى؛ كبنّي تغلب والعباديّين رهط عديّ بن زيد ونصارى نجران، ومنهم مَنْ يميل إلى الصابئة ويقول بالنجوم والأنواء...^(١)»^(٢).

تاسعاً- النقويّ:

قال: «قوله (عليه السلام): (وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَّةٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَشَرِّعَةٌ، وَطَوَائِفٌ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبَّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ)، والمقصود من هذه الفقرات كلّها إثبات أنّ ميلاد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الذي كان مقدّمةً لبعثته كان كريماً، إذ به (صلّى الله عليه وآله) زال الاختلاف وارتفع التشتت والنفاق من الأقوام والملل المختلفة، وصار الناس كالكلمة الواحدة، كلّ ذلك ببركة لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، ولتوضيح الموضوع نتكلّم إجمالاً في آراء الناس وعقائدهم في زمان الجاهلية حتّى يُعلّم حقّ المقال فيه فنقول: لما قتل قابيل هابيل في زمان آدم (عليه السلام)، وهو أوّل قتلٍ وقع على الأرض من آدميين؛ بل هو منشأ لكلّ المعاصي والخطايا، هرب من أبيه وسافر إلى اليمن، فأناه إبليس، وقال: إنّما أكلت النار قربان هابيل لأنّه كان يعبدها، فانصب أنت أيضاً ناراً تكون لك ولعقبك؛ فبنى بيت نارٍ وهو أوّل من نصب النارَ وعبدها واتخذ أولاده آلات اللّه من

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ١/ ١١٧-١٢٠.

(٢) بهج الصباغة: ٢/ ١٣٣-١٣٧. وما بين المعقوفتين من المصدر.

اليراع والطنبور والمزامير، وانهمكوا في اللّهُو وشرب الحمر وعبادة النار والرّنا والفواحش حتّى أغرقهم الله أيّام نوح بالطوفان^(١). فمن هنا ظهر الفساد في البرّ والبحر ذلك بما كسبت أيديهم، وكان قتله أخاه شدخا بحجر فيقال إنّ الوحوش هنالك استوحشت من الإنسان؛ وذلك أنّه بدأ فبلغ العرض بالشرّ والقتل، ولما علّم آدم بذلك حزن وجزع وارتاع وهلع^(٢).

وقال: في رثا الهايل على ما ينسب إليه:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا	فوجه الأرضِ مُغْبِرُّ قَبِيحِ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لُونٍ وَطَعْمٍ	وَقَلَّ بَشَاشَةُ الْوَجْهِ الصَّبِيحِ
وَبُدِّلَ أَهْلُهَا حَمَطًا وَأَثَلًا	بَجَنَاتٍ مِنَ الْفِرْدَوْسِ فِيحِ
وَجَاوَرْنَا عَدُوًّا لَيْسَ يَنْسَى	لَعِينٌ لَا يَمُوتُ فَنَسْتَرِيحِ
وَقَتْلُ قَايِنٍ هَابِيلَ ظَلَمًا	فَوَا أَسْفًا عَلَى الْوَجْهِ الْمَلِيحِ
فَمَا لِي لَا أَجُودُ بِسَكْبِ دَمَعٍ	وَهَابِيلُ تَضَمَّنَهُ الضَّرِيحِ
أَرَى طَوْلَ الْحَيَاةِ عَلَيَّ غَمًّا	وَمَا أَنَا مِنْ حَيَاتِي مُسْتَرِيحِ

فأجابه إبليس لعنه الله على ما قيل:

تَنَحَّ عَنِ الْبِلَادِ وَسَاكِنِيهَا	فَقَدَيْ فِي الْأَرْضِ ضَاقَ بِكَ الْفَسِيحِ
وَكُنْتَ وَزَوْجُكَ الْحَوَاءُ فِيهَا	[أ] آدَمُ مَنْ آذَى الدُّنْيَا مُرِيحِ
فَمَا زَالَتْ مُكَايِدَتِي وَمَكْرِي	إِلَى أَنْ فَاتَكَ الثَّمَنُ الرَّبِيحِ
فَلَوْلَا رَحْمَةُ الرَّحْمَنِ أَضْحَتْ	بِكُفِّكَ مِنْ جِنَانِ الْخُلْدِ رِيحِ

(١) ينظر: تفسير مجمع البيان: ٣/ ٣٢٠.

(٢) ينظر: مروج الذهب: ٤٦/ ١.

وسمع آدم صوتًا ولا يرى شخصه وهو يقول:

أَيَا هَابِيلُ قَدْ قُتِلَ جَمِيعًا وصارَ الحيُّ بالموتِ ^(١) الذَّبِيحِ ^(٢)

فهذا أو أن الشروع في الظلم والفساد في الأرض، وبعد موت قابيل أو قائل أحدت كثير من الملاحية والمنكرات؛ أحدثها ولد قابيل تبعاً لأبيه، وهكذا الأمر استمر في أولاده إلى أن انتشرت في البلاد والآفاق ووصلت النبوة إلى زمان الجاهلية، الذي هو معركة الآراء بين المؤرخين وأرباب السير؛ من جهة كثرة الشرور والفساد وعبادة الأوثان وإتيان المنكرات وترك الحسنات، والملل يومئذ أربعة: العرب، والهند، والروم، والعجم، وسائر الأفراد من أهل الأرض ليس لهم مسلك مستقل بل كلهم تابعون لها في العقيدة والرأي، وقد ذكر أرباب السير أن العرب والهند متقاربان في الرأي، كما أن الروم والعجم متقاربان؛ وذلك لأن العرب والهند غلبت عليهم الفطرة والطبع فاعتبروا خواص الأشياء والحكم بأحكام الماهيات، بخلاف الروم والعجم؛ حيث إن الغالب عليهم الاكتساب والجهد فلا جرم اعتبروا كفيات الأشياء والحكم بأحكام الطبائع.

قال الشهرستاني في الملل والنحل: وأول من وضع فيه (أي الكعبة) الأصنام عمرو بن لحي، لما سار قومه بمكة واستولى على أمر البيت، ثم صار إلى مدينة البلقاء بالشام، فرأى قومًا يعبدون الأصنام، فسألهم عنها، فقالوا: هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستسقي فنسقي، فأعجبه ذلك فطلب منهم صنماً من

(١) (بالميت) هكذا في مروج الذهب: ٤٧/١.

(٢) ينظر: مروج الذهب: ٤٦-٤٧.

أصنامهم فدفعوا إليه هبل، فصار إلى مكّة ووضعها في الكعبة، وكان معه إساف ونائلة على شكل زوجين، فدعا الناس إلى تعظيمها والتقرب إليها والتوسّل بهما إلى الله، وكان ذلك في أوّل ملك شابور ذي الأكتاف إلى أن أظهر الله الإسلام فأخرجت، وأبطلت.

ثمّ قال: ثمّ اعلم أنّ البيوت تنقسم إلى بيوت الأصنام وبيوت النيران، أمّا بيوت النيران فكانت للعجم والرّوم، وأمّا بيوت الأصنام التي كانت للعرب والهند فهي البيوت السبعة المعروفة المبنية على السبع الكواكب؛ فمنها ما كانت فيها أصنام فحوّلت إلى النيران، ومنها ما لم تحوّل، ولقد كان بين أصحاب الأصنام وأصحاب النيران مخالفت كثيرة، والأمر دُول فيما بينهم وكان كلّ من استولى وقهر غير البيت إلى مشاعر مذهبه ودينه؛ فمنها بيت فارس على رأس جبل بأصفهان على ثلاثة فراسخ، كانت فيه أصنام إلى أن أخرجها گشتاسف الملك لما تمجّس وجعلها بيت نار.

ومنها البيت الذي بمولتان من أرض الهند فيه أصنام لم تُغيّر ولم تبدّل، ومنها بيت سدوسان من أرض الهند أيضًا وفيه أصنام كبيرة كثيرة العجب، والهند يأتون البيتين في أوقات من السنّة حجًا وقصدًا إليها، ومنها النوبهار الذي بناه منوچهر بمدينة بلخ على اسم القمر، فلما ظهر الإسلام خرّبه أهل بلخ، ومنها بيت غمدان الذي بمدينة صنعاء اليمن بناه الضحّاك على اسم الزُّهرة وخرّبه عثمان، ومنها بيت كلووسان بناه كأوس الملك بناء عجيبيًا على اسم الشمس بمدينة فرغانة خرّبه المعتصم^(١). انتهى.

(١) ينظر: الملل النحل: ٣/ ٧٧-٧٩.

أقول: هذه بيوت الأصنام التي ذكرها الشهرستاني في كتابه للعرب والهند، ثم عقب البحث بذكر آرائهم وعقائدهم وفرقهم المختلفة وأفكارهم الكاسدة، ونحن نقلنا ما نقله في هذا المقام، قال:

واعلم: أن العرب أصناف شتى؛ فمنهم معطلة، ومنهم محصلة نوع تحصيل، فمعطلة العرب وهي أصناف:

فصنف منهم أنكروا الخالق، والبعث، والإعادة: وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني؛ وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(١)؛ إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي، وقصر الحياة والموت على تركيبها وتحللها فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٢) فاستدل عليهم بضرورات فكرية وآيات قرآنية فكرية (فطرية) في كم آية وكم سورة؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٣)، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤).

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(٥)، وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾^(٦)، فأثبت الدلالة

(١) الجاثية، الآية: ٢٤.

(٢) الجاثية، الآية: ٢٤.

(٣) الأعراف، الآية: ١٨٤.

(٤) الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٥) فصلت، الآية: ٩.

(٦) البقرة، الآية: ٢١.

الضرورية من الخلق على الخالق وأنه قادرٌ على الكمال إبداء وإعادة^(١)، انتهى ما قال الشهرستاني في الصنف الأول.

أقول: وهؤلاء هم الدهريون الذين هم عطلوا المصنوعات عن صانعها والمخلوقات عن خالقها، كما أشار إليهم في القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا أَلْهَامٌ، وهؤلاء - على ما قيل - فرقتان: الفرقة الأولى قالت: إن الله سبحانه خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة دارت عليه فأحرقتة فلم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها، والفرقة الثانية قالت: إن الأشياء ليست لها أول البتة وإنما تخرج من القوة إلى الفعل، فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل تكوّنت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها، لا من شيء آخر، وقالوا: إن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل ولا يجوز أن يكون المبدع يفعل فعلاً يبطل ويضمحل إلا وهو يبطل ويضمحل مع فعله، وهذا العالم هو المسك لهذه الأجزاء التي فيه؛ وهؤلاء هم المعطلة حقاً، فالجامع عندهم هو الطبع والمهلك هو الدهر، وما لهم بذلك من علم أن هم إلا يظنون، فقال تعالى في جوابهم ما قال من الآيات، وأنت ترى أن هذا المذهب هو مذهب الطبيعيين بعينه ولا فرق بينهم، والقائلون بالدهر أثبتوا له صفات الكمال؛ كالعلم والقدرة وغير ذلك، قال قائلهم في هذا المعنى:

وَعُرُوبُهَا صَفْرَاءُ كَالْوَرَسِ
يَجْرِي حِمَامُ الْمَوْتِ فِي النَّفْسِ
وَمَضَى بِفَضْلِ قَضَائِهِ أَمْسٍ^(٢)

مَنَعَ الْبَقَاءَ تَقَلُّبُ الشَّمْسِ
تَجْرِي عَلَى كَبِدِ السَّمَاءِ كَمَا
الْيَوْمَ أَعْلَمُ مَا يَجِيءُ بِهِ

(١) ينظر: الملل والنحل: ٣/ ٧٩-٨٠.

(٢) ينظر: البدء والتاريخ، البلخي: ٣/ ١٧٧.

(وصنف منهم أقرؤوا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث؛ وهم الذين أخبر عنهم القرآن، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(١) فاستدلّ بالنشأة الأولى؛ إذ اعترفوا بالخلق الأول فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^(٢)، وقال: ﴿أَفَعَيَّنَا بِالخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٣) ^(٤) وفي ذلك آيات كثيرة في القرآن المجيد .

(وصنف منهم أقرؤوا بالخلق وابتداء الخلق ونوع من عادة الآخرة، وأنكروا الرُّسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الآخرة، وحجُّوا إليها، ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر، وحلَّلوا وحرَّموا؛ وهم الدَّهْمَاءُ من العرب إلا شذمة منهم نذكُرهم وهم الذين أخبر عنهم التنزيل، وقال تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٥) إلى قوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾^(٦)، فاستدلّ عليهم بأن المرسلين كانوا كذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٧).

وشبهات العرب، كانت مقصورةً على هاتين الشُّبهتين:

(١) يس، الآية: ٧٨.

(٢) يس، الآية: ٧٩.

(٣) ق، الآية: ١٥.

(٤) الملل والنحل: ٣/ ٨٠.

(٥) الفرقان، الآية: ٧.

(٦) الإسراء، الآية: ٤٧، ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ هكذا في الملل والنحل.

(٧) الفرقان، الآية: ٢٠.

أحدهما: إنكار البعث، وبعث الأجساد.

والثانية: جحدُ البعث، وبعث الرُّسل.

فعلى الأولى قالوا: ﴿أَيْدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾^(١)، إلى أمثالها من الآيات وعبروا عن ذلك في أشعارهم؛ فقال بعضهم:

حَيَاةٌ تَمَّ مَوْتٌ تَمَّ نَشْرٌ
حَدِيثُ خُرَافَةٍ يَا أُمَّ عَمْرٍو^(٢)

أقول: القائل لهذا البيت هو عبد الله ابن الزبيري^(٣) قبل أن يُسلم؛ وقد كان من أشدَّ الناس على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الجاهلية وعلى أصحابه بلسانه ونفسه، وكان يُناضل عن قريش ويهاجي المسلمين وكان من أشعر قريش ولما فتحت مكة هرب فيمن هرب إلى نجران، فقال حسان ابن ثابت فيه وهو بنجران:

لَا تَعْدَمَنَّ رَجُلًا أَحَلَّكَ بَعْضُهُ
نَجْرَانٌ فِي عَيْشٍ أَجَدَّ لَتَيْمٍ^(٤)

فلما سمع ذلك ابن الزبيري رجع إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال حين أسلم:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي
رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
أَمَّنَ اللَّحْمُ وَالْعِظَامُ لِرَبِّي
تَمَّ قَلْبِي الشَّهِيدُ أَنْتَ النَّذِيرُ

(١) الصفات، الآية: ١٦-١٧.

(٢) الملل والنحل: ٣/ ٨٠-٨١.

(٣) عبد الله بن الزبيري بن قيس بن عدي القرشي السهمي الشاعر، كان من أشعر قريش في الجاهلية، وأسلم بعد الفتح. ينظر: أسد الغابة: ٣/ ١٥٩.

(٤) ديوان حسان بن ثابت: ١/ ٣٣٥، وفيه: (أحد) بدل (أجد).

إِنَّ مَا جِئْنَا بِهِ حَقٌّ صِدْقٍ
أَذْهَبَ اللَّهُ ضَلَّةَ الْجَهْلِ عَنَّا
سَاطِعُ نُورِهِ مُضِيءٌ مُنِيرٌ
وَأَتَانَا الرَّخَاءُ وَالْمَيْسُورُ^(١)

وقال أيضًا في مدح رسول الله (صلى الله عليه وآله):

مَنَعَ الرَّقَادَ بِلَابِلٍ وَهُمُومٌ
مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَامَنِي
يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلْتَ عَلَيَّ أَوْصَالَهَا
إِنِّي لَمُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي
أَيَّامَ تَأْمَرُنِي بِأَعْوَى خُطَّةٍ
فَالْيَوْمَ أَمِنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
مَضَتِ الْعِدَاوَةُ وَانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا
فَاغْفِرْ فِدَى لَكَ وَالِدَيَّ كِلَاهُمَا
وَعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ^(٢) الْمَلِكِ عَلَامَةٌ
أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بُرْهَانَهُ
وَلَقَدْ شَهِدْتُ بِأَنَّ دِينَكَ صَادِقٌ
وَاللَّيْلُ مُعْتَلِجٌ^(٣) الرَّوَّاقِ بَهِيمٌ^(٤)
فِيهِ فَبْتُ كَأَنِّي مَحْمُومٌ
عَيْرَانَةٌ^(٥) سُرْحُ الْيَدَيْنِ غَشُومٌ
أَسَدَيْتُ إِذْ أَنَا فِي الضَّلَالِ أَهِيمٌ
سَهْمٌ وَتَأْمَرُنِي بِهَا مَخْرُومٌ
قَلْبِي وَمُخْطِئٌ هَذِهِ مَحْرُومٌ
وَدَعْتُ^(٦) أَوَاصِرُ بَيْنَنَا وَحُلُومٌ
زَلَلِي فَإِنَّكَ^(٧) رَاحِمٌ مَرْحُومٌ
نُورٌ أَعْرُ وَخَاتَمٌ مَخْتُومٌ
شَرْفًا وَبُرْهَانُ الْإِلَهِ عَظِيمٌ
حَقٌّ وَأَنَّكَ فِي الْعِبَادِ جَسِيمٌ

- (١) ينظر: الاستيعاب، ابن عبد البر: ٩٠٢/٣، مناقب آل أبي طالب: ١/١٤٤.
(٢) (سمة) هكذا في: الاستيعاب: ٩٠٣/٣، أسد الغابة: ٣/١٦٠.
(٣) في مفتاح السعادة (مقبلح)، وما أثبتناه من المصدر كونه الأوفق بالسياق.
(٤) (لئيم) هكذا في: أسد الغابة: ٣/١٦٠.
(٥) (عميرانة) هكذا في: أسد الغابة: ٣/١٦٠.
(٦) (وأنت) هكذا في: الاستيعاب: ٩٠٣/٣، أسد الغابة: ٣/١٦٠.
(٧) في مفتاح السعادة (فإني) وما أثبتناه من المصدر كونه الأوفق بالسياق.

والله يشهد أن أحمد مصطفى

مُستقبل في الصالحين كريم

قرم علا بنيانه من هاشم

فرع تمكّن في الدرّى وأروم^(١)

(وبعضهم في مرثية أهل بدر من المشركين ما يدلّ على سوء رأيهم، وفساد مذهبهم؛ كقول أبي بكر ابن الأسود الليثي؛ وهو شدّاد بن الأسود في مرثيته أهل بدر من المشركين، حيث قال:

تُحيي بالسلامة^(٢) أمّ بكرٍ

فهل لي بعد قومي من سلام

فماذا بالقلب قلب بدرٍ

من القينات والشرب الكرام

ومادا بالقلب قلب بدرٍ

من الشيزي تكلل بالسنام

وكم لك بالطوي طوي بدرٍ

من الحومات والنعم المسام

وكم لك بالطوي طوي بدرٍ

من الغيات والدسع العظام

وأصحاب الكريم أبي عليّ

أخي الكاس الكريمة والندام

وانك لو رأيت أبا عقيلٍ

وأصحاب الثيّبة من نعام

إذا لظلمت من وجد عليهم

كأمّ السقب جائلت المرام

يُخبرنا الرسول بأن سنخيا

وكيف حياة أصداء وهام^(٣)

وصنف منهم يعتقد بالتناسخ

(فيقول: إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دمّ الدماغ وأجزاء بنيته فانصب طيراً هامةً يرجع إلى رأس البقر كلّ مائة سنة؛ ولهذا عابهم الرسول (صلى الله

(١) ينظر: الاستيعاب: ٣/٩٠٣، أسد الغابة: ٣/١٦٠.

(٢) في مفتاح السعادة (بالسلافة) وما أثبتناه من المصدر كونه الأوفق بالسياق.

(٣) السيرة النبوية، ابن كثير: ٢/٥٣٥-٥٣٦.

عليه وآله) فقال: لا هامة ولا عدوى ولا صفر^(١).

أقول: ومما اجتمعت عليه العرب عقيدة الهامة؛ وهو أنهم يقولون: (ليس من ميّت يموت ولا قتيل يُقتل إلا ويخرج من رأسه هامة، فإن كان ولم يؤخذ بثأره نادى الهامة على قبره: أسقوني فيّ صديّة)^(٢)، ونقل عن المسعودي في مروج الذهب أنه قال: ومن العرب من يزعم أن النفس طائر ينسط في الجسم، فإذا مات الإنسان أو قُتل لم يزل يطيفُ به مستوحشًا يصدع على قبره، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرًا، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبدًا متوحش ويوجد في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور، وأنها لم تزل عند وُلد الميت ومُخلفه حتى تعلم ما يكون بعده فتُخبره^(٣). انتهى.

وقيل (الهامة أنثى الصدى وهو ذكر البوم وقد يُسمونها الصدى والجمع أصداء)^(٤) قال قائلهم يخبرنا الرسول بأن سَنَحِيًّا^(٥) إلخ، وقال أبو دؤاد الإيادي في هذا المعنى:

سُلِّطَ الْمَوْتُ وَالْمَنُونُ عَلَيْهِمْ
وَلَا تَزُقُونَ لِي هَامَةً فَوْقَ مَرْقَبٍ
تُنَادِي أَلَا اسْقُونِي وَكُلُّ صَدَى بِهِ
فَالَهُمْ فِي صَدَى الْمُقَابِرِ هَامٌ^(١)
فَإِنَّ زُقَاءَ الْهَامِ لِلْمَرْءِ عَائِبٌ
وَتِلْكَ الَّتِي تَبِيضُ مِنْهَا الذَّنَائِبُ^(٢)

(١) الملل والنحل: ٨١ / ٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ٣٩١ / ١٩.

(٣) ينظر: مروج الذهب: ١٣٢ / ٢ - ١٣٣.

(٤) ينظر: الصحاح: ٢٣٩٩ / ٦، مادة (صدي).

(٥) ينظر: صحيح البخاري: ٤ / ٢٦٣.

(١) ديوان أبي دؤاد الإيادي: ١٦٥. وفيه: (الدهر) بدل (الموت).

(٢) شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ٣٩١ - ٣٩٢ / ١٩. وهذان البيتان ليسا لأبي دؤاد حسب ما نقل

(وأما الشبهة الثانية وهم الجاحدون لبعث الرسول في الصورة البشريّة، فإنكارهم أشدّ وإصرارهم على ذلك أبلغ، وأخبر عنهم القرآن بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١)، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ﴾^(٢) الآية، فعلى هذا من كان يعترف بالملائكة يريد أن يأتي ملكٌ من السماء ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾^(٣)، ومن كان لا يعترف بهم كان يقول: الشفيع والوسيلة منّا إلى الله هم الأصنام المنصوبة، أمّا الأمر والشرعية من الله إلينا فهو المنكر؛ فيعبدون الأصنام - التي هي الوسائل بزعمهم - ودًا وسواعًا ويغوثة ويعوق ونسرا ثمّ، قال: وكان ودّ لكلب وهو بدومة الجندل، وسواغ لهذيل وكانوا يحجّون إليه وينحرون له، ويغوثة لمذحج ولقبائل من اليمن، ويعوق لهمدان، ونسر لذي الكلاع بأرض حمير، وأمّا اللات فكان لشقيف بالطائف، والعزى لقريش وجميع بني كنانة وقوم من بني سليم، ومناة للأوس والخزرج وغسان، وهبل أعظم أصنامها عندهم وكان على ظهر الكعبة، وأساف ونائلة على الصفا والمروة وضعها عمرو بن لحي وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة، وزعموا أنّهما كانا من حبرهم أساف ابن عمر ونائلة بنت سهل ففجّرا في الكعبة فمسخا حجّرين، وقيل لا؛ بل كانا صنمين جاء بها عمرو بن لحي فوضعها على الصفا وكان لبني ملكان من كنانة صنمٌ يُقال له سعد كما قال قائلهم:

المعتزليّ، والبيت الأول نسبه الجاحظ إلى خزيمة بن أسلم باختلاف في بعض ألفاظ الشعر الثاني، ينظر: الحيوان، الجاحظ: ٤٠٨/٢٠.

(١) الإسرائاء، الآية: ٩٤.

(٢) التغابن، الآية: ٦.

(٣) الأنعام، الآية: ٨.

أَتَيْنَا إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا فَشَتَّتْنَا سَعْدٌ فَلَا نَحْنُ مِنْ سَعْدٍ
 وَهَلْ سَعْدٌ إِلَّا صَخْرَةٌ بِتَنُوفَةٍ مِنْ الْأَرْضِ لَا يَدْعُو لِعِيٍّ وَلَا رُشْدٍ
 وكانت العرب إذ لَبَّتْ وهَلَّتْ قالت: لَيْيِكَ اللَّهُمَّ لَيْيِكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا
 شَرِيكَ هُوَ لَكَ تَمْلُكُهُ وَمَا مَلَكَ (١). انتهى.

وقيل: أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ مِنْ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ هَذَا بَنُؤُا ابْنِ مَدْرَكَةَ؛
 اتَّخَذَ سِوَا عَمَّا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ (٢).

(وصنف منهم يميل إلى اليهودية، ومنهم مَنْ كان يميل إلى النصرانية، ومنهم
 من يصبو إلى الصابئة، فكانت اليهودية في حَمِير، والنصرانية في ربيعة، وعدنان
 وبعض قضاة وكأثم تلقوا ذلك عن الروم، أمَّا الصابئة فقد اعتقدوا في
 الأنواء اعتقاد المنجمين في السيَّارات حتَّى لا يتحرَّك ولا يسكن ولا يسافر
 ولا يقيم إلا بنوءٍ من الأنواء، ويقولون مطرنا بنوء كذا، ومنهم من يصبوا إلى
 الملائكة فيعبدهم بل كانوا يعبدون الجنَّ، ويعتقدون فيهم أنَّهم بنات الله (٣)،
 وقد اختلف الناس فيهم اختلافًا كثيرًا بحسب ما وصل إليهم من معرفة
 دينهم وهم ينقسمون إلى مؤمن وكافر؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
 هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٤)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
 وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (٥)، فذكر

(١) ينظر: الملل والنحل: ٣/ ٨١-٨٢.

(٢) ينظر: معجم البلدان: ٣/ ٢٧٦.

(٣) ينظر: الملل والنحل: ٣/ ٨٢.

(٤) البقرة، الآية: ٦٢.

(٥) الحج، الآية: ١٧.

المجوسَ والمشركين في آية الفصل ولم يذكرهم في آية الوعد بالجنة، وذكر الصابئين فيهما؛ فعلم أن فيهم الشقي والسعيد، والمشهور أنهم كانوا من قوم إبراهيم الخليل، وكانوا بحرّان في دار الصابئة وكانوا صابئة حنفاء وصابئة مشركين، والمشركون منهم يعظّمون الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر ويصوّرنها في هياكلهم وهي كالكنائس للنصارى والبيع لليهود، فلهم هيكَلٌ كبير للشمس، وهيكلٌ للقمر، وهيكلٌ للزهرة، وهيكلٌ للمشتري، وهيكلٌ للمريخ، وهيكلٌ للعطارد، وهيكلٌ للزحل، وهيكلٌ للعلة الأولى، ولهذه الكواكب عندهم دعوات وعبادات مخصوصة ويصوّرونها في تلك الهياكل ويتخذون لها أصنامًا تخصّها ويقربون لها القرابين، إلى غير ذلك.

وأما عبدة الملائكة:

وهم أفراد من العرب؛ كما حكاه في القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثَمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾^(٢)، ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾^(٣).

وأما عبدة الجن:

(١) سبأ، الآية: ٤٠-٤١.

(٢) الفرقان، الآية: ١٧.

(٣) الفرقان، الآية: ١٨.

وهم شرذمة قليلون من أهل البوادي قد حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾^(٢)، وأمثال ذلك من الآيات.

وأما عبدة النار وهم صنف من العرب، وكان ذلك سرى إليهم من الفرس والمجوس، وقد قيل أن عبادة النار كانت في الأرض من عهد قابيل، كما نقلنا ما يدل على ذلك؛ فإنه أول من نصب النار وعبدها، وسرى هذا المذهب في المجوس، فبنوها بيوتاً كثيرة واتخذوا الوقوف والسدنة والحجاب فلا يدعونها تحمد لحظة واحدة، فاتخذ أفريدون بيتاً بطوس وآخر ببخارى، واتخذ لها بهمن بيتاً، اتخذ لها أبو قتادة بيتاً بناحية بخارى، واتخذت لها بيوتاً كثيرة، وعباد النار يفضلونها على التراب ويعظمونها ويصوبون رأي إبليس^(٣)، وقد رُمي بشارٌ بهذا:

الأرض سافلةٌ سوداءٌ مظلمةٌ
والنارُ معبودةٌ منذ كانتِ النارُ^(٤).

ويقولون: إنها أوسع العناصر خيراً وأعظمها جرماً، وأوسعها مكاناً، وأشرقها جوهرًا وألطفها جسمًا، ولا كَوْنٌ في العالم إلا بها، ولا نموٌّ ولا انعقاد إلا بممازجتها، وأمثال ذلك من الأقاويل والأباطيل^(٥).

(١) الجن، الآية: ٦.

(٢) سبأ، الآية: ٤١.

(٣) ينظر: نهاية الأرب، النويري: ١٠٥ / ١.

(٤) ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ: ٢٤، الأمالي، الشريف المرتضى: ٩٦ / ١.

(٥) مفتاح السعادة: ٤٤٩-٤٦٤ / ١.

عاشراً- مكارم الشيرازي:

قال: «قال (عليه السلام): (وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَّةٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَشِيرَةٌ وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ).

عليه فالمراد بقوله (عليه السلام): (مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ) هو ما أشرنا إليه سابقاً من نعت الأصنام بأسماء الله؛ على سبيل المثال: كانوا يُسْمُون أحد الأصنام باللات والآخر بالعزى والثالث بمناة، وهي الأسماء التي اشتقت على التوالي من أسماء الله والعزير والمنان، أو أن يكون المراد منها إضفاء صفات الله على المخلوقين، ولا مانع من الجمع بين التفسيرين»^(١).

حادي عشر- السيد نبيل الحسنی:

يُرشد قوله (عليه الصلاة والسلام): (وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَّةٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَشِيرَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ) -فضلاً عما أفاده الشُّراح- إلى أمورٍ منها:

أولاً- بيانه (عليه السلام) لِمَا شاب الفترة الزمنية التي بُعث فيها النبي (صلى الله عليه وآله).

إنَّ ممَّا لا ريبَ فيه أن أمير المؤمنين (عليه السلام) يتحدث عن الفترة الزمنية التي بُعث فيها النبي (صلى الله عليه وآله) وما شابها من الضلال والشبهات والانحدار الفكري في تعدد الوثنية وأشكالها وأنواعها والذي لم يُر له مثل في زمنٍ من الأزمنة التي سبقتة، كما مرَّ بيانه في البحث السابق في بيانه (عليه

(١) نفحات الولاية: ١/ ١٥٠.

الصلاة والسلام) في اصطفاء الأنبياء من ولد آدم وبيان حال الناس كقوله (عليه السلام): «لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَجَهَلُوا حَقَّهُ وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ، وَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ».

ومن ثمَّ يكمن انحراف الناس آنذاك في المعرفة بالله تعالى، لكن الأمر في زمن النبي (صلى الله عليه وآله) يختلف عن كل الأزمنة في تنوع المعتقدات والملل والمذاهب التي انتشرت والتي أشار إليها النص الشريف -مورد البحث-.

ثانياً- دلالة قوله (عليه السلام): «وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ» في تحديد سمات الاختلاف بين عصر النبي (صلى الله عليه وآله)، والعصور السالفة.

إنَّ الاختلاف بين عصر النبي (صلى الله عليه وآله) والعصور السالفة، أنَّ هذه الملل والمعتقدات والمذاهب لم تكن محصورة في فئة محددة من الناس كما هو حال الأنبياء (عليهم السلام)، فقد بين القرآن حالهم وحال الأمم التي بعثوا فيها وحدد معتقداتهم، ولاسيما أولو العزم؛ كنوح، وإبراهيم، موسى، وعيسى، (عليهم السلام)، أو غيرهم من الأنبياء الذين تحدّث عنهم الوحي في مُحكم التنزيل؛ كصالح، وهود، ولوط، ويحيى، وزكريا، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسحاق، وإسماعيل، ويعقوب، ويوسف (سلام الله عليهم أجمعين).

ومن ثمَّ: لم يكن الأمر عالمياً كما هو حال العصر الذي بعث فيه النبي (صلى الله عليه وآله)، فقد أرسله الله لجميع أهل الأرض؛ وذلك لقوله (عليه السلام): «وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ»، ومن ثمَّ فالعلاج لا ينحصر بمكانٍ أو فئةٍ أو ملةٍ أو معتقدٍ، بل عامٌّ وشامل لجميع أهل الأرض.

ثالثاً- بيانه (عليه السلام) لجهد النبي (صلى الله عليه وآله) الذي يتناسب مع بعثه لأهل الأرض ومعتقداتهم:

إنّ الأمر الأساس الذي يُرشد إليه النصّ الشريف هو بيان الجهد الذي بذله رسول الله (صلى الله عليه وآله) في التبليغ وإرشاد الناس وهدايتهم؛ والتي عبّر عنها القرآن الكريم بالمنة؛ وذلك لإخراجهم به (صلى الله عليه وآله) من الضلال المبين، فقال عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١)، أي إنّ منزلته ومقامه عند الله تعالى تتناسب مع حجم جهده وجهاده في الرسالة، ولذا خاطبه عزّ شأنه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾^(٢).

وقد تناول أمير المؤمنين (عليه السلام) هذه الحقيقة في موارد عدّة في خطبه ومواعظه للناس، وقد تناولناها بنحوٍ دقيق عبر بحثنا الموسوم بـ (أثر الميثولوجيا العالميّة في تكوين عقائد العرب قبل الإسلام في ضوء التاريخ ونهج البلاغة)^(٣) فخلصت الدراسة إلى جملة من النتائج، منها:

١- لقد أسهمت الدراسات المتعدّدة لعلم الميثولوجيا في تقديم رؤية جديدة وفهمٍ لكثير من المعتقدات التي كانت سائدة في عصورٍ مختلفة قبل الإسلام؛ سواء ما كان منها في أرض الجزيرة العربية ولاسيّما أرض مكّة بوصفها محلاً

(١) آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٢) الأحزاب، الآية: ٤٥.

(٣) إصدار مؤسسة علوم نهج البلاغة، العتبة الحسينيّة المقدّسة، طبع دار الوارث ٢٠٢٣ م.

لبيت الله الحرام وما تركه من أثرٍ في نفوس العرب، أو سواء في أرض الرافدين، أو أرض مصر، أو أرض فارس، أو أقصى الشرق في الصين. فضلاً عن تمدد الإمبراطورية الرومية وتوغّلها في أرض الشام ونقل معتقداتها إلى العرب.

٢- إن عملية التجارة بين أهل مكة والشام واليمن والعراق ومصر وبلاد فارس وأقصى الشرق وغيرها قد شكّلت عنصراً أساسياً في تلاقي الميثولوجيا العالمية ونفوذها بين العرب؛ مما شكّل مزيجاً من الأفكار والتوجهات والآراء التي ظهرت بمختلفها في أرض الحجاز ولاسيما أرض مكة ممثلاً في عبادة الأصنام والكواكب والحيوان والأشجار والجن، وامتهان التكهن وجعلهم وسطاء بين الإنس والجن، متخذين جملةً من الطقوس في الأمن من شرّها أو الحصول على نفعها إلى الحد الذي اعتقدوا فيها بوقوع التزاوج فيما بين العالمين، أي الإنس والجن.

٣- لقد سرّت الوثنية بكلّ ضروبها وأشكالها في الجزيرة العربية ووصلت إلى حدّ الاستهتار والاستخفاف بالعقل البشري والفكري ولاسيما فيما يعتقده أهل مكة؛ وذلك بفعل رمزية البيت الحرام وصبابته بها، بل جعل من عناصر بيئتها كالنخلة والناقة رمزاً يحذو حذوه بالتقرب والالتجاء لجلب المنفعة ودفع المضرة.

٤- إن كتاب نهج البلاغة يُعدّ وثيقةً تاريخيةً مهمّةً لمعرفة عقائد العرب قبل الإسلام وأحوالهم الحياتية والمعيشية ولاسيما أن أمير المؤمنين الإمام علياً (عليه السلام) قد شهد هذه الأيام وأحوال العرب؛ فكان شاهداً عليهم، ومنذراً لهم، ومبصّراً، وناصحاً، وهادياً بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ولذا: نجد خطابه فيهم مُفعماً بتلك المشاهد الحياتية والمحن الفكرية التي عايشوها كابرًا عن كابر، فكان بين مُذَكِّرٍ ومُنذِرٍ ومُبَصِّرٍ ومُرشدٍ؛ كي لا يقعوا مرّةً أخرى في براثن الانحراف الفكريّ، وضروب الوثنية التي تعاود الظهور عبر الفتن والمحدثات والبدع في الأمة.

والحمدُ لله على فَضْلِهِ وَفَضْلِ رَسُوْلِهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ).

المطلب السادس: الحقول المعرفية في قوله (عليه السلام): «فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ».

اشتمل النصُّ الشريف على جملةٍ من الحقول المعرفية؛ كاللُّغة، والإعراب، والشرح، وهي على النَّحْوِ الآتي:

المسألة الأولى: المعنى اللُّغويّ:

أولاً- الخوئيّ:

قال: «الإنقاذ: كالنقذ والاستنقاذ التخليص^(١)، والمكان: مصدر بمعنى الكون^(٢)»^(٣).

ثانياً- النقويّ:

قال: «الإنقاذ، النجاة من الورطة وخلاصه^(٤)»^(٥).

(١) ينظر: الصحاح: ٢/ ص ٥٧٢، مادة (نقذ).

(٢) ينظر: لسان العرب: ١١/ ٦١٨ مادة (مكان).

(٣) منهاج البراعة: ٢/ ص ١٦٢.

(٤) ينظر: لسان العرب: ٣/ ٥١٦، مادة (نقذ).

(٥) مفتاح السعادة: ١/ ٣٨٤.

المسألة الثانية: الإعراب:

أولاً- الخوئي:

قال: «الباء في (بِمَكَانِهِ) سببية؛ أي: أنقذهم بسبب كونه ووجوده (صلى الله عليه وآله) (مِنَ الْجَهَالَةِ)»^(١).

ثانياً- مؤسّسة علوم نهج البلاغة:

«فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ»: الفاء عاطفة، (هَدَاهُمْ): فعل ماضٍ مبني على فتح مقدر، والفاعل ضمير مستتر يعود على الله تعالى، (بِهِ): جارٍ ومجرور متعلق بالفعل (هدى)، (مِنَ الضَّلَالَةِ): جارٍ ومجرور متعلق بالفعل (هدى) والجملة معطوفة على سابقتها.

«وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ»: الواو عاطفة، (أَنْقَذَهُمْ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتح، والفاعل ضمير مستتر يعود على لفظ الجلالة، و(هم) ضمير في محلِّ نصب مفعول به، (بِمَكَانِهِ): الباء حرف جر، و(مكانه): اسم مجرور وهو مضاف والهاء ضمير متصل في محلِّ جرٍّ مضاف إليه، (مِنَ الْجَهَالَةِ): جارٌّ ومجرور متعلق بالفعل (أنقذ) والجملة معطوفة على سابقتها.

المسألة الثالثة: أقوال الشراح:

أولاً- الراوندي:

قال: «ختم الله به النبوة، وأظهر أمره في حالة كان بسيطاً الأرض فيها ملآن من الكفر، لا يُعبد الله إلا نادراً، فدعاهم إلى الهدى، وخلصهم من الردى»^(٢).

(١) منهاج البراعة: ١٦٣/٢.

(٢) منهاج البراعة: ٨٦/١.

ثانياً- البحراني:

قال: «لما اقتضت العناية بعثته (صلى الله عليه وآله)؛ ليهدوا سبيل الحق، ويفيئوا من ضلالهم القديم إلى سلوك الصراط المستقيم، ولينقذهم ببركة نوره من ظلمات الجهل إلى أنوار اليقين، فقام بالدعوة إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، فجلى الله بنوره صداء قلوب الخلق، وأزهق باطل الشيطان، بما جاء به من الحق والصدق، وانطلقت الألسن بذكر الله، واستنارت البصائر بمعرفة الله، وكمل به دينه في أقصى بلاد العالم، وأتمّ به نعمته على كافة عباده، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١)»^(٢).

ثالثاً- الخوئي:

قال: «(فَهَدَاهُمْ) الله سبحانه (به) (صلى الله عليه وآله)؛ أي: بنور وجوده (مِنَ الضَّلَالَةِ) والغواية، (وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ): أي: خلّصهم وأنجاهم بكونه ووجوده (مِنَ) ظلمة (الْجَهَالَةِ)؛ فانجلى به عين قلوب العارفين، واضمحل باطل الشيطان بما جاء به من الحق اليقين»^(٣).

رابعاً- التستري:

قال: «(فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ) قال الشاعر:

(١) المائدة، الآية: ٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠٧.

(٣) منهاج البراعة: ٢/ ١٧٤.

رَأَيْتُ الصَّدْعَ مِنْ كَعْبٍ وَكَانُوا مِنْ الشَّنَانِ قَدْ صَارُوا كِعَابًا^(١)

وفي الاحتجاج: اجتمع عند النبي (صلى الله عليه وآله) يوماً خمسة أديان: اليهود، والنصارى، والدهرية، والثنوية، ومشركو العرب، فقالت اليهود: نحن نقول: عزير ابن الله وقد جنناك يا محمد لننظر ما تقول؛ فإن تبعنا فنحن أسبق إلى الصواب منك، وإن خالفنا خصمناك. وقالت النصارى: نحن نقول: إن المسيح ابن الله اتحد به، وقد جنناك لننظر ما تقول، فإن تبعنا فنحن أسبق منك إلى الصواب، وإن خالفنا خصمناك. وقالت الدهرية: نحن نقول: لا بدء لها وهي دائمة، وقد جنناك لننظر فيما تقول، فإن تبعنا فنحن أسبق منك إلى الصواب، وإن خالفنا خصمناك. وقال الثنوية: نحن نقول: النور والظلمة هما المدبران، وقد جنناك لننظر فيما تقول، فإن تبعنا فنحن أسبق إلى الصواب منك، وإن خالفنا خصمناك.

فقال النبي (صلى الله عليه وآله): آمَنْتُ بِاللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَكَفَرْتُ بِكُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَنِي كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا حُجَّةً عَلَى الْعَالَمِينَ، سِيرُودٌ كَيْدٌ مَنْ يَكِيدُ دِينَهُ فِي نَحْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لليهود: أَجِئْتُمُونِي لِأَقْبَلَ قَوْلَكُمْ بِغَيْرِ حُجَّةٍ؟ قالوا: لا، قال: فَمَا الَّذِي دَعَاكُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ عَزِيرًا ابْنُ اللَّهِ؟ قالوا: لَأَنَّهُ أَحْيَا لِبْنِي إِسْرَائِيلَ التَّوْرَةَ بَعْدَمَا ذَهَبَتْ، وَلَمْ يَفْعَلْ بِهَا هَذَا إِلَّا لِأَنَّهُ ابْنُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله): فَكَيْفَ صَارَ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ دُونَ مُوسَى، وَهُوَ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِمُ بِالتَّوْرَةِ وَرَأَيْ

(١) البيت لمعاوية بن مالك الملقب ب(معوذ الحكماء)، ينظر: الدياج لأبي عبيدة، معمر بن المثنى: ١٧، كتاب سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر: ٣/ ٣٩٧.

مِنْهُ الْمُعْجَزَاتِ؟ وَلَئِنْ كَانَ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ لِمَا أَظْهَرَ مِنَ الْكِرَامَةِ بِأَحْيَاءِ التَّوْرَةِ، فَلَقَدْ كَانَ مُوسَى بِالْبُنُوَّةِ أَوْلَى، وَلَئِنْ كَانَ هَذَا الْمُقْدَارُ مِنَ الْكِرَامَةِ لِعَزِيزٍ تُوجِبُ كَوْنَهُ ابْنَهُ، فَأَضَعَفُ هَذِهِ الْكِرَامَةَ لِمُوسَى تُوجِبُ لَهُ مَنَزَلَةً أَجَلَ مِنَ النَّبُوَّةِ، ثُمَّ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ [بِ]الْبُنُوَّةِ الْوِلَادَةَ عَلَى سَبِيلِ مَا تُشَاهِدُونَهُ فِي دُنْيَاكُمْ هَذِهِ مِنْ وِلَادَةِ الْأُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ بِوَطْءِ آبَائِهِمْ لِهِنَّ، فَقَدْ كَفَرْتُمْ بِاللَّهِ وَشَبَّهْتُمُوهُ بِخَلْقِهِ، وَأَوْجَبْتُمْ فِيهِ صِفَاتِ الْمُحَدَّثِينَ، وَوَجَبَ عِنْدَكُمْ أَنْ يَكُونَ مُحَدَّثًا مَخْلُوقًا، وَأَنَّ لَهُ حَالِقًا صَنَعَهُ وَابْتَدَعَهُ، قالوا: لسنا نعني هذا، فإن هذا كفرٌ كما قلت؛ لكن نعني أنه ابنه على معنى الكرامة، وإن لم يكن هناك ولادة، كما قد يقول بعض علمائنا لمن يريد إكرامه وإباته بالمنزلة من غيره: (يا بُنَيَّ) و (أنه ابني) لا على إثبات ولادة منه؛ لأنّه قد يقول ذلك لمن هو أجنبيٌّ منه لا نسبَ بينه وبينه، وكذلك لما فعل الله بعزيرٍ ما فعل، كان قد اتَّخذه ابنًا على الكرامة لا الولادة، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

فَهَذَا مَا قُلْتُمْ لَكُمْ: إِنَّهُ إِنْ وَجَبَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَنْ يَكُونَ عَزِيزٌ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَنَزَلَةَ لِمُوسَى أَوْلَى، وَإِنَّ اللَّهَ يَفْضَحُ كُلَّ مُبْطِلٍ بِإِقْرَارِهِ، وَيُغْلِبُ عَلَى حُجَّتِهِ، إِنْ مَا احْتَجَجْتُمْ بِهِ يُؤَدِّيكُمْ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِمَّا ذَكَرْتُمْ لَكُمْ؛ لِأَنَّكُمْ قُلْتُمْ: إِنَّ عَظِيمًا مِنْ عَظَمَائِكُمْ قَدْ يَقُولُ لِأَجْنَبِيٍّ لَا نَسَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ: (يَا بُنَيَّ) لَا عَلَى طَرِيقِ الْوِلَادَةِ، فَقَدْ تَجِدُونَ هَذَا الْعَظِيمَ يَقُولُ لِأَجْنَبِيٍّ آخَرَ: (هَذَا أَخِي) وَلَا آخَرَ: (هَذَا شَيْخِي، وَأَبِي)، وَلَا آخَرَ: (هَذَا سَيِّدِي) و (يَا سَيِّدِي)، عَلَى سَبِيلِ الْإِكْرَامِ، وَإِنَّ مَنْ زَادَهُ فِي الْكِرَامَةِ زَادَهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ، فَإِذَا يَجُوزُ عِنْدَكُمْ أَنْ يَكُونَ مُوسَى أَخًا لَهُ أَوْ شَيْخًا لَهُ أَوْ أَبًا أَوْ سَيِّدًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ زَادَهُ فِي الْإِكْرَامِ مِمَّا لِعَزِيزٍ، فَبُهِتَ الْقَوْمُ وَتَحَيَّرُوا وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَجَلْنَا نَتَفَكَّرُ فِيهَا قُلْتَهُ لَنَا، فَقَالَ: انظُرُوا

فِيهِ بِقُلُوبٍ مُّعْتَقِدَةٍ لِلْإِنصَافِ يَهْدِكُمْ اللَّهُ.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّصَارَى، فَقَالَ لَهُمْ: وَأَنْتُمْ قُلْتُمْ: إِنَّ الْقَدِيمَ (عَزَّ وَجَلَّ) اتَّخَذَ بِالْمَسِيحِ ابْنِهِ، مَا الَّذِي أَرَدْتُمْ بِهِذَا الْقَوْلِ؟ أَرَدْتُمْ أَنْ الْقَدِيمَ صَارَ مُحَدَّثًا بِوُجُودِ هَذَا الْمُحَدَّثِ، أَمْ الْمُحَدَّثُ الَّذِي هُوَ عَيْسَى صَارَ قَدِيمًا بِوُجُودِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ اللَّهُ، أَوْ مَعْنَى قَوْلِكُمْ: (اتَّخَذَ بِهِ) أَنَّهُ اخْتَصَّهُ بِكَرَامَةٍ لَمْ يُكْرِمَ بِهَا أَحَدًا سِوَاهُ؟ فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ الْقَدِيمَ صَارَ مُحَدَّثًا فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ، لِأَنَّ الْقَدِيمَ مُحَالٌ أَنْ يَنْقَلِبَ فَيَصِيرَ مُحَدَّثًا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَّ الْمُحَدَّثَ صَارَ قَدِيمًا فَقَدْ أَحَلْتُمْ؛ لِأَنَّ الْمُحَدَّثَ أَيْضًا مُحَالٌ أَنْ يَنْقَلِبَ فَيَصِيرَ قَدِيمًا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ فِي قَوْلِكُمْ: (اتَّخَذَ بِهِ) بِأَنْ اخْتَصَّهُ وَاصْطَفَاهُ عَلَى سَائِرِ عِبَادِهِ، فَقَدْ أَقْرَرْتُمْ بِحُدُوثِ عَيْسَى وَبِحُدُوثِ الْمَعْنَى الَّذِي اتَّخَذَ بِهِ مِنْ أَجْلِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَيْسَى مُحَدَّثًا وَكَانَ اللَّهُ اتَّخَذَ بِهِ، بِأَنْ أَحَدَثَ فِيهِ مَعْنَى، صَارَ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عِنْدَهُ، فَقَدْ صَارَ عَيْسَى وَذَلِكَ الْمَعْنَى مُحَدَّثَيْنِ، وَهَذَا خِلَافٌ مَا بَدَأْتُمْ بِهِ تَقُولُونَهُ.

فَقَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَظْهَرَ عَلَى يَدِ عَيْسَى مِنَ الْأَشْيَاءِ الْعَجِيبَةِ مَا أَظْهَرَ فَقَدْ اتَّخَذَهُ وَلَدًا عَلَى جِهَةِ الْكَرَامَةِ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): فَقَدْ سَمِعْتُمْ مَا قُلْتُمْ لِلْيَهُودِ فِي هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْتُمُوهُ، ثُمَّ أَعَادَ ذَلِكَ كُلَّهُ فَسَكَتُوا إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): أَوْلَسْتُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ؟ قَالَ: قَدْ قُلْنَا ذَلِكَ، قَالَ الرَّجُلُ: فَإِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ، فَلِمَ مَنَعْتُمُونَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ عَيْسَى ابْنُ اللَّهِ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):

إِنَّهُمَا لَا يَتَشَابَهُانِ؛ لِأَنَّ قَوْلَنَا: إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ، إِنَّمَا هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْخَلَّةِ

أَوِ الْخَلَّةِ؛ فَأَمَّا الْخَلَّةُ فَإِنَّهَا مَعْنَاهَا الْفَقْرُ وَالْفَاقَةُ، فَقَدْ كَانَ خَلِيلًا، أَي: إِلَى رَبِّهِ فَقِيرًا وَإِلَيْهِ مُنْقَطِعًا، وَعَنْ غَيْرِهِ مُتَعَفِّفًا مُعْرِضًا مُسْتَعْنِيًا؛ وَذَلِكَ لَمَّا أُرِيدَ قَذْفُهُ فِي النَّارِ، فَرَمِي بِهِ فِي الْمَنْجَنِيْقِ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَى جِبْرِئِيلَ أَدْرِكْ عَبْدِي، فَجَاءَ فَلَقِيَهُ فِي الْهَوَاءِ، فَقَالَ: كَلَّفَنِي مَا بَدَا لَكَ، قَدْ بَعَثَنِي اللهُ لِنُصْرَتِكَ، فَقَالَ: بَلْ حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، إِنِّي لَا أَسْأَلُ غَيْرَهُ، وَلَا حَاجَةَ لِي إِلَيْكَ، فَسَمَاهُ خَلِيلَهُ، أَي: فَقِيرَهُ وَمُحْتَاجَهُ، وَالْمُنْقَطِعَ إِلَيْهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، وَإِذَا جَعَلَ مَعْنَى ذَلِكَ مِنَ الْخَلَّةِ؛ وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ تَخَلَّلَ مَعَانِيَهُ، وَوَقَفَ عَلَى أَسْرَارِ لَمْ يَقِفْ عَلَيْهَا غَيْرُهُ، كَانَ مَعْنَاهُ الْعَالِمُ بِهِ وَبِأُمُورِهِ، وَلَا يُوجِبُ ذَلِكَ تَشْبِيهُهُ اللهُ بِخَلْقِهِ؛ أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَنْقَطِعْ إِلَيْهِ لَمْ يَكُنْ خَلِيلَهُ، وَإِذَا لَمْ يَعْلَمْ بِأَسْرَارِهِ لَمْ يَكُنْ خَلِيلَهُ، وَإِنَّ مَنْ يَلِدُهُ الرَّجُلُ وَإِنْ أَهَانَهُ وَأَقْصَاهُ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ أَنْ يَكُونَ وَلَدَهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَى الْوِلَادَةِ قَائِمٌ؟ ثُمَّ إِنَّ وَجَبَ لِأَنَّهُ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ خَلِيلِي، أَنْ تَقْيَسُوا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: إِنَّ عَيْسَى ابْنَهُ، وَجَبَ أَيْضًا كَذَلِكَ أَنْ تَقُولُوا لِـمُوسَى أَنَّهُ ابْنُهُ، وَأَنْ يَجُوزَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى هَذَا الْمَعْنَى: أَنَّهُ شَيْخُهُ وَسَيِّدُهُ وَعَمُّهُ وَرَأْسُهُ وَأَمِيرُهُ كَمَا ذَكَرْتَهُ الْيَهُودُ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: وَفِي الْكُتُبِ الْمَنْزُورَةِ أَنَّ عَيْسَى قَالَ: (أَذْهَبُ إِلَى أَبِي)، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): فَإِنَّ كُنْتُمْ بِذَلِكَ الْكِتَابِ تَعْمَلُونَ، فَإِنَّ فِيهِ: (أَذْهَبُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ)، فَقُولُوا: إِنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ خَاطَبَهُمْ عَيْسَى كَانُوا أَبْنَاءَ اللهِ، كَمَا كَانَ عَيْسَى ابْنَهُ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ عَيْسَى ابْنَهُ، ثُمَّ إِنَّ مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مُبْطَلٌ عَلَيْكُمْ هَذَا الَّذِي زَعَمْتُمْ أَنَّ عَيْسَى مِنْ جِهَةِ الْاِخْتِصَاصِ كَانَ ابْنًا لَهُ لِأَنَّكُمْ قُلْتُمْ: إِنَّهُ ابْنُهُ لِأَنَّهُ اِخْتَصَّ بِهِ لَمْ يَخْتَصَّ بِهِ غَيْرُهُ، وَأَنْتُمْ تَزْعَمُونَ أَنَّ الَّذِي خَصَّ بِهِ عَيْسَى لَمْ يُخَصَّ بِهِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ عَيْسَى: (أَذْهَبُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ)، فَبَطُلَ أَنْ يَكُونَ الْاِخْتِصَاصُ لِعَيْسَى؛ لِأَنَّهُ قَدْ بُبِتَ

عندكم بقول عيسى لمن لم يكن له مثل اختصاص عيسى، وأنتم إنما حكيتُم لفظة عيسى وتأولتموها على غير وجهها؛ لأنه إذا قال: أبي وأبيكم فقد أراد غير ما ذهبتم إليه، وما يديركم لعله عني: (أذهب إلى آدم ونوح)، وأن الله يرفعني إليهم ويجمعني معهم، وآدم أبي وأبوكم وكذلك نوح، بل ما أراد غير هذا، فسكت النصارى، وقالوا: ما رأينا كالיום مجادلاً وسنظر.

ثم أقبل النبي (صلى الله عليه وآله) على الدهريّة، وقال: وأنتم فما الذي دعاكم إلى القول بأنّ الأشياء لا بدء لها وهي دائمة لم تزل ولن تزال؟ فقالوا: لأننا لا نحكم إلا بما نشاهد، ولم نجد لأشياء حدثاً فحكّمنا بأنها لم تزل، ولم نجد لها انقضاء فحكّمنا بأنها لن تزال، فقال: أوجدتم لها قدماً، أم وجدتم لها بقاءً أبد الآباد؟ فإن قلتم: إنكم وجدتم ذلك أثبتتم لأنفسكم أنكم لم تزالوا على هيئتكم وعقولكم بلا نهاية ولا تزلون كذلك، ولئن قلتم ذلك دفعتُم العيان، قالوا: بل لم نشاهد لها قدماً ولا بقاءً أبداً، قال: فلم صرتم بأنّ تحكّموا بالقدم والبقاء دائماً لأنكم لم تُشاهدوا حدوثها، وانقضاءها أولى من تحكّم لها بالحدوث والانقضاء؛ لأنه لم يُشاهد لها قدماً ولا بقاءً أبداً، أولستُم تُشاهدون الليل والنهار وأحدهما بعد الآخر؟ قالوا: نعم، قال: أترونها لم يزالا ولن يزالا؟ قالوا: نعم، قال: أفيجوزُ عندكم اجتماع الليل والنهار؟ قالوا: لا، قال: فإذا ينقطع أحدهما عن الآخر فيسبق أحدهما، ويكون الثاني جارياً بعده، قالوا: هو كذلك، قال: قد حكمتُم بحدوث ما تقدّم من ليل ونهارٍ لم تُشاهدوهما، ثم قال: أتقولون لما قبلكم من الليل والنهار مُتناهٍ أم غير مُتناهٍ؟ فإن قلتم: غير مُتناهٍ، فقد وصل إليكم آخر لا نهاية لأوله وإن قلتم: إنه مُتناهٍ فقد كان ولا شيءٍ منهما، قالوا: نعم، قال: أقلتُم إنّ العالم قديم ليس

بِمُحَدَّثٍ وَأَنْتُمْ عَارِفُونَ بِمَعْنَى مَا أَقْرَرْتُمْ، وَبِمَعْنَى مَا جَحَدْتُمُوهُ؟ قالوا: نعم، قال: فَهَذَا الَّذِي نُشَاهِدُنُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ يَفْتَقِرُ؛ لِأَنَّهُ لَا قِوَامَ لِلْبَعْضِ إِلَّا بِمَا يَتَّصِلُ بِهِ، كَمَا تَرَى الْبِنَاءَ مُحْتَاجًا بَعْضُ أَجْزَائِهِ إِلَى بَعْضٍ، وَإِلَّا لَمْ يَتَّسِقْ وَلَمْ يَسْتَحْكَمْ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا تَرَى، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْمُحْتَاجُ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ لِقُوَّتِهِ وَتَمَامِهِ هُوَ الْقَدِيمُ، فَأَخْبِرُونِي أَنْ لَوْ كَانَ مُحَدَّثًا كَيْفَ كَانَ يَكُونُ؟ وَمَاذَا كَانَتْ تَكُونُ صِفَتُهُ؟ فبهتوا، وعلموا أنهم لا يجدون للمحدث صفة يصفونه بها إلا وهي موجودة في هذا الذي زعموا أنه قديم، فرجعوا وقالوا: سننظر في أمرنا.

ثمَّ أقبِلَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عَلَى الثَّنَوِيَّةِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ النُّورَ وَالظُّلْمَةَ هُمَا الْمُدْبِرَانِ، فَقَالَ: وَأَنْتُمْ، فَمَا الَّذِي دَعَاكُمْ إِلَى مَا قُلْتُمُوهُ مِنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: لِأَنَّا وَجَدْنَا الْعَالَمَ صَنَفَيْنِ: خَيْرًا وَشَرًّا، وَوَجَدْنَا الْخَيْرَ ضِدًّا لِلشَّرِّ، فَأَنْكَرْنَا أَنْ يَكُونَ فَاعِلٌ وَاحِدٌ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَضِدَّهُ، بَلْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَاعِلٌ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الثَّلْجَ مُحَالٌ أَنْ يَسْخَنَ، كَمَا أَنَّ النَّارَ مُحَالٌ أَنْ تَبْرُدَ؟ فَأَثْبَتْنَا لِذَلِكَ صَانِعَيْنِ قَدِيمَيْنِ: ظُلْمَةٌ وَنورًا.

فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): أَفَلَسْتُمْ قَدْ وَجَدْتُمْ سَوَادًا وَبَيَاضًا، وَحُمْرَةً وَصُفْرَةً، وَحُضْرَةً وَرُزْقَةً، وَكُلُّ وَاحِدٍ ضِدٌّ لِسَائِرِهَا؛ لِاسْتِحَالَةِ اجْتِمَاعِ اثْنَيْنِ مِنْهَا فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ، كَمَا كَانَ الْحَرُّ وَالْبَرْدُ ضِدَّيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مَحَلٍّ؟ قالوا: نعم. قال: فَهَلَّا أَثْبَتْتُمْ بَعْدَ كُلِّ لَوْنٍ صَانِعًا قَدِيمًا، لِيَكُونَ فَاعِلٌ كُلِّ ضِدٍّ مِنْ هَذِهِ الْأَلْوَانِ غَيْرِ فَاعِلٍ ضِدِّ الْآخَرِ؟ فَسَكَتُوا.

ثمَّ قال: وَكَيْفَ اخْتَلَطَ النُّورُ وَالظُّلْمَةُ، وَهَذَا مِنْ طَبَعِهِ الصُّعُودُ وَهَذِهِ مِنْ

طَبَعَهَا النَّزُولُ؟! أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ رَجُلًا يَأْخُذُ شَرْقًا يَمْشِي إِلَيْهِ وَالْآخِرُ غَرْبًا، أَكَانَ يَجُوزُ أَنْ يَلْتَقِيَا مَا دَامَا سَائِرِينَ عَلَى وُجُوهِهِمَا؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَوَجَبَ أَنْ لَا يَخْتَلِطَ النُّورُ وَالظُّلْمَةُ لِذَهَابِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي غَيْرِ جِهَةِ الْإِخْرَاجِ، فَكَيْفَ حَصَلَ هَذَا الْعَالَمُ مِنْ امْتِزَاجِ مَا مُحَالٌ أَنْ يَمْتَزَجَ؟ بَلْ هُمَا جَمِيعًا مَخْلُوقَانِ مُدَبَّرَانِ؟ فَقَالُوا: سَنَنْظُرُ فِي أَمْرِنَا.

ثم أقبل النبي (صلى الله عليه وآله) على مشركي العرب، فقال: وَأَنْتُمْ لَمْ عَبَدْتُمْ الْأَصْنَامَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى؟ فَقَالُوا: نَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ: وَهِيَ سَامِعَةٌ مُطِيعَةٌ لِرَبِّهَا عَابِدَةٌ لَهُ حَتَّى تَتَقَرَّبُوا بِتَعْظِيمِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَاتُّمُّ الَّذِينَ نَحْتُمُوهَا بِأَيْدِيكُمْ، فَلَا تَعْبُدُكُمْ هِيَ لَوْ كَانَ يَجُوزُ مِنْهَا الْعِبَادَةُ أُخْرَى مِنْ أَنْ تَعْبُدُوهَا، إِذَا لَمْ يَكُنْ أَمْرُكُمْ بِتَعْظِيمِهَا مَنْ هُوَ الْعَارِفُ بِمَصَالِحِكُمْ وَعَوَاقِبِكُمْ، وَالْحَكِيمُ فِيمَا يُكَلِّفُكُمْ.

فلما قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا اختلفوا، فقال بعضهم: إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَلَّ فِي هَيْكَلِ رِجَالٍ كَانُوا عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ فَصَوَّرْنَا هَذِهِ الصُّورَ نُعْظِمُهَا لِتَعْظِيمِنَا تِلْكَ الصُّورَةَ الَّتِي حَلَّ فِيهَا رَبَّنَا، وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: إِنَّ هَذِهِ صُورَ أَقْوَامٍ سَلَفُوا كَانُوا مُطِيعِينَ لِلَّهِ قَبْلَنَا فَمَثَلْنَا صُورَهُمْ وَعَبَدْنَاهَا تَعْظِيمًا، وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ تَقَرَّبًا إِلَى اللَّهِ، وَكَمَا أَمَرْتُمْ بِالسُّجُودِ بَزَعْمِكُمْ إِلَى جِهَةِ مَكَّةَ ففعلتم، ثم نصبتم في غير ذلك البلد بأيديكم محاريب سجدتم إليها وقصدتم الكعبة لا محاريبكم، وقصدكم للكعبة إلى الله لا إليها. فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للذين قالوا: إِنَّ اللَّهَ حَلَّ فِي هَيْكَلِ رِجَالٍ كَانُوا عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي صَوَّرْنَاها:

فَقَدْ وَصَفْتُمْ رَبَّكُمْ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، أَوْ يَحُلُّ رَبُّكُمْ فِي شَيْءٍ حَتَّى يُحِيطَ بِهِ ذَلِكَ الشَّيْءُ؟ فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَهُ إِذْنٌ وَبَيْنَ سَائِرِ مَا يَحُلُّ فِيهِ؛ مِنْ لَوْنِهِ وَطَعْمِهِ وَرَائِحَتِهِ وَلِينِهِ وَخُشُونَتِهِ وَثِقَلِهِ وَخِفَّتِهِ؟ وَلَمْ صَارَ هَذَا الْمُحْلُولُ فِيهِ مُحَدَّثًا، وَذَلِكَ قَدِيمًا دُونَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُحَدَّثًا وَهَذَا قَدِيمًا؟ وَكَيْفَ يَحْتَاجُ إِلَى الْمَحَالِّ مَنْ لَمْ يَزَلْ قَبْلَ الْمَحَالِّ، وَهُوَ (عَزَّ وَجَلَّ) لَمْ يَزَلْ؟ وَإِذَا وَصَفْتُمُوهُ بِصِفَاتِ الْمُحَدَّثَاتِ فِي الْحُلُولِ، فَقَدْ لَزِمَكُمْ أَنْ تَصِفُوهُ بِالزَّوَالِ، وَمَا وَصَفْتُمُوهُ بِالزَّوَالِ وَالْحُدُوثِ فَصِفُوهُ بِالْفَنَاءِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَجْمَعَ مِنْ صِفَاتِ الْحَالِّ وَالْمُحْلُولِ فِيهِ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ يُغَيِّرُ الدَّاتَ، فَإِنْ كَانَ لَمْ يَتَغَيَّرْ ذَاتُ الْبَارِي تَعَالَى لِحُلُولِهِ فِي شَيْءٍ جَازَ أَنْ لَا يَتَغَيَّرَ بِأَنْ يَتَحَرَّكَ وَيَسْكُنَ وَيَسُودَّ وَيَبْيَضَّ وَيَحْمَرُّ وَيَصْفَرُّ وَتَحَلَّهُ الصِّفَاتُ الَّتِي تَتَعاقَبُ عَلَى الْمَوْصُوفِ بِهَا، حَتَّى يَكُونَ فِيهِ جَمِيعُ صِفَاتِ الْمُحَدَّثِينَ وَيَكُونَ مُحَدَّثًا تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: فَإِذَا بَطُلَ مَا ظَنَنْتُمُوهُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ يَحُلُّ فِي شَيْءٍ فَقَدْ فَسَدَ مَا بَنَيْتُمْ عَلَيْهِ قَوْلَكُمْ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ، وَقَالُوا: سَنَنْظُرُ.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْفَرِيقِ الثَّانِي، فَقَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): أَخْبِرُونَا عَنْكُمْ إِذَا عَبَدْتُمْ صُورَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَسَجَدْتُمْ لَهَا، وَوَضَعْتُمْ الْوَجْهَ الْكَرِيمَةَ عَلَى التُّرَابِ بِالسُّجُودِ لَهَا، فَمَا الَّذِي أَبْقَيْتُمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؟ أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ يَلْزَمُ تَعْظِيمَهُ وَعِبَادَتَهُ أَنْ لَا يُسَاوِي بِهِ عَبْدُهُ؟ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ مَلِكًا عَظِيمًا سَوَّيْتُمُوهُ بِعَبِيدِهِ فِي التَّعْظِيمِ وَالْخُضُوعِ، أَمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ وَضْعٌ مِنَ الْكَبِيرِ كَمَا يَكُونُ زِيَادَةٌ فِي تَعْظِيمِ الصَّغِيرِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): أَفَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ مِنْ حَيْثُ تُعْظَمُونَ اللَّهُ بِتَعْظِيمِ صُورِ عِبَادِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ تُزْرُونَ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ؟ فَسَكَتُوا بَعْدَ أَنْ قَالُوا: سَنَنْظُرُ.

ثم أقبل النبي (صلى الله عليه وآله) على الفريق الثالث، وقال لهم (صلى الله عليه وآله): ضَرَبْتُمْ لَنَا مَثَلًا وَشَبَّهْتُمُونَا بِأَنْفُسِكُمْ وَلَا سَوَاءَ؛ وَذَلِكَ أَنَا عِبَادُ اللَّهِ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ، نَأْمُرُ لَهُ فِيهَا أَمْرًا وَنَنْزَجِرُ عَمَّا زَجَرْنَا، وَنَعْبُدُهُ مِنْ حَيْثُ يُرِيدُهُ مِنَّا، فَإِذَا أَمَرْنَا بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ أَطَعْنَاهُ، وَلَمْ نَتَّعَدْ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا لَمْ يَأْمُرْنَا وَلَمْ يَأْذَنْ لَنَا؛ لِأَنَّا لَا نَدْرِي لَعَلَّهُ أَرَادَ مِنَّا الْأَوَّلَ فَهُوَ يَكْرَهُ مِنَّا الثَّانِي، وَقَدْ نَهَانَا أَنْ تَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا أَمَرْنَا أَنْ نَعْبُدَهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ أَطَعْنَاهُ، ثُمَّ أَمَرْنَا بِالتَّوَجُّهِ نَحْوَهَا فِي سَائِرِ الْبُلْدَانِ الَّتِي نَكُونُ بِهَا فَأَطَعْنَاهُ، فَلَمْ نَخْرُجْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَنِ اتِّبَاعِ أَمْرِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى حَيْثُ أَمَرَ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ لَمْ يَأْمُرْ بِالسُّجُودِ لِصُورَتِهِ الَّتِي هِيَ غَيْرُهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَقِيسُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَعَلَّهُ يَكْرَهُ مَا تَفْعَلُونَ إِذْ لَمْ يَأْمُرْكُمْ بِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله):

لَوْ أَذِنَ لَكُمْ رَجُلٌ فِي دُخُولِ دَارِهِ يَوْمًا بِعَيْنَيْهِ، أَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِغَيْرِ أَمْرِهِ؟ وَلَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا دَارًا أُخْرَى لَهُ مِثْلَهَا بِغَيْرِ إِذْنِهِ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَإِنْ وَهَبَ لَكُمْ رَجُلٌ ثَوْبًا مِنْ ثِيَابِهِ، أَوْ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِهِ، أَوْ دَابَّةً مِنْ دَوَابِّهِ، أَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: وَلَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا آخَرَ مِثْلَهُ؟ قَالُوا: لَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْذِنَ لَنَا فِي الثَّانِي كَمَا أَذِنَ لَنَا فِي الْأَوَّلِ.

قال: فَأَخْبَرُونِي، اللَّهُ أَوْلَى بِأَنْ لَا يُتَقَدَّمَ عَلَى مُلْكِهِ بِغَيْرِ أَمْرِهِ، بَعْضُ الْمَمْلُوكِينَ؟ قَالُوا: بَلِ اللَّهُ أَوْلَى بِأَنْ لَا يُتَصَرَّفَ فِي مُلْكِهِ بِغَيْرِ أَمْرِهِ، قَالَ: فَلِمَ عَمِلْتُمْ هَكَذَا؟ وَمَتَى أَمَرَكُمْ أَنْ تَسْجُدُوا لَهُذِهِ الصُّورِ؟ فَقَالُوا: سَنَنْظُرُ.

قال^(١): «فَمَا أَتَتْ عَلَى جَمَاعَتِهِمْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ حَتَّى أَتَوْهُ وَأَسْلَمُوا، وَكَانُوا خَمْسَةً وَعِشْرِينَ رَجُلًا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ خَمْسَةٌ، وَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ حُجَّتِكَ، نَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ»^(٢)»^(٣).

خامساً- النقوي:

قال: «قد ذكر في صدر المبحث أن العرب منهم مُعْطَلَةٌ، ومنهم مُحْصَلَةٌ، وهذا الذي ذكرناه إنما هو القسم الأول.

وأما القسم الثاني: أعني المُحْصَلَةُ منهم أيضًا فِرْقٌ شَتَّى، إِلَّا أَنَّهُ يَجْمَعُهُمْ ثَلَاثَةٌ:

المُحْصَلَةُ مِنَ الْعَرَبِ:

اعلم أن العرب كانت في الجاهلية على ثلاثة أنواع من العلوم:

أحدها: علم الأنساب والتواريخ والأديان.

والثاني: علم الرؤيا.

والثالث: علم الأنواء.

أمَّا (علم الأنساب والتواريخ والأديان، ويعدونه علماً شريفاً؛ خصوصاً معرفة أجداد النبي (صلى الله عليه وآله) والاطلاع على ذلك النور الوارد من صلب إبراهيم إلى إسماعيل (عليهما السلام)، وتواصله في ذريته إلى أن ظهر بعض الظهور في أسارير عبد المطلب، سيّد الوادي شيبة الحمد، وسجد له

(١) أي الإمام الصادق (عليه السلام).

(٢) ينظر: الاحتجاج، الطبرسي: ١٦/١-٢٤.

(٣) بهج الصباغة: ٢/١٣٧-١٤٥.

الفيلُ الأعظم، وعليه قصته أصحاب الفيل، وبركة ذلك النور دفع الله تعالى شرَّ أبرهة الأشرم: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾^(١)(٢).

وأما علم الأديان فهو أيضًا كعلم التاريخ كان راجيًا بينهم كما ذكرنا شردمة منه في هذا الكتاب في بحث النبوة.

أما علم الرؤيا فقد كان شائعًا بينهم، والمشهور بين العامة أن أبا بكر كان عالمًا به^(٣)، وفيه باب واسع لا مجال لنا في الكلام فيه.

وأما علم الأنواء: فهو تقدير للقمر منازلها ولمنازلها أنواعه، وقد ذكروا فيها مقالات كثيرة، ونُقل عن الزجاجي أنه قال: إنَّ السُّنَّةَ أربعة أجزاء؛ ولكلِّ جزءٍ منها سبعة أنواع، لكلِّ نوعٍ ثلاثة عشر يومًا، إلاَّ نوع الجبهة فإنه أربعة عشر يومًا، والعرب تجعل النواء للغارب؛ لأنه ينهض للغروب متتاقلاً^(٤).

وقال المبرد: النوء في الحقيقة للطالع لا الغارب، وهذه المنازل كلها يطلع بها الفلك من المشرق، ويغرب في المغرب، كلُّ يومٍ وليلة وتلك دورة من دوراته^(٥).

فالربيع الأول: من السنة الربيع في التاسعة عشر يومًا من آذار، أو عشرين منه فيستوي حينئذ الليل والنهار وتسقط العواء وإليها ينسب النوء.

(١) الفيل، الآية: ٣.

(٢) الملل والنحل: ٨٣/٣.

(٣) ينظر: الملل والنحل: ٨٥/٣.

(٤) ينظر: شرح أدب الكاتب، موهوب بن أحمد الجواليقي: ١٧٥.

(٥) ينظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد: ٥٨/٤.

والربع الثاني: الصيف وأوّل أنوائه الغائم^(١).

والربع الثالث: الخريف وأوّل أنوائه فرع الدّللو الأسفل.

والرُّبُع الرابع: الشتاء وهو آخر أرباع السَّنَةِ، وأوّل أنواعه: الهنعة، وقد قسّمت العرب المنازل بالنسبة إلى أنوائها إلى سبعة أقسام:

الأوّل: من الأنواء البدرى، الوسمي، الولي، القمير، والمد، البسرى، بارح، القينط، إحراق الهوى^(٢)... إلى آخر ما قالوا في المقام، وحيث رأينا عدم الفائدة في إيرادها أعرضنا عنها.

وصنّف من العرب مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر و ينتظر النبوة، وكانت لهم سُنَنٌ وشرائعٌ؛ كأجداد النبيّ (صلى الله عليه وآله) وغيرهم من أفراد العرب: الذين هم استبصروا بنور الإيمان، فأقروا بوجود الله تعالى وتوحيده وربوبيّته وأزليّته، مع أنّهم لم يدركوا دعوة محمّد (صلى الله عليه وآله)، فبقوا على أصل فطرتهم، ونظروا بعين بصيرتهم، وهذا الصنف نَزَرَ يسير لم يكونوا إلاّ عددًا معلوما في كلّ عصرٍ إلى زمن البعثة المحمّديّة (صلى الله عليه وآله).

فمنهم زيد ابن عمرو بن نفيل القرشيّ العدويّ، وقد مات قبل البعثة بخمس سنين^(٣)، وهو الذي يقول في مذمة قومه:

أَرْبًا وَاحِدًا أَمْ أَلْفَ رَبِّ أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الْأُمُورُ
عَزَلْتُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى جَمِيعًا كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجَلْدُ الصَّبُورُ

(١) (النعائم) هكذا في العمدة في صناعة الشعر ونقده.

(٢) للمزيد من التفصيل ينظر: العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني: ٤٠٠-٤٠٦.

(٣) ينظر: الإصابة، ابن حجر: ٥٠٧/٢.

فَلَا الْعُزَّىٰ أَدِينُ وَلَا ابْنَتَيْهَا
وَلَا غَنَمًا^(١) أَدِينُ وَكَانَ رَبًّا
عَجِبْتُ فِي اللَّيَالِي مُعْجَبَاتُ
بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْنَىٰ رَجَالًا
وَأَبْقَىٰ آخِرِينَ بِرِّ قَوْمٍ
وَبَيْنَا الْمَرْءُ يَغْثُرُ^(٢) ثَابَ يَوْمًا
وَلَكِنِ أَعْبُدُ الرَّحْمَنَ رَبِّي
فَتَقَوَىٰ اللَّهُ رَبِّكُمْ أَحْفَظُوهَا
تَرَى الْأَبْرَارَ دَارُهُمْ جَنَّاتٍ

وكان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قال: لبيك حقًا حقًا تعبدًا وورقًا
عُدْتُ بِمَا عَاذَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ (عليه السلام)، وقال:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ
دَحَاهَا فَلَمَّا رَأَاهَا اسْتَوْتُ
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ
إِذَا هِيَ سَيِّقَتْ إِلَيَّ بَلْدَةً
لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا
عَلَى الْمَاءِ أَرْسَىٰ عَلَيْهَا الْجِبَالَا
لَهُ الْمَزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زَلَالًا
أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهَا سِجَالَا

ثم خرج يطلب دين إبراهيم حتى بلغ الموصل والجزيرة، ثم أقبل

(١) (هبل) هكذا في سيرة ابن هشام: ج ١ / ص ١٤٨.

(٢) (يفتر) هكذا في سيرة ابن هشام: ج ١ / ص ١٤٨.

(٣) (أدير) هكذا في سيرة ابن إسحاق: ٩٦ / ٢.

(٤) (الفجور) هكذا في سيرة ابن إسحاق: ٩٦ / ٢، وسيرة ابن هشام، ١ / ١٤٨.

(٥) (المطير) هكذا في سيرة ابن هشام: ١ / ١٤٩.

فجال الشام كلها حتى انتهى إلى راهب بميفعة من أرض البلغاء، كان ينتهي إليه علم النصرانية، فسأله عن الحنيفة؛ فقال له ما قال، فخرج سريعاً يريد مكة، حتى إذا توسط بلاد لحم عدوا عليه فقتلوه، فقال ورقة ابن نوفل يبكيه:

رَشَدْتَ وَأَنْعَمْتَ ابْنَ عَمْرٍو وَإِنَّمَا
بِدِينِكَ رَبًّا لَيْسَ رَبًّا كَمِثْلِهِ
وَأَدْرَاكِكَ الدِّينَ الَّذِي قَدْ طَلَبْتَهُ
فَأَصْبَحْتَ فِي دَارِ كَرِيمٍ مُقَامَهَا^(١)
تَلَاقِي خَلِيلَ اللَّهِ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ
وَقَدْ تُدْرِكُ الْإِنْسَانَ رَحْمَةً رَبِّهِ
تَجَنَّبْتَ تَنُورًا مِنَ النَّارِ حَامِيَا
وَتَرَكَكَ أَوْثَانِ الطَّوَاغِي كَمَا هِيَا
وَلَمْ تَكُ عَنْ تَوْحِيدِ رَبِّكَ مَا هِيَا^(٢)
تُعَلَّلُ فِيهَا بِالْكَرَامَةِ لَاهِيَا
مِنَ النَّاسِ جَبَّارًا إِلَى النَّارِ هَاوِيَا
وَلَوْ كَانَ تَحْتَ الْأَرْضِ سَبْعِينَ وَادِيَا^(٣)

ومنهم أُمَيَّةُ ابن أبي الصَّلْتِ واسمه عبد الله ابن ربيعة وسمع منه، أنه يقول:

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ
كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدَّ بَدَأَ لِي
أَجْعَلَ الْمَوْتَ نُصَبَ عَيْنِكَ وَاحْدَنْز
لَهُ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ زُورًا^(٤)
مُنْتَهَى أَمْرِهِ إِلَى أَنْ يَزُولَا
فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوَعُؤَلَا
غَوْلَتِ الدَّهْرُ إِنَّ لِلدَّهْرِ غُؤَلَا^(٥)

(١) في مفتاح السعادة: (مقام كريمها) بدل (كريم مقامها)، وما أثبتناه من المصدر كونه الأوفق للوزن الشعري.

(٢) (سأها) هكذا في سيرة ابن هشام: ١٥٢ / ١.

(٣) ينظر: السيرة النبوية، ابن إسحاق: ٩٦-٩٩، السيرة النبوية، ابن هشام: ١٤٨-١٥٢.

(٤) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ٣٤٤ / ٤.

(٥) المصدر نفسه: ٣٥٠ / ٤.

قيل إنّه (يلتمس الدّين ويطمع في النبوة، فخرج إلى الشام فمرّ بكنيسه وكان معه جماعة من العرب وقريش فقال: أمية إنّ لي حاجةً في هذه الكنيسة فانظروني، فدخل الكنيسة وأبطأ ثمّ خرج إليهم كاسفًا متغيّر اللون، فرمى بنفسه وأقاموا حتّى سُرّي عنه، ثمّ مضوا فقصوا حوائجهم ثمّ رجعوا، فلمّا صاروا إلى الكنيسة قال لهم: انتظروني، ودخل إلى الكنيسة فأبطأ، ثمّ خرج إليهم أسوء حالًا من الحالة الأولى، فقال أبو سفيان ابن حرب: قد شققت على رُفقاءك فقال: خلّوني؛ فإنّي ارتاد لنفسي لمعادي إنّ ها هنا عالمًا راهبًا أخبرني أنّه تكون بعد عيسى (عليه السلام) بسّت رجعاتٍ، وقد مضت منها خمس وبقيت واحدة، وأنا أطمع في النبوة وأخاف أن تحطّني، فأصابني ما رأيت، فلمّا رجعت ثانية أتيتّه فقال: قد كانت الرجعة وقد بعث نبيٌّ من العرب، فيست من النبوة فأصابني ما رأيت إذ فاتني ما كنت أطمع فيه^(١).

(ولما أمرض أمية مرضه الذي مات فيه، جعل يقول: قد دنا أجلي وهذه المرضة منيتي، وأنا أعلم أنّ الحنيفية حقٌّ ولكنّ الشكّ يُدخّلني في محمّد، ثمّ قضى نحبه ولم يؤمن بالنبيّ (صلّى الله عليه وآله)^(٢)).

وهو الذي يقول في قصيدة أنشدها في توحيد الله وقصص الأنبياء كنوح ويوسف وموسى وداود وغيرهم:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ غَيْرَ رَبَّنَا وَلِلَّهِ مِيرَاثُ الَّذِي كَانَ فَنِيَا
وَلِي لَهُ مِنْ دُونِ كُلِّ وِلَايَةٍ إِذَا شَاءَ لَمْ يُمَسُوا جَمِيعًا مَوَالِيَا

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ٤/ ٣٤٤-٣٤٥.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٣٥٠.

تَأْمَلْ تَجِدْ مِنْ فَوْقِهِ اللهُ بَاقِيَا^(١)
 سَمَاءُ الإِلَهِ فَوْقَ سَبْعِ سَمَائِيَا
 وَلَوْ كَانَ تَحْتَ الأَرْضِ سَبْعِينَ وَاذِيَا
 وَيُضْحِي ثَنَاهُ فِي البَرِّيَّةِ زَاكِيَا
 بُعِثَ إِلى مُوسَى رَسُولا مُنَادِيَا
 كَثِيرٌ بِهِ يَا رَبِّ صَلِّ لِي^(٢) جَنَاحِيَا
 عَلَى المَرْءِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ طَاغِيَا

وَإِنْ يَكُ شَيْءٌ خَالِدًا أَوْ مُعَمَّرًا
 لَهُ مَا رَأَتْ عَيْنُ البَصِيرِ وَفَوْقَهُ
 أَلَّا لَنْ يَضُوتَ المَرْءَ رَحْمَةُ رَبِّهِ
 يُعَالِي وَيُتَدْرِكُهُ مِنَ اللهِ رَحْمَةٌ
 وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلِ سَيْبٍ وَنِعْمَةٍ
 فَقَالَ أَعِنِّي يَا بَنَ أُمِّي فَإِنِّي
 وَقَلْتَ لِهَارُونَ اذْهَبَا فَتَظَاهَرَا

إلى آخر القصيدة^(٣).

ومنهم قس بن ساعدة الإيادي، خطيب العرب وشاعرها في عصره
 (وأدركه رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبل النبوة وراه بعكاظ فكان يأثر
 عنه كلاماً سمعه منه، فقال (صلى الله عليه وآله): هو (يُحْشِرُ أُمَّةً وَاحِدَةً)^(٤).
 وكان قس يفد على قيصر ويزوره، فقال له: قيصر يوماً ما أفضل العقل؟
 قال: معرفة المرء بنفسه، قال: فما أفضل العلم؟ قال: وقوف المرء عند علمه،
 قال: فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاء الرجل ماء وجهه، قال فما أفضل المال؟
 قال: ما قضي به الحقوق^(٥).

(١) ديوان أبي الصلت، وفيه الأبيات الثلاثة أعلاه: ٢٤٣.

(٢) في مفتاح السعادة: (حصل) بدل (صل لي)، وما أثبتناه من المصدر كونه الأوفق بالوزن الشعري.

(٣) ينظر: خزانة الأدب، البغدادي: ١/ ٢٤٣.

(٤) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ١٥/ ١٦٢.

(٥) ينظر: الأمالي، القالي: ٢/ ٣٩-٤٠.

ونقل عن الجاحظ في البيان والتبيين في قسّ وقومه: إن له ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب؛ لأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) روى كلامه وموقفه على جملة بعكاظ وموعظته، وعجب من حسن كلامه وأظهر تصويبه، وهذا شرف تعجز الأماني، وتنقطع دونه الآمال، قال إلى آخر ما قال^(١).

أقول: وهو الذي يقول في قصيدته:

مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ	فِي الدَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ
لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ	لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا
تَمْضِي الْأَكَابِرُ وَالْأَصَاغِرُ	وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا
وَلَا مِنْ الْبَاقِينَ غَابِرُ	لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيَّ
لَتَحِيثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ ^(٢)	أَيَقْنْتُ أَنِّي لَامِحَا

نُقل عن بعض أرباب السّير أنّه كان يوماً من الأيام بحضرة النبي (صلى الله عليه وآله) مذاكرة لقسّ بعد وفاته، فقال (صلى الله عليه وآله): يَرْحَمُ اللهُ قِسًّا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحَدَهُ، فقال رجل: يا رسول الله لقد رأيت من قسّ عجبًا، قال (صلى الله عليه وآله): وَمَا رَأَيْتُ؟ قال: بينما أنا بجبل يُقال له سمعان في يوم شديد الحرّ؛ إذ أنا بقسّ ابن ساعدة تحت ظلّ شجرة عند عين ماء، وعنده سباع كلّما زار سبعٌ منها على صاحبه ضربه بيده، وقال: كفّ حتى يشرب الذي ورد قبلك، ففرعتُ، فقال: لا تَخَفْ،

(١) ينظر: البيان والتبيين: ٤٢-٤٣.

(٢) ينظر: البيان والتبيين: ١٦٣-١٦٤.

وإذا أنا بقبرين بينهما مسجد، فقلتُ له: ما هذان القبران؟ قال: هذان قبراً أخوين كانا لي فماتا فاتخذتُ بينهما مسجداً أعبُدُ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) حتَّى ألحقَ بهما، ثم ذكر أيامهما فبكى، ثم أنشأ يقول:

خَلِيلِي هُبَا طَامَا قَدْ رَقَدْتُمَا أَجِدْكُمْ مَا لَا تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بِسَمْعَانَ مُفْرَدٌ وَمَالِي فِيهِ مِنْ حَبِيبِ سَوَاكُمَا
أَقِيمْ عَلَي قَبْرَيْكُمَا لَسْتُ بَارِحًا طَوَالَ اللَّيَالِي أَوْ تُجِيبُ صَدَاكُمَا
كَأَنَّكُمَا وَالْمَوْتَ أَقْرَبُ غَايَةٍ بِجِسْمِي فِي قَبْرَيْكُمَا قَدْ أَنَاكُمَا
فَلَوْ جُعِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسٍ وَقَايَةً لَجُدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكُمَا

فلما سمع النبي (صلى الله عليه وآله) به قال (صلى الله عليه وآله): (رَحِمَ اللهُ قِسًّا)^(١)، وهو الذي كان يعظ الناس ويقول لهم: كلاً ورب الكعبة ليعودن ما بادوا لأن ذهب ليعودن يوماً^(٢).

وقال: أيضاً (كلأ بل هو الله إله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى وإليه المآب غداً)^(٣).

وأنشد في معنى الإعادة:

يَا بَاكِي الْمَوْتِ وَالْأَمْوَاتِ فِي جَدْتِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَقَايَا بَزَّهُمْ خَرَقُ
دَعُهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يُصَاحُ بِهِمْ كَمَا يُنْبَهُ مِنْ نَوْمَاتِهِ الصَّعِقُ
حَتَّى يَجِيئُوا بِحَالٍ غَيْرِ حَالِهِمْ خَلْقٌ مَضَى ثُمَّ هَذَا بَعْدَ ذَا خَلِقُوا

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ١٥ / ١٦٣.

(٢) ينظر: سعد السعود، ابن طاووس: ٢٣٤.

(٣) رسائل الشريف المرتضى: ٣ / ٢٢٥.

مِنْهُمْ عُرَاةٌ وَمَوْتَى ^(١) فِي ثِيَابِهِمْ مِنْهَا الْجَدِيدُ وَمِنْهَا الْأُورُقُ ^(٢) الْخَلِيقُ ^(٣)

(ومنها: عامر بن الظرب العدواني؛ كان من حكماء العرب وخطبائهم، وله وصية طويلة يقول في آخرها: إنني ما رأيتُ شيئاً قطَّ خَلَقَ نفسه، ولا رأيتُ موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً، ولو كان يُميتُ النَّاسَ الداءُ لأحياهم الدَّواءُ، ثمَّ قال: إنني أرى أموراً شتَّى وحتَّى، قيل له: وما حتَّى؟ قال: حتَّى يرجع الميِّت حياً ويعود لا شيءَ شيئاً، ولذلك خُلِقَت السمواتُ والأرضُ، فتولَّوا عنه ذاهبين، قال: ويل إنَّها نصيحة (يلمَّها) لو كان مَنْ يقبلُها، وكان قد حرَّم الخمر على نفسه فيمن حرَّمه، وقال فيه شعراً:

إِنْ أَشْرَبَ الْخَمْرَ أَشْرَبَهَا لِلذَّنْبِهَا وَإِنْ أَدْعَهَا فَإِنِّي مَاقِتٌ قَالَ
لَوْلَا اللَّذَادَةُ وَالْقِينَاتُ لَمْ أَرَهَا وَلَا رَأَيْتَنِي إِلَّا مِنْ مَدَى عَالِي
سَأَلْتُ ^(٤) لِفَتَى مَا لَيْسَ فِي يَدِهِ ذَهَابَهُ بِعُقُولِ الْقَوْمِ وَالْمَالِ
مُورَثَةً ^(٥) الْقَوْمِ أَضْغَانًا بِلَا إِحْنٍ مُزْرِيَةً بِالْفَتَى ذِي النَّجْدَةِ الْخَالِي
أَقْسَمْتُ بِاللَّهِ أَسْقَاهَا وَأَشْرَبَهَا حَتَّى تَمْرُقَ ^(٦) تُرْبُ الْأَرْضِ أَوْصَالِي ^(٧)

فَمَنْ حَرَّمَ الْخَمْرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى نَفْسِهِ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ التَّمِيمِيُّ؛ وَسَبِيهِ

(١) (ومنها) هكذا في الملل والنحل: ٨٦/٣.

(٢) (الأزرق) هكذا في الملل والنحل: ٨٦/٣.

(٣) (الملل والنحل، الشهرستاني: ٨٦-٨٧.

(٤) (في مفتاح السعادة (سيالة)، وما أثبتناه من المصدر؛ كونه الأوفق بالسياق.

(٥) (تورث) هكذا في الملل والنحل: ٨٧/٣.

(٦) (يفرق) هكذا في الملل: ٨٧/٣.

(٧) (الملل والنحل، الشهرستاني: ٨٧/٣.

أنه غمز ابتته وهو سكران وسب أبويها^(١).

وأخذ يتناول ويثاور النجوم ليلبغها وليتناول القمر وقال:

وَتَاجِرٍ فَاجِرٍ جَاءَ إِلَيْهِ بِهِ كَأَنَّ عَثُونَهُ أَذْنَابُ أَجْمَالٍ^(٢)

(فلما صحا عنها فقليل له: أو ما علمت ما صنعت البارحة؟ قال: لا، فأخبروه فحرم الخمر على نفسه، وقال في ذمه:

وَجَدْتُ الْخَمْرَ جَامِحَةً وَفِيهَا خِصَالٌ تَفْضُحُ الرَّجُلَ الْكَرِيمَا
فَلَا وَاللَّهِ أَشْرَبُهَا حَيَاتِي وَلَا أَدْعُو لَهَا أَبَدًا نَدِيمَا
وَلَا أُعْطِي بِهَا ثَمَنًا حَيَاتِي وَلَا أَشْفِي بِهَا أَبَدًا سَقِيمَا
فَإِنَّ الْخَمْرَ تَفْضُحُ شَارِبِيهَا وَتَجْشِمُهُمْ بِهَا أَمْرًا عَظِيمَا
إِذَا دَارَتْ حُمَيَّاهَا تَعَلَّتْ طَوَالِعُ تَسْفِهِ الرَّجُلَ الْحَلِيمَا^(٣)

(وقد أعطى الله عهداً أن لا يشرب الخمر أبداً؛ فهو أول عربي حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، وقال فيها أيضاً:

فَوَاللَّهِ لَا أَحْسُو بِنَا الدَّهْرِ خَمْرَةً وَلَا شُرْبَةَ تُزْرِي بِنِي اللَّبِّ وَالْفَخْرِ
فَكَيْفَ أَذُوقُ الْخَمْرَ وَالْخَمْرُ لَمْ تَزَلْ لِصَاحِبِهَا^(٤) حَتَّى تَكْسَعَ فِي الْغَدْرِ
وَصَارَتْ بِهِ الْأَمْثَالُ تُضْرَبُ بَعْدَ مَا يَكُونُ عَمِيدُ الْقَوْمِ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ
وَيَبْدُرُهُمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَنْوُبُهُمْ وَيَعْصِمُهُمْ مَا نَابَهُمْ حَادِثُ الدَّهْرِ

(١) ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ٣٠٩ / ١٤.

(٢) ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ٣٠٣ / ١٤.

(٣) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ٣٠٩ / ١٤.

(٤) (بصاحبها) هكذا في الأغاني: ٣١٠ / ١٤.

فِيَا شَارِبَ الصَّهْبَاءِ دَعَهَا لِأَهْلِهَا الدَّ
غُوَاةٍ وَسَلَّمَ لِلْجَسِيمِ^(١) مِنْ الْأَمْرِ
فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي إِذَا مَا شَرِبْتَهَا
وَأَكْثَرَتْ مِنْهَا مَا تَرِيشُ وَمَا تَبْرِي^(٢)

وقيس بن عاصم المترجم له، قد أسلم على يد النبي (صلى الله عليه وآله) وحسن إسلامه (ره)، وكان من وصيته إلى أولاده، أن قال لهم: يا بني خذوا عني فلا أحد أصلح لكم عندي (مني) إذا دفتمونني فانصرفوا إلى رحالكم، فسودوا أكبركم؛ فإن القوم إذا سودوا أكبرهم أخلفوا أباهم، وإذا سودوا أصغرهم أزرى ذلك بهم في أكفائهم، وإياكم ومعصية الله، وقطيعة الرِّحْم، وتمسكوا بطاعة أمراءكم فإنهم من رفعوا ارتفع، ومن وضعوا اتضع، وعليكم بهذا المال فأصلحوه؛ فإنه منبهةٌ لكريم، وجبةٌ لعرض اللئيم، وإياكم والمسألة؛ فإنها آخر كسب الرجل، وإن أحدًا لم يسأل إلا ترك الكسب، وإياكم والنياحة؛ فإنني سمعتُ رسولَ الله (صلى الله عليه وآله) ينهى عنها، وادفونني في ثيابي التي كنتُ أصلي فيها وأصوم، وخذوا عني ثلاث خصال: إياكم وكل عرق لئيم تلبسوه؛ فإنه إن يسركم اليوم يسؤكم غدًا، واكظموا الغيظ، واحذروا بني أعداء أبيكم؛ فإنهم على منهاج آبائهم^(٣)، ثم قال:

أَحْيَا الصَّغَائِنَ أَبَاءَ لَنَا سَلَفُوا
فَلَنْ تَبِيدَ وَلِلْأَبَاءِ أَنْبَاءُ^(٤)

ومات بالبصرة، فقال عبد الله ابن الطيب يرثه:

(١) (للحسيم) هكذا في الأغاني: ٣١٠ / ١٤.

(٢) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ٣١٠ / ١٤.

(٣) ينظر: التذكرة الحمدونية: ٣ / ٣٤٧، شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ١٧ / ١٢٢.

(٤) نثر الدر في المحاضرات، أبو سعد الآبي: ٦ / ٢٦٠.

وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا
إِذَا زَارَ عَنْ شَحْطِ بِلَادِكَ سَلَمًا
وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا^(١)

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ قَيْسُ ابْنِ عَاصِمٍ
تَحِيَّةً مَنْ أَوْلَيْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً
فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هُلُكُ وَاحِدٍ

ومنهم صفوان ابن أمية ابن محرث الكناني وعفيف بن معدي كرب الكندي، وهما أيضًا حرما الخمر على نفسها في الجاهلية، ونُسب إلى عفيف أنه قال:

فَقُلْتُ عَفَفْتُ عَمَّا تَعَلَّمِينَا
بَهَا فِي الدَّهْرِ مَشْغُوفًا رَهِينَا
أَكُونُ لِقَعْرِ مَلْحُودٍ دَفِينَا^(٢)

وَقَالَتْ لِي هَلُمَّ إِلَى التَّصَابِي
وَوَدَّعْتُ الْقِدَاحَ وَقَدْ أَرَانِي
وَحَرَّمْتُ الْخُمُورَ عَلَيَّ حَتَّى

وقال أيضًا:

أَنَازِعُهُمْ شَرَابًا مَا حَيَّيْتُ
وَأَخْوَالَ بَعْزُهُمْ^(٤) رُبَيْتُ
وَالسَّلْمُ أَبْقَى فِي الْأُمُورِ وَأَعْرَفُ
وَالْمُومِسَاتِ وَتَرَكَ ذَلِكَ أَشْرَفُ
وَكَذَاكَ^(٥) يَفْعَلُ ذُو الْحِجَى الْمُتَعَفِّفُ^(٦)

فَلَا وَاللَّهِ لَا أَلْفَى وَشَرِبًا
أَبَى لِي ذَاكَ أَبَاءَ كِرَامٍ
سَالَمْتُ قَوْمِي بَعْدَ طُولِ مَظَاظِمَةٍ
وَتَرَكَتُ شَرِبَ الرَّاحِ وَهِيَ أَثِيرَةٌ
وَعَفَفْتُ عَنْهُ يَا أُمَيْمٌ^(٣) تَكْرُمًا

(١) الاستيعاب، ابن عبد البر: ١٢٩٦/٣.

(٢) المحبر، ابن حبيب البغدادي: ٢٣٩/١.

(٣) في مفتاح السعادة: (يا كريم) بدل (يا أميم)، وما أثبتناه من المحبر؛ كونه الأوفق بالوزن والسياق.

(٤) (يغيرهم) هكذا في مفتاح السعادة، وما أثبتناه من أمالي القاضي: ٢٠٨/١، كونه الأوفق والسياق.

(٥) في مفتاح السعادة: (كذلك) بدل (وكذاك)، وما أثبتناه من المحبر؛ كونه الأوفق والسياق.

(٦) المحبر، ابن حبيب البغدادي: ٢٤٠، الأمالي، القاضي: ٢٠٨/١.

ومنهم مقيس بن قيس السهمي حيث حرّمها على نفسه في الجاهليّة، وقال:

رَأَيْتُ الْحَمْرَ طَيِّبَةً وَفِيهَا
فَلَا وَاللَّهِ أَشْرَبُهَا حَيَاتِي
إِذَا كَانَتْ مُلَيْكَةً مِنْ هَوَايَ
سَأَتْرُكُهَا وَأَتْرُكُ مَا سِوَاهَا
خِصَالٌ كُلُّهَا دَنَسٌ ذَمِيمٌ
طُوَالَ الدَّهْرِ مَا طَلَعَ النُّجُومُ
أَحَالِفُهَا تُحَالِفُنِي الهُمُومُ
مِنَ اللَّذَاتِ مَا أَرْسَى يَسُومُ^(١)

ومنهم عبد لطابخة بن ثعلب بن وبرة من قساعة، فإنه يؤمن بالخالق، ويخلق آدم (عليه السلام).

ومنهم زهير ابن أبي سلمى، ومنهم علاف بن شهاب التميمي وغيرهم، وكان بعض العرب إذا حضره الموت، يقول لولده: ادفنوني مع راحلتي حتى أحشر عليها، فإن لم تفعلوا حُشِرْتُ على رجلي، كما قال جريبة بن الأشيم الأسيدي في الجاهليّة، وقد حضره الموت يوصي ابنه سعدًا:

يَا سَعْدُ إِمَّا أَهْلَكَنَّ فَإِنِّي
لَا تَتْرُكَنَّ أَبَاكَ يَعْتَرُّ رَاجِلًا
وَاحْمِلْ أَبَاكَ عَلَى بَعِيرٍ صَالِحٍ
وَلَعَلَّ لِي مِمَّا تَرَكْتُ مَطِيئَةً
أَوْصِيكَ أَنْ أَخَا الوَصَاةِ الأَقْرَبُ
فِي الحَشْرِ يُضْرَعُ لِلْيَدَيْنِ وَيُنْكَبُ
وَتَقِ الخَطِيئَةَ^(٢) إِنَّهُ هُوَ أَقْرَبُ
فِي القَبْرِ^(٣) أَرْكَبُهَا إِذَا قِيلَ^(٤) أَرْكَبُوا

وقال عمرو بن زيد بن المتني يوصي ابنه عند موته:

(١) المحبر، ابن حبيب البغدادي: ٢٤٠.

(٢) (وابغ المطية) هكذا في الملل والنحل: ٨٩/٣.

(٣) (في الحشر) هكذا في الملل والنحل: ٨٩/٣.

(٤) هنا كلمة (لي) وبها يحتل الوزن، وهي غير موجودة في المصدر.

أَبْنَى زَوْذَنِي إِذَا فَارَقْتَنِي فِي الْقَبْرِ رَاحِلَةً بِرَحْلِ قَاتِرِ
لَلْبُعْثِ أَرْكَبُهَا إِذَا قِيلَ اضْطَعْنَا مُتَسَاوِقِينَ مَعًا لِحَشْرِ الْحَاشِرِ
مَنْ لَا يُؤَافِيهِ عَلَى عَيْرَانَتِهِ^(١) فَالْخَلْقُ بَيْنَ مُدْفَعٍ أَوْ عَاثِرِ

وكانوا يربطون الناقة معكوسة الرأس إلى مؤخرها مما يلي ظهرها، أو مما يلي كلكلها وبطنها، ويأخذون وليه فيشدون وسطها ويقلدونها عنق الناقة ويتركونها كذلك حتى تموت عند البقر ويسمونها الناقة بلية^(٢)، وقال بعضهم يُشبهه رجالاً في بلية:

كَالْبَلَايَا رُؤُوسَهَا^(٣) فِي الْوَلَايَا مَا نَحَاتِ السَّمُومُ حُرَّ الْخُدُودِ^(٤)

النكاح والطلاق في الجاهلية:

ونقل عن محمد بن السائب الكلبي النسابة المشهور: أن العرب كانت في جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها؛ كانوا لا ينكحون الأمهات، ولا البنات، ولا الخالات، ولا العمات، وكان أقبح ما يصنعون أن يجمع الرجل بين الأختين، أو يخلف على امرأة أبيه، وكانوا يُسمون من فعل ذلك الضيزن. قال أوس بن حجر التميمي، يُعير قومًا من بني قيس بن ثعلبة، تناوبوا على امرأة أبيهم ثلاثة، واحدة بعد واحدة:

(١) (عشرائه) هكذا في الملل والنحل: ٨٩ / ٣، وفي مفتاح السعادة: (عيراته)، وما أثبتناه من المحرر: ١ / ٣٢٤ كونه الأوفق بالسياق.

(٢) ينظر: الملل والنحل، الشهرستاني: ٨٩ / ٣.

(٣) هنا في مفتاح السعادة كلمة (أعناقها) وهي غير موجودة في المصدر، وهي مخلّة بالوزن.

(٤) البيت لأبي زيد الطائي ضمن قصيدة طويلة. جمهرة أشعار العرب، القرشي: ٥٩٢.

نِيَكُوا فَكَيْهَتَهُ وَامْشُوا حَوْلَ قُبَّتَيْهَا فَكُلُّكُمْ لِأَبِيهِ ضَيْرُنٌ سَلِفٌ

وكان أول من جمع بين الأختين من قريش أبو ضجة سعيد بن العاص؛ جمع بين هند وصفية ابنتي المغيرة بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم، وكان الرجل من العرب إذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه، فإن كان له فيها حاجة طرح ثوبه عليها، وإن لم يكن له حاجة تزوجها بعض إخوته بمهر جديد، وكانوا يخطبون المرأة إلى أبيها أو إلى أخيها أو عمها أو بعض بني عمها، وكان يخطب الكفو إلى الكفو، فإن كان أحدهما أشرف من الآخر في النسب رغب له في المال، وإن كان هجيناً خطب إلى هجين فزوجهُ هجينةً مثله^(١)، ويقول الخاطب إذا أتاهم: أنعموا صباحاً، ثم يقول: نحن أكفأكم ونظراؤكم، فإن زوجتمونا فقد أصبنا رغبةً وأصبتمونا، وكنا لصهركم حامدين، وإن رددتمونا لعلّةٍ عرفها رجعنا عاذرين، فإن كان قريب القرابة من قومه قال لها أبوها أو أخوها إذا حملت إليه أيسرت وأذكرت ولا أنثت، جعل الله منك عدداً وعزاً وحلباً، أحسني خُلقك وأكرمي زوجك، وليكن طيبك الماء، وإذا زوجت في غربةٍ قال لها: لا أيسرت ولا أذكرت فإنك تدينن البعداء وتلدين الأعداء، أحسني خُلقك وتحببي إلى أحمائك، فإن لهم عيناً ناظرةً عليك، وأذنا سامعةً إليك، وليكن طيبك الماء.

وكانوا يُطلقون ثلاثاً على التفرقة، قال عبد الله بن عباس: أول من طلق ثلاثاً إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام) بثلاث كرات، وكانت العرب تفعل ذلك، فيطلقها واحدةً وهو أحق الناس بها، حتى إذا استوفى الثلاث

(١) الهاجن: (الصبيّة تزوّج قبل بلوغها)، الصحاح: ٦/٢٢١٧، مادة: (هجن).

انقطع السبيل عنها، ومنه قول الأعشى حين تزوج امرأة فرغب بها عنه،
فأتاه قومها فهددوه بالضرب أو يُطلقها:

يَا جَارَتِي بِنِي فَإِنَّكَ طَالِقَةٌ كَذَاكَ أُمُورُ النَّاسِ غَادٍ وَطَارِقَةٌ
وَبَيْنِي فَإِنَّ الْبَيْنَ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا وَأَنْ لَا تَرَى لِي^(١) فَوْقَ رَأْسِكَ بَارِقَةٌ
وَبَيْنِي حَصَانَ الْفَرْجِ غَيْرَ دَمِيمَةٍ وَمَوْمُوقَةٍ قَدْ كُنْتَ فِيْنَا^(٢) وَوَامِقَةٍ^(٣)

وقال أيضاً: كان أمر الجاهلية في نكاح النساء على أربع: يخطب فيزوج، وامرأة تكون لها خليل يختلف إليها فإن ولدت قالت: هو لفلان، فيتزوجها بعد هذا، وامرأة ذات راية يختلف إليها النفر، وكلهم يواقعها في طهر واحد، فإذا ولدت ألزمت الولد أحدهم وهذه تدعى المقسمة^(٤).

الحج في الجاهلية:

قال: وكانوا يحجون البيت ويعتَمرون، ويحرمون ويطوفون بالبيت أسبوعاً، ويمسحون الحجر، ويسعون بين الصفا والمروة، قال أبو طالب:

وَأَشْوَاطٍ بَيْنَ الْمَرْوَتَيْنِ إِلَى الصَّافَا وَمَا فِيهِمَا مِنْ صُورَةٍ وَتَمَائِلٍ^(٥)

وكانوا يلبنون إلا أن بعضهم كان يُشرك في تلبيته في قوله: هو لك تملكه وما ملك.

(١) في الديوان: (وَالْأَتْرَالُ) بدل (وَأَنْ لَا تَرَى لِي).

(٢) في الديوان: (فِيْنَا كَذَاكَ) بدل (قَدْ كُنْتَ فِيْنَا).

(٣) ينظر: ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح وتعليق: د.م. محمد حسين: ٢٦٣.

(٤) ينظر: الملل والنحل: ٣/ ٩٠-٩١.

(٥) ديوان أبو طالب: ٥٨.

ويقفون المواقف كلَّها، وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار، ويحرمون الأشهر الحُرْم، فلا يغزون ولا يقاتلون فيها، إلا طَيَّ وجشم وبعض بني الحارث بن كعب؛ فإنهم كانوا لا يحجّون، ولا يعتمرون، ولا يحرمون الأشهر الحُرْم، ولا البلد الحرام، وإنما سمّت قريش الحرب التي كانت فيها وبين غيرها عام الفجّار؛ لأنّها كانت في الأشهر الحُرْم، فلما قتلوا فيها قالوا فجرنا، فلذلك سمّوها حربَ الفجار، وكانوا يكرهون الظلمَ في الحرم، وقالت امرأةٌ منهم تنهى ابنها من الظلم:

أُبْنِي لَا تَظْلِمَ بِمَكَ
 سَتَ لَا الصَّغِيرَ وَلَا الْكَبِيرَ
 أُبْنِي مَنْ يَظْلِمَ بِمَكَ
 سَتَ يَلْقَ أَطْرَافَ الشُّرُوزِ^(١)

نسأة الشهور في العرب وكان منهم من ينسأ الشهور، وكانوا يكسبون في كلِّ (عامين) شهراً وفي كلِّ ثلاثة أعوام شهراً، وكانوا إذا حجّوا في شهرين هذه السنة لم يخطوا أن يجعلوا يوم التروية ويوم عرفة، ويوم النحر كهيئة ذلك في شهر ذي الحجة حتى يكون يوم النحر يوم العاشر من ذلك الشهر، ويُقيمون بمنى فلا يبيعون في يوم عرفة ولا في أيام منى، وفيهم أنزلت: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾^(٢)، وكانوا إذا ذبحوا للأصنام لطّخوها بدم الهدايا، يلتمسون بذلك الزيادة في أموالهم، وكان قصي بن كلاب ينهى عن عبادة غير الله من الأصنام. وقال القلمس بن أمية الكناني وهو يخطب العرب بفنا مكة: أطيعوني ترشدوا، وقالوا: ما ذاك قال: إنكم تفرقتم بأهة شتى وإني لأعلم ما الله راضٍ

(١) ينظر: ذم البغي، ابن أبي الدنيا: ٧.

(٢) التوبة، الآية: ٣٧.

به، وأن الله ربُّ هذا الآلهة، وأنه ليحبُّ أن يُعبَدَ وَحَدَهُ، ففترقت عنه العربُ حين قال ذلك، وتجنَّبت عنه طائفة وزعمت أنه على دين بني تميم^(١).

غسل الجنابة والأموات في الجاهلية:

وكانوا يغتسلون من الجنابة ويغسلون موتاهم، قال الأفوه الأوديّ (اسمه صلاة بن عمرو بن مالك الأوديّ) في غَسْلِ الموتي:

أَلَا عَلَّلَانِي وَأَعْلَمَا أَنِّي غَرَزُ وَمَاخَلْتُ يُجْدِينِي^(٤) الشَّفَاقُ وَلَا الْحَدَزُ
وَمَا قُلْتُ يُجْدِينِي ثِيَابِي إِذَا بَدَتْ^(٢) مَفَاصِلُ أَوْصَالِي وَقَدْ شَخَّصَ الْبَصْرُ
وَجَاؤُوا بِمَاءٍ بَارِدٍ وَبِغَسَلَةٍ^(٣) فَيَا لَكَ مِنْ غَسَلٍ سَيَتَّبِعُهُ عِبْرٌ^(٥)

وكانوا يُكفِّنون موتاهم ويُصلُّون عليهم، وكانت صَلَاتهم إذا مات الرجل ومُحِلَّ على سريره يقوم وليه فيذكر محاسنه كُلَّها ويثني عليه ثم يُدفن، ثم يقول: عليك رحمةُ الله.

وقال رجلٌ من كلب في الجاهليَّة لابنِ ابنِ له:

أَعْمَرُوا إِنْ هَلَكْتَ وَكُنْتَ حَيًّا فَإِنِّي مُكْتِرٌ لَكَ فِي صَلَوَاتِي^(٦)
وَأَجْعَلُ نِصْفَ مَالِي لِابْنِ سَامٍ حَيَاتِي إِنْ حَيَّيْتُ وَفِي مَمَاتِي

(١) ينظر: الملل والنحل: ٩٢/٣.

(٢) (وما خلْتُ يُجْدِينِي أساتي وقد بدت) هكذا في ديوان الأفوه الأوديّ.

(٣) في مفتاح السعادة: (يغسلوني)، وما أثبتناه من الديوان كونه الأوفق بالوزن.

(٤) في مفتاح السعادة: (فما قلتُ ينجني)، وما أثبتناه من الديوان؛ كونه الأوفق بالسياق.

(٥) في مفتاح السعادة: (كبر)، وما أثبتناه من الديوان؛ كونه الأوفق بالوزن. (ديوان الأفوه

الأودي: ٧٠)

(٦) (صلاتي) هكذا في الملل والنحل: ٩٤/٣.

وكانوا يُداومون على طهارات الفطرة التي ابتلي بها إبراهيم وهي الكلمات العشر فأتمَّهن^(١)، خمسٌ في الرأس وخمسٌ في الجسد؛ فأما اللواتي في الرأس فالمضمضة، والاستنشاق، قصّ الشارب، والفرق، والسواك.

وأما اللواتي في الجسد: فالاستنجاء، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، فلما جاء الإسلام قرَّرها سنةً من السنن.

وكانوا يقطعون يد السارق اليمين إذا سرق، وكانت ملوك اليمن وملوك الحيرة يصلبون الرجل إذا قطع الطريق، وكانوا يوفون بالعهود، ويكرمون الجار والضيف؛ قال حاتم الطائي:

إِلَهُهُمُ رَبِّي وَرَبِّي إِلَهُهُمُ
فَأَقْسَمْتُ لَا أَرْسُو وَلَا أَتَعَدُّ^(٢)

وقال أيضاً^(٣):

لَقَدْ كَانَ مَا فِي الْبَرِّ لِلنَّاسِ^(٤) أُسْوَةً
وَكَانُوا أَنْاسًا مُوقِنِينَ بِرَبِّهِمْ
كَأَنَّ لَمْ يَسْقُجْ حَشْ بَعِيرًا وَلَا حُمْرُ
بِكُلِّ مَكَانٍ فِيهِمْ عَابِدٌ بَكْرُ^(٥)

الهند في الجاهليّة:

هذا خلاصة الكلام في العرب ومذاهبهم وسننهم وآدابهم، وقد قلنا إنّ العرب والهند متقاربان، والآن نشرح مذاهب أهل الهند وآدابهم في زمن

(١) (فإنهن) هكذا في الملل والنحل: ٣/ ٩٤.

(٢) في مفتاح السعادة: (أَتَعَدُّ)، وما أثبتناه من الديوان؛ كونه الأوفق بالسياق. (ديوان حاتم الطائي: ١٦)

(٣) لم أعر على البيتين في ديوان حاتم الطائي.

(٤) (البرايا الناس) هكذا في الملل والنحل.

(٥) ينظر: الملل والنحل، الشهرستاني: ٣/ ٩٣-٩٤.

الفترة إلى طلوع الإسلام، وهم فِرَقٌ مختلفة.

قال الشهرستاني في الملل والنحل: (فمنهم البراهمة وهم المنكرون للنبوات أصلاً، ومنهم مَنْ يميل إلى الدهر، ومنهم مَنْ يميل إلى مذهب الثنوية، ويقول بمِلَّة إبراهيم، وأكثرهم على مذهب الصابئة ومناهجها؛ فمن قائل بالروحانيات، ومن قائل بالهياكل، ومن قائل بالأصنام، إلا أنهم مختلفون في شكل الهياكل التي ابتدعوها وكيفيَّة أشكال وضعوها، ومنهم حكماء على طريق اليونانيين علماء وعملاً، فمن كانت طريقته على مناهج الدهرية والثنوية والصابئة فقد أغنانا حكاية مذاهبهم قبل عن حكاية مذهبهم، ومن انفرد منهم بمقالة ورأي فهم خمس فِرَق: فِرَق البراهمة، أصحاب الروحانيات، وأصحاب الهياكل، وعبدة الأصنام، والحكماء، ثم قال ونحن نذكر مقالات هؤلاء كما وجدنا في كتبهم المشهورة:

الفرقة الأولى: البراهمة:

من الناس مَنْ يظن أنهم سُموا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم (عليه السلام)، وذلك خطأ؛ فإن هؤلاء القوم هم المخصوصون بنفي النبوات أصلاً ورأساً، فكيف يقولون بإبراهيم، والقوم الذين اعتقدوا نبوة إبراهيم من أهل الهند فهم الثنوية القائلون بالنور والظلام على مذهب أصحاب الاثنين، وقد ذكرنا مذاهبهم إلا أن هؤلاء البراهمة انتسبوا إلى رجل منهم يقال له (برهام) قد مهّد لهم نفي النبوات أصلاً، وقرّر ذلك في العقول بوجوه: منها أن قال: إن الذي يأتي به الرسول لا يخلو من أمرين، إمّا أن يكون معقولاً وإمّا أن لا يكون معقولاً، فإن كان معقولاً، فقد كفانا العقل التأم بإدراكه والوصول

إليه، فأئني حاجة لنا إلى الرسول؟ وإن لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً؛ إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية ودخول في حريم البهيمة. ومنها إن قال: قد دلّ العقل على أن الله تعالى حكيم؛ والحكيم لا يتعبد الخلق إلا بما تدل عليه عقولهم، وقد دلت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً قادراً حكيمًا، وأنه أنعم على عباده نعمًا توجب الشكر، فننظر في آيات خلقه بعقولنا، ونشكره بالآئه علينا، وإذا عرفناه وشكرنا له بالآئه علينا استوجبنا ثوابه، وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه، فما بالناس نتبع بشرًا مثلنا؟ فإنه إن كان يأمرنا بما ذكرناه من المعرفة والشكر فقد استغنيا عنه بعقولنا، وإن كان يأمرنا بما يخالف ذلك كان قوله دليلًا ظاهرًا على كذبه.

ومنها أن قال: إن دلّ العقل على أن للعالم صانعاً حكيمًا؛ والحكيم لا يتعبد الخلق بما يقبح في عقولهم، وقد وردت أصحاب الشرائع بمستقبحات من حيث العقل؛ من التوجه إلى بيت مخصوص في العبادة، والطواف حوله، والسعي، ورمي الجمار، والإحرام، والتلبية، وتقبيل الحجر الأصم، وكذلك ذبح الحيوان، وتحريم ما يمكن أن يكون غذاء للإنسان، وتحليل ما ينقص من بيته، وغير ذلك، وكل هذه الأمور مخالفة لقضايا العقول.

ومنها أن قال: إن أكبر الكبائر في الرسالة اتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس والعقل، يأكل مما تأكل ويشرب مما يشرب، حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرف فيك رفعا ووضعا، أو كحيوان يصرّفك أمامًا وخلفًا، أو كعبد يتقدم إليك أمرا ونهيا، فأئني تميز له عليك وأية فضيلة أوجبت استخدامك، وما دليله على صدق دعواه، فإن اغتررت بمجرد قوله فلا

تميز لقولٍ على قول، فإن انحسرت بحججته ومعجزته فعندنا من خصائص الجواهر والأجسام ما لا يُحصى كثرةً، ومن المخبرين عن مغيبات الأمور من لا يساويه خبره ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(١)، فإذا اعترفتم بأن العالم صانعًا خالقًا حكيمًا فاعترفوا بأنه أمرنا وحاكمٌ على خلقه، وله في جميع ما نأتي ونذر ونعلم ونفكر حكمٌ وأمرٌ، وليس كلُّ عقلٍ إنسانيٍّ على استعداد ما يعقل عنه أمره، ولا كلُّ نفسٍ بشرٍ بمثابة مَنْ يقبل عنه حكمه، بل أوجبت منته ترتيبًا في العقول والنفوس، واقتضت قسمته أن يرفع: ﴿بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٢)، بعقولهم المختلفة^(٣).

هذا خلاصته دلائلهم على نفي النبوات على ما في الملل والنحل.

ثم إنهم تفرقوا أصنافًا ثلاثة: أصحاب البددة، أصحاب الفكرة، أصحاب التناسخ.

أصحاب البددة:

(ومعنى البدد عندهم: شخص في هذا العالم [لا] يولد ولا ينكح ولا يطعم ولا يشرب ولا يهرم ولا يموت، وأول بدد ظهر في العالم شاكيم^(٤)؛ وتفسيره: السيّد الشريف، ومن وقت ظهوره إلى وقت الهجرة، خمسة آلاف سنة، قالوا: ومن دون مرتبة البدد مرتبة البوديسعية؛ ومعناه: الإنسان الطالب سبيل الحق،

(١) إبراهيم، الآية: ١١.

(٢) الزخرف، الآية: ٣٢.

(٣) الملل والنحل: ٣/ ٩٥-٩٧.

(٤) شاكيم) هكذا في الملل والنحل: ٣/ ٩٧.

وإنّما يصل إلى تلك المرتبة بالصبر والعطيّة والرغبة فيما يجب أن يرغب فيه، وبالامتناع والتخلّي عن الدُّنيا والعُزوف عن شهواتها ولذّاتها والعِفّة عن محارمها، والرحمة على جميع الخلق، والاجتناب عن الذنوب العشرة: قتل ذي روح، واستحلال أموال الناس، والزّنا، والكذب، والنميمة، والبذاء والشتم، وشناعة الألقاب، والسّفه، والجحد لجزاء الآخرة، وباستكمال عشر خصال:

إحداها: الجود والكرم.

والثانية: العفو عن المسيء، ودفعُ الغضب بالحلم.

والثالثة: التعفّف عن الشهوات الدنيويّة.

والرابعة: الفكرة في التخلّص عن هذا العالم إلى ذلك العالم الدائم الوجود.

الخامسة: رياضة العقل بالعلم والأدب، وكثرة النظر في عواقب الأمور.

والسادسة: القوّة على تعريف النفس في طلب العليّات.

والسابعة: لين العقول^(١)، وطيب الكلام مع كلّ واحد.

الثامنة: حُسن المعاشرة مع الإخوان بإيثار اختيارهم على اختيار نفسه.

التاسعة: الإعراض عن الخلق بالكليّة والتوجّه إلى الحقّ بالكليّة.

العاشرة: بذلّ الروح شوقاً إلى الحقّ ووصولاً إلى جناب الحقّ.

وزعموا أنّ البددة أتوهم على عدد نهر الكنك وأعطوهم العلوم وظهروا لهم في أجناس وأشخاص شتى، ولم يكونوا يظهرون إلّا في بيوت الملوك لشرف جوهرهم، قالوا: ولم يكن بينهم اختلاف فيما ذُكر عنهم من أزيّة

(١) (القول) هكذا في الملل والنحل: ٩٨/٣.

العالم، وقولهم في الجزاء على ما ذكرنا، وإنما اختصَّ ظهور البددة بأرض الهند لكثرة ما فيها من خصائص التربة والإقليم ومَن فيها من أهل الرياضة والاجتهاد، وليس يشبه البد على ما وصفوه إن صدَّقوا إلا بالخضر الذي يُثبته أهل الإسلام^(١) انتهى ما ذكره.

وأما أصحاب الفكر والوهم:

(وهم العلماء منهم بالفلك والنجوم، وأحكامها المنسوبة إليهم، وللهند طريقة تُخالف طريقة منجمي الروم؛ وذلك أنهم يحكمون أكثر الأحكام باتّصالات الثوابت دون السيّارات، وينشئون الأحكام عن خصائص الكواكب دون طبائعها، ويعدّون الزُّحل السَّعدَ الأكبر؛ لرفعة مكانه وعظم جرمه؛ وهو الذي يُعطى العطايا الكُليّة من السعادة والجزئيّة من النحوسة، وكذلك سائر الكواكب لها خصوصيّات وطبائع؛ فالروم يحكمون من الطبائع، والهند يحكمون من الخواصّ وكذلك طبّهم؛ فإنهم يعتبرون خواصّ الأدوية دون طبائعها، والروم تُخالفهم في ذلك، وأصحاب الفكرة يُعظّمون أمر الفكر ويقولون هو المتوسّط بين المعقول والمحسوس، فالصور من المحسوسات تردُّ عليه، والحقائق من المعقولات تردُّ عليه أيضًا، فهو مورد العلمين من العالمين، فيجتهدون كلّ الجهد حتّى يُصرِّفوا الوهم والفكر عن المحسوسات بالرياضيات البليغة، حتّى إذا تجرّد الفكر عن هذا العالم تجلّى له ذلك العالم فربّما يُخبر عن مغيبات الأحوال، وربّما يقوى على حبس الأمطار، وربّما يوقع الوهم على رجلٍ حي فيقتله في الحال، ولا يستبعد ذلك؛ فإنّ

(١) الملل والنحل: ٣/ ٩٧-٩٨.

للوهم أثرًا عجيبيًا في تعريف الأجسام والتعرّف في النفوس، أليس الاحتلام في النوم تصرف الوهم في الجسم؟ أليست إصابة العين تصرف الوهم في الشخص؟ أليس الرجل يمشي على جدار مرتفع فيسقط في الحال، ولا يأخذ من عرض المسافة في خطواته سوى ما أخذه على الأرض المستوية؟ والوهم إذا تجرّد عمل أعمالاً عجيبة، ولهذا كانت الهند تُغمض عينها أيامًا لئلا يشتغل الفكر والوهم بالمحسوسات، ومع التجرّد إذ اقترن به وهم آخر اشتركا في العمل؛ خصوصًا إذا كانا متفقين غاية الاتّفاق، ولهذا كانت عاداتهم إذا ذهّمهم أمرٌ أن يجتمع أربعون رجلًا من المهذّبين المخلصين المتّقين على رأيٍ واحد في الإصابة فيتجلّى لهم المهم الذي يهضمهم حمّله، ويدفع (يندفع) عنهم البلاء الملم الذي يتكأدهم^(١) ثقله.

وصنف منهم يسمّى بالبكر نينية؛ وهم المصفّدين بالحديد، وسُتّهم حلق الرؤوس واللّحي، وتعرية الأجساد ما خلا العورة، وتصفيد البدن من أوساطهم إلى صدورهم لئلا تنشقّ بطونهم من كثرة العلم وشدة الوهم وغلبة الفكر، ولعلّهم رأوا في الحديد خاصيّةً تناسب الأوهام؛ وإلا فالحديد كيف يمنع انشقاق البطن، وكثرة العلم كيف يوجب ذلك؟^(٢).

وأما أصحاب التناسخ:

ويُعبر عنهم بالتناسخيّة، قال: (قد ذكرنا مذهب التناسخيّة وما من ملّة من الملل إلا وللتناسخ فيها قَدَمٌ راسخ، وإنّما تختلف طرقهم في تقرير ذلك،

(١) في الملل والنحل بلفظ (يكاد).

(٢) الملل والنحل، الشهرستاني: ٣/ ٩٨-٩٩.

فأمّا تناسخيّة الهند فأشدُّ اعتقاداً في ذلك؛ لما عاينوا من طير يظهر في وقت معلوم فيقع على شجرة وهو أبداً كذلك فيبيض ويُفْرَخ، ثمّ إذا تمّ نوعه بفراخه حكّ بمنقاره ومخالبه فتبرق منه نارٌ تلتهب فيحترق الطيرُ ويسيلُ دمهُ منه دهن فيجتمع في أصل الشجرة في مغاره، ثمّ إذا حال الحولُ وحن وقت ظهوره انخلق من هذا الدهن مثل الطير الأول فيطير ويقع على الشجرة وهو أبداً كذلك، قالوا فما مثل الدنيا وأهلها في الأدوار والأكوار إلا كذلك.

وإذا كانت حركات الأفلاك دوريّة، ولا محالة أن يصل رأس الفرجار إلى ما بدأ ودار دورة ثانية على الخطّ الأوّل، أفاد لا محالة ما أفاد الدور الأوّل؛ إذ لم يكن اختلاف بين الدورين حتّى يتصوّر اختلاف بين الأثرين، فإنّ المؤثرات عادت كما بدأت، والنُّجوم والأفلاك دارت على المركز الأوّل وما اختلفت أبعادها واتصالاتها ومناظراتها ومناسباتها بوجه، فيجب أن لا تختلف المتأثرات الباديات منها بوجه، وهذا هو تناسخ الأدوار والأكوار. ولهم اختلاف في الدورة الكبرى كم هي من السنين؛ وأكثرهم على ثلاثين ألف سنة، وبعضهم على ثلاث مائة ألف سنة وستين ألف سنة، وإنّما يعتبرون في تلك الأدوار سَيْرَ الثوابت لا السيّارات، وعند الهند أكثرهم إنّ الفلك مرَكَّبٌ من الماء والنار والريح، وأنّ الكواكب فيه ناريّة هوائية فلم تعدم الموجودات العلوّية إلاّ العنصر الأرضيّ فحسب^(١)، هذا تمام الكلام في البراهمة.

الفرقة الثانية: أصحاب الروحانيات:

وهم فرق مختلفة تبلغ ثمانية:

(١) الملل والنحل: ٣/ ١٠٠.

أصحاب الروحانيات - الباسنوية - الباهودية - الكابلية - المهاديوية -
عبدة الكواكب - عبدة الشمس - عبدة القمر^(١).

١ - أصحاب الروحانيات والهاكل :

ومن أهل الهند جماعة أثبتوا متوسطات روحانية، يأتونهم بالرسالة من عند الله (عَزَّ وَجَلَّ) في صورة البشر من غير كتاب، فيأمرهم بأشياء وينهاهم عن أشياء ويسن لهم الشرائع، ويبيِّن لهم الحدود، وإنما يعرفون صدقه بتنزُّهه عن حطام الدنيا واستغنائه عن الأكل والشرب وغيرهما.

٢ - أصحاب الباسنوية:

زعموا أنَّ رسولهم ملكٌ روحانيٌّ نزل من السماء على صورة البشر فأمرهم بتعظيم النار، وأن يتقربوا إليها بالعطر والطيب والأدهان والذبائح، ونهاهم عن القتل والذبح إلا ما كان للنار، وسنَّ لهم أن يتوشَّحوا بخيطٍ يعتمدونه من مناكبهم الأيمن إلى تحت شمائلهم، ونهاهم عن الكذب وشرب الخمر، وأن لا يأكلوا من أطعمة غير ملَّتْهم ولا من ذبائحهم، وأباح لهم الزنا لئلا ينقطع النسل، وأمرهم أن يتخذوا على مثاله صنماً يتقربون إليه ويعبدونه^(٢)، ويطوفون حوله كلَّ يوم ثلاث مرَّات بالمعازف والتبخير والغناء والرَّقص، وأمرهم بتعظيم البقر^(٣) والسُّجود لها حيث رأوها، ويفزعون في التوبة إلى التمسُّح بها، وأمرهم أن لا يجوزوا نهر الكنك.

(١) في المصدر أصحاب الروحانيات هم: ١- الباسنوية ٢- الباهودية ٣- الكابلية ٤- البهادوية.

أما عبدة الكواكب فهم ليسوا من الروحانيات، وهم في المصدر: ١- عبدة الشمس ٢- عبدة القمر.

(٢) في مفتاح السعادة (ويعبدون له) والصواب ما أثبتناه من المصدر.

(٣) (البقرة) هكذا في الملل والنحل: ١٠١/٣.

٣- الباهودية:

زعموا أنّ رسولهم ملكٌ روحانيٌّ على صورة البشر واسمه باهود، أتاهم وهو راكب على ثور على رأسه إكليل مُكَلَّل بعظام الموتى من عظام الرؤوس، ومتقلدٌ من ذلك بقلادة، بإحدى يديه قحف إنسان، وبالأخرى مرزاق ذو ثلاث شعب، يأمرهم بعبادة الخالق (عَزَّ وَجَلَّ) وبعبادته معه، وأن يتخذوا صنمًا على مثاله يعبدونه، وأن لا يعافوا شيئًا، وأن تكون الأشياء كلها في طريقٍ واحدة؛ لأنّها جميعًا صنُعُ الخالق، وأن يتخذوا من عظام الناس قلائد يتقلدونها وأكاليل يضعونها على رؤوسهم، وأن يمسحوا أجسادهم ورؤوسهم بالرّماد، وحرّم عليهم الذبائح وجمع الأموال، وأمرهم برفض الدنيا ولا معاش لهم فيها إلا من الصدقة.

٤- الكابلية:

زعموا أنّ رسولهم ملكٌ روحانيٌّ يقال له (شب)، أتاهم في صورة بشر متمسّح بالرّماد، على رأسه قلنسوة من لبود حمر طولها ثلاثة أشبار، مُخَيِّطٌ عليها صفائح من قحف الناس، متقلدٌ قلادةً من أعظم ما يكون، متمنطق من ذلك بمنطق، متسوّرٌ منها بسوار، مُتَخَلِّخٌ منها بخِلخال وهو عريان، فأمرهم أن يتزيّنوا بزِينته ويتزيّوا بزِيّه، وسنّ لهم شرائع وحدود.

٥- المهاديونية^(١):

قالوا: إنّ بهادون كان ملكًا عظيمًا أتانا في صورة إنسانٍ عظيم، وكان له أخوان قتلاه وعمّلا من جلده الأرض، ومن عظامه الجبال، ومن دمه البحار،

(١) (المهادونية) هكذا في الملل والنحل: ١٠٢/٣.

وقيل هذا رمز، وإلا فحال صورة البشر^(١) لا تبلغ إلى هذه الدرجة، وصورة (بهادون) راكب على دابة كثير الشعر قد أسبله على وجهه، وقد قسم الشعر على جوانب رأسه قسمةً مستوية، وأسبلها كذلك على نواحي الرأس قفاً ووجهًا، وأمرهم أن يفعلوا كذلك، وسنَّ لهم أن لا يشربوا الخمر، وإذا رأوا امرأةً هربوا منها، وأن يحجُّوا إلى جبلٍ يُدعى (جور عن)، وعليه بيت عظيم فيه صورة مهاديون^(٢)، ولذلك البيت سدنة لا يكون المفتاح إلا بأيديهم، فلا يدخلون إلا بإذنهم، فإذا فتحوا الباب سدوا أفواههم حتى لا تصل أنفاسهم إلى الصنم، ويدبِّحون له الذبائح، ويقربون له القرابين ويهدون له الهدايا، وإذا انصرفوا من حجِّهم لم يدخلوا العمران في طريقهم، ولم ينظروا إلى مُحَرَّمٍ ولم يصلوا إلى أحدٍ بسوءٍ وضررٍ من قولٍ وفعلٍ^(٣).

٦- عبادة الكواكب:

ولم يُنقل في الهند مذهبٌ في عبادة الكواكب إلا فرقتان توجَّهتا إلى النيران الشمس والقمر، ومذهبُهم في ذلك مذهب الصابئة في توجُّههم إلى الهياكل السماوية، دون قصر الربوبية والإلهية عليها.

٧- عبادة الشمس:

زعموا أن الشمس ملكٌ من الملائكة، ولها نفس وعقل؛ ومنها نور الكواكب وضياء العالم، وتكون الموجودات السفلية وهي ملك الفلق يستحقُّ التعظيم والسجود والتبخير والدعاء، وهؤلاء يُسمَّون: الدينيكيتية،

(١) (الإنسان) هكذا في الملل والنحل: ١٠٢/٣.

(٢) (بهادون) هكذا في الملل والنحل: ١٠٢/٣.

(٣) ينظر: الملل والنحل: ١٠١/٣-١٠٣.

أي: عبّاد الشمس، ومن سُتَّتْهم أن اتَّخَذُوا لها صنماً بيده جواهر على لون النار، وله بيت خاصُّ بنوه باسمه، ووقفوا عليه ضياعاً وقرباناً، وله سَدَنَةٌ وقوَّام فيأتون البيت ويصلُّون ثلاث كَرَّاتٍ، ويأتيه أصحابُ العِلل والأمراض فيصومون له ويصلُّون ويدعون ويستشفعون به.

٨- عبدة القمر:

زعموا أن القمر مَلَكٌ مِنَ الملائكة يستحقُّ التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفليِّ والأمور الجزئية فيه، ومنه نُضج الأشياء المتكوِّنة وإيصالها إلى كمالها، وبزيادته ونقصانه [تُعرف الأزمان والساعات]، وهؤلاء يسمُّون الجندر مكنية^(١)؛ أي: عبّاد القمر، ومن سُتَّتْهم أن اتَّخَذُوا صنماً على صورة جواهر، وبيد الصنم جواهر، ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه، وأن يصوموا النصفَ من كلِّ شهر ولا يُفطروا حتَّى يطلع القمر، ثمَّ يأتون صنمه بالطعام والشراب واللبن، ثمَّ يرغبون إليه وينظرون إلى القمر ويسألونه عن حوائجهم، فإذا استهلَّ الشهر علُّوا السطح وأوقدوا الدَّخن، ودعوا عند رؤيته، ورغبوا إليه ثمَّ نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور ولم ينظروا إليه إلا على وجوه حسنة، وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار أخذوا في الرِّقص واللَّعب والمعازف بين يدي الصنم والقمر^(٢).

الفرقة الثالثة: عبدة الأصنام:

وهي أيضاً على أقسام:

(١) الجندر مكنية) هكذا في الملل والنحل: ١٠٤/٣.

(٢) الملل والنحل، الشهرستاني: ١٠٣/٣-١٠٤.

١. المهاكالية:

لهم صنمٌ يدعى (مهاكال) له أربعُ أيدي، كثيرُ شعرِ الرأسِ سبطها، ويأحدي يديه ثعبانٌ عظيم، فاغِرُّ فاه وبالأُخرى عصا، وبالثالثة: رؤوسُ إنسان، وبالرابعة: كان يدفعها، وفي أُذنيه حيتان كالقرطين، وعلى جسده ثعبانان عظيمان قد التَّمَّا عليه، وعلى رأسه إكليل من عظام القحف، وعليه من ذلك قلادة؛ يزعمون أنه عفريت يستحقُّ العبادة لعظيم قدره واستحقاقه لها؛ لما فيه من الخصال المحمودة المحبوبة والمذمومة من الإعطاء والمنع والإحسان والإساءة، وأنه المفزَعُ لهم في حاجاتهم، وله بيوت عظام بأرض الهند يأتون إليها أهلُ ملته في كلِّ يوم ثلاث مرَّاتٍ يسجدون ويطوفون به، ولهم موضع يُقال له: اختر، فيه صنم عظيم على صورة هذا الصنم يأتونه من كلِّ موضعٍ ويسجدون له هناك، ويطلبون حاجات الدنيا، حتَّى أنَّ الرجل يقول له فيما يسأله زوجني فلانة وأعطني كذا، ومنهم من يأتيه ويُقيم عنده الأيام [و] الليالي لا يذوق شيئاً يتضرَّع إليه ويسأله الحاجة حتَّى بما يُنفق.

٢. البركهيكته^(١):

من سنتهم أن يتَّخذوا لأنفسهم صنمًا يعبدونه ويُقرَّبون له الهدايا، وموضع تعبدهم له أن ينظروا إلى باسق الشجر ومُلتفَّة؛ مثل الشجر الذي يكون في الجبال فيلتمسون منها أحسنها وأطولها، فيجعلون ذلك الموضع موضعَ تعبدهم، ثمَّ يأخذون ذلك الصنم فيأتون شجرةً عظيمةً من تلك الشجر فيُنقبون فيها موضعًا يركبونه فيها فيكون سُجودهم وطوافهم نحو تلك الشجرة.

(١) (البركهيكية) هكذا في الملل والنحل: ٣/ ١٠٥.

٣. الدهكينية:

من سُتَّهم أن يأخذوا صنماً على صورة امرأة، وفوق رأسه تاج، وله أيدٍ كثيرة، ولهم عيد في يوم من السنة عند استواء الليل والنهار، والشمس والقمر، ودخول الشمس في الميزان؛ فيتخذون في ذلك اليوم عريشاً عظيماً بين يدي ذلك الصنم، ويُقربون إليه القرابين من الغنم وغيرها، ولا يذبحونها ولكن يضربون أعناقها بين يديه بالسيوف، ويقتلون [من] أصابوا من الناس قرباناً بالفيلة^(١) حتى ينقضي عيدهم، وهم مسيئون عند عامة أهل الهند بسبب الغيلة.

٤. الجلهكية، أي عبادة الماء:

يزعمون أن الماء ملك ومعه ملائكة، وأنه أصل كل شيء، وبه [كل] ولادة ونمو ونشوء وبقاء وطهارة وعمارة، وما من عمل في الدنيا إلا ويحتاج إلى الماء، فإذا أراد الرجل عبادته تجرد وستر عورته ثم دخل الماء، حتى وصل إلى حلقه فيقيم ساعة أو ساعتين أو أكثر، ويأخذ ما أمكنه من الرياحين فيقطعها صغاراً، يلقي فيه بعضه بعد بعض وهو يسبح ويقرأ، فإذا أراد الانصراف حرَّك الماء بيده، ثم أخذ منه فنقَّط به رأسه ووجهه وسائر جسده خارجاً، ثم سجد وانصرف.

٥. الاكنواطرية، أي عبادة النار:

زعموا أن النار أعظم العناصر جرمًا، وأوسعهم حيِّزًا، وأعلىها مكانًا، وأشرفها جوهرًا، وأنورها ضياءً وإشراقًا، وألطفها جسمًا وكيانًا، والاحتياج

(١) في المصدر: (بالغيلة).

إليها أكثر من الاحتياج جسمًا إلى سائر الطبائع، ولا كون في العالم إلا بها، ولا حياة ولا نمو ولا انعقاد إلا بمهازجتها.

وإنما عبادتهم لها أن يحفروا أخدودًا مربعًا في الأرض ويؤججوا النار فيه، ثم لا يدعون طعامًا لذيذًا، ولا شرابًا لطيفًا، ولا ثوبًا فاخرًا، ولا عطرًا فائحًا، ولا جوهرًا نفيسًا، إلا طرحوها فيه تقربًا إليها وتبركًا بها، وحرّموا إلقاء النفوس فيها وإحراق الأبدان بها، خلافًا للجماعة الأخرى من زهاد الهند، وعلى هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظماؤها؛ يعظمون النار لجوهرها تعظيمًا بالغًا، ويقدمونها على الموجودات كلّها، ومنهم زهاد وعباد يجلسون حول النار صائمين، يسدون منافسهم حتى لا يصل من أنفاسهم من نفس صدر عن صدر محرّم، وستتهم الحث على الأخلاق الحسنة، والمنع من أضدادها، وهي: الكذب، والحسد، والحقد، واللجاج، والبغي، والحرص، والبطر، فإذا تجرد الإنسان قرب من النار وتقرب إليها^(١)، انتهى ما نقلناه عن الملل والنحل.

وليس لنا كتاب غيره الآن حتى نستنسخ منه، وأظن أنه لا حاجة لنا إلى ذكر أقوال غير ما ذكرناه، إذ المقصود حاصل به، وأنت خير بأن المذاهب في زمان الجاهلية ليست منحصرًا بما ذكرناه، إلا أن البعرة تدل على البعير. وأما ذكر حكماء الهند فلا نحتاج إليه، فإن البحث ليس في أقوال الحكماء، بل في المذاهب والأديان، والحمد لله رب العالمين.

فقوله (عليه السلام): (وأهل الأرض) إلى قوله (عليه السلام) (من الجهالة) إشارة إلى ما ذكرناه وغير ما ذكرناه والغرض أن الله سبحانه بعث

(١) ينظر: الملل والنحل: ٣/ ١٠٥-١٠٧، وما بين المعقوفات من المصدر.

نبيّه (صلى الله عليه وآله) وأنقذهم به من الضلالة والجهالة، ولولاه لهلك الناس كلُّهم في الغواية والشرك والنفاق، والله المنة على عباده، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا...﴾^(١) «إلخ»^(٢).

سادساً- مكارم الشيرازي:

قال: «قال (عليه السلام): (فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ)»^(٣).

سابعاً- السيد نبيل الحسنی:

يُرشد قوله (عليه الصلاة والسلام): «فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ» -فضلاً عما أفاده الشراح- إلى أمور؛ منها:

أولاً- في قصديّة الهداية في النصّ الشريف.

إنّ الهداية هنا عامة ومطلقة غير مقيدة أو محصورة بمكانٍ أو زمانٍ؛ وذلك بقريظة «أهل الأرض» الذين بُعثَ فيهم، فجميعهم سيهديهم الله تعالى به (صلى الله عليه وآله).

ثانياً- في دلالة الإنقاذ في النصّ الشريف.

إنّ إنقاذهم بالنبيّ (صلى الله عليه وآله) يقتضي أن يكون متلازماً مع دوام أمره في هداية الناس؛ وهذا يقتضي أيضاً أن يكون الإسلام والشريعة

(١) آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٢) مفتاح السعادة: ١/ ٤٦٤-٤٩٦.

(٣) نفحات الولاية: ١/ ١٥٠، وقد أثبت الشارح هذه الفقرة من كلامه (عليه السلام) دون التعرّض لبيانها.

التي بُعِثَ بها غالباً على أهل الأرض؛ وهذا لا يتحقق إلا عبر أهل بيته (عليهم السلام)، وقد دلّ عليها جملة من الآيات المباركة والأحاديث النبوية الشريفة؛ منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

٢- ﴿بَقِيَّةَ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾^(٢).

٣- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٣).

وقد ورد في بيانها:

١- أخرج أحمد في المسند، عنه (صلى الله عليه وآله): قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «الْمُنذِرُ وَالْهَادِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(٤).

٢- أخرج الحاكم النيسابوري في المستدرک، عن عليّ (عليه السلام): ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال عليّ: «رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْمُنذِرُ وَأَنَا الْهَادِي»^(٥)، وأعقبه الحاكم بقوله: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه؛ أي البخاريّ ومسلم.

(١) الأنبياء، الآية: ١٠٥-١٠٧.

(٢) هود، الآية: ٨٦.

(٣) الرعد، الآية: ٧.

(٤) مسند أحمد: ١/١٢٦.

(٥) المستدرک على الصحيحين: ٣/١٣٠.

٣- وأخرج الشيخ الكليني (رحمه الله)، عن أبي بصيرٍ قال قلتُ لأبي عبد الله (عليه السلام): ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؟ فقال: «رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْمُنذِرُ وَعَلِيُّ الْهَادِي، يَا أَبَا مُحَمَّدٍ هَلْ مِنْ هَادٍ الْيَوْمَ؟ قُلْتُ: بَلَى جُعِلَتْ فِدَاكَ، مَا زَالَ مِنْكُمْ هَادٍ بَعْدَ هَادٍ حَتَّى دُفِعَتْ إِلَيْكَ.

فَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ لَوْ كَانَتْ إِذَا نَزَلَتْ آيَةٌ عَلَى رَجُلٍ ثُمَّ مَاتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مَاتَتِ الْآيَةُ، مَاتَ الْكِتَابُ، وَلَكِنَّهُ حَيٌّ يُجْرِي فِي مَنْ بَقِيَ، كَمَا جَرَى فِي مَنْ مَضَى»^(١).

وروى أيضا، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، فقال: «رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْمُنذِرُ، وَعَلِيُّ الْهَادِي، أَمَا وَاللَّهِ مَا ذَهَبَتْ مِنَّا وَمَا زَالَتْ فِينَا إِلَى السَّاعَةِ»^(٢).

ثالثاً- ملازمة الهداية والإنقاذ للناس.

ما زال الناس تائهين في الضلالة ومغرقين في الجهالة ما لم يتمسكوا بالثقلين كتاب الله وعتره النبي أهل بيته (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) كما سيمرّ بيانه في المبحث القادم؛ وذلك لقوله (صلى الله عليه وآله): «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَحَدْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا؛ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترتي أَهْلَ بَيْتِي»^(٣).

والحمد لله على فضله وفضل رسوله (صلى الله عليه وآله).

(١) الكافي: ١/ ١٩١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) سنن الترمذي: ٣٢٨/٥.

المطلب السابع: الحقول المعرفية في قوله (عليه السلام): «ثُمَّ اخْتَارَ سَبْحَانَهُ مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، فَأَكْرَمَهُ عَنِ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مُقَارَنَةِ البَلْوَى، فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)».

اشتمل النص الشريف على جملة من الحقول المعرفية؛ كاللغة، والإعراب، والشرح، وهي على النحو الآتي:

المسألة الأولى: المعنى اللغوي:

أولاً- الراوندي:

قال: «قَبَضَ اللهُ لِلْعِبَادِ: إِمَاتَتَهُمْ^(١)»^(٢).

ثانياً- الخوئي:

قال: «(رَغِبَ) بالكسر من باب تَعَبَ إذا تَعَدَّى بكلمة (في)، فبمعنى: الإرادة والميل، وإذا عُدِّي بـ(عن) فبمعنى: الإعراض والعُدول، يُقال: رَغِبَ فيه رَغْبًا ورغبةً إذا أَرَادَهُ، وَرَغِبَ عنه إذا لم يُرِدْهُ وَأَعْرَضَ عنه^(٣)، و(البَلْوَى) والبلاء بمعنى واحد^(٤)»^(٥).

المسألة الثانية: الإعراب:

أولاً- الخوئي:

(١) ينظر: الصحاح: ٣/ ١١٠٠، مادة (قبض).

(٢) منهاج البراعة: ١/ ٨٨.

(٣) ينظر: جمهرة اللغة، ابن دريد: ١/ ٣٢٠، مادة (رغب)، الصحاح: ١/ ١٣٧، مادة (رغب).

(٤) ينظر: مجمل اللغة، ابن فارس: ١/ ١٣٣، مادة (بلي).

(٥) منهاج البراعة: ٢/ ١٧٥.

قال: «(كَرِيماً) حال من مفعول (قَبْضُهُ)»^(١).

ثانياً- مغنيّة:

قال: «و(كَرِيماً) حال من الهاء في (قَبْضُهُ)»^(٢).

ثالثاً- مؤسّسة علوم نهج البلاغة:

قال (عليه السلام): «ثُمَّ اخْتَارَ سَبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، فَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغَبَ بِهِ عَنْ مُقَارَنَةِ الْبُلُوَى، فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)»: (ثُمَّ اخْتَارَ سَبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِقَاءَهُ): (ثُمَّ): حرف عطف، (اخْتَارَ): فعلٌ ماضٍ، والفاعل ضمير مستتر يعود على الله تعالى، (سُبْحَانَهُ) مفعول مطلق وقيل نائب عن المفعول المطلق منصوب، (لِمُحَمَّدٍ): جارٌّ ومجرور متعلق بالفعل (اخْتَارَ)، (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): (صَلَّى): فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على فَتْحٍ مُقَدَّرٍ، (اللهُ): لفظ الجلالة فاعل مرفوع، (عَلَيْهِ): جارٌّ ومجرور، (وَآلِهِ): الواو: حرف عطف، (آلِهِ): اسم معطوف على الهاء في (عَلَيْهِ) مجرور، وهو مضاف، والهاء ضمير متّصل في محلّ جرٍّ بالإضافة، (لِقَاءَهُ): مفعول به منصوب، وهو مضاف، والهاء ضمير في محلّ جرٍّ مضاف إليه.

(وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ): الواو حرف عطف، (رَضِيَ): فعلٌ ماضٍ والفاعل ضمير مستتر يعود على الله تعالى، (لَهُ) جارٌّ ومجرور متعلّق بالفعل (رَضِيَ)، (مَا عِنْدَهُ): (مَا): اسم موصول في محلّ نصب مفعول به، (عِنْدَهُ): عند: ظرف

(١) منهاج البراعة: ١٧٦/٢.

(٢) في ظلال نهج البلاغة: ٦٢/١.

مكان وهو مضاف، والهاء ضمير في محل جر مضاف إليه، وشبه الجملة صلة الموصول والجملة معطوفة على سابقتها.

(فَأَكْرَمَهُ عَنِ دَارِ الدُّنْيَا): جملة معطوفة أيضًا وكذا ما بعدها (وَرَغِبَ بِهِ عَنِ مُقَارَنَةِ البَلْوَى).

(فَقَبَّضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)) الفاء عاطفة للسبب (قَبَّضَهُ) فعلٌ ماضٍ، والفاعل ضمير مستتر، والهاء ضمير مفعول به، (إِلَيْهِ) جارٌّ ومجرور متعلق بالفعل (قَبَّضَ)، (كَرِيمًا) حال من الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) ثم إعرابها سابقًا.

المسألة الثالثة: أقوال الشراح:

أولاً- الراوندي:

قال: «قال: وكلما مات الأنبياء كلهم نقلهم الله إلى جواره»^(١).

ثانياً- البحراني:

قال: «أحبَّ الله سبحانه لقاءه، كما أحبَّ هو لقاء الله، كما قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ)^(٢)، ورَضِيَ له ما عنده من الكرامة التامة، والنعمة العامة، في جواره الأمين؛ في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِرٍ.

(فَأَكْرَمَهُ عَنِ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ عَنِ) مجاورة (البَلْوَى) ومقام الأذى (فَقَبَّضَهُ) الله (إِلَيْهِ) عند انتهاء أجله (كَرِيمًا) عن أدناس الذنوب، طاهرًا

(١) منهاج البراعة: ١/ ٨٦.

(٢) مصباح الشريعة، الإمام الصادق (عليه السلام): ١٧٢، بحار الأنوار: ٦/ ١٣٣.

في ولادته الجسمانية والروحانية (صلى الله عليه وآله) ما برق بارق وذرّ شارق»^(١).

ثالثاً- الخوئي:

قال: «(ثُمَّ) إِنَّ مُحَمَّدًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، لَمَّا بَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَأَكْمَلَ الدِّينَ، وَأَتَمَّ النُّعْمَةَ، وَهَدَى الْأُمَّةَ (مِنَ الضَّلَالَةِ) وَأَنْقَذَهَا (مِنَ الْجَهَالَةِ)، (اخْتَارَ) اللَّهَ (سُبْحَانَهُ) عِنْدَ ذَلِكَ لَهُ -أَي: (لِمُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)- (لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ) مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، (فَأَكْرَمَهُ) وَأَعَزَّهُ (عَنْ) اللَّبْثِ وَالْبَقَاءِ فِي (دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ) وَصَرَفَهُ (عَنْ) إِقَامَةِ (مَقَامِ) (الْمِحْنَةِ) وَ(الْبُلُوَى، فَقَبَضَهُ) أَي: قَبَضَ رُوحَهُ الشَّرِيفَ، (إِلَيْهِ): أَي: إِلَى قُرْبِهِ الرُّوحَانِيِّ حَالِ كَوْنِهِ (كَرِيمًا) شَرِيفًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، وَكَانَ قَبْضُهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) (لَاثِنَتِي عَشْرَةَ لَيْلَةً مَضَتْ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ، وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ سَنَةً) عَلَى مَا فِي الْكَافِي^(٢)، وَالْأَشْهُرُ أَنَّهُ لِلْيَلْتَيْنِ بَقِيَّتَا مِنْ صَفَرٍ^(٣)»^(٤).

رابعاً- مغنية:

قال: «قال (عليه السلام): (ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ؛ أَبَدًا لَا مَهْرَبَ مِنَ الْمَوْتِ لِكَبِيرٍ أَوْ صَغِيرٍ، وَلَا

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠٧.

(٢) الكافي: ١/ ٤٣٩.

(٣) ينظر: المقنعة، المفيد: ص ٤٥٦، تهذيب الأحكام، الطوسي: ٦/ ٢، روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ٧١.

(٤) منهاج البراعة: ٢/ ١٧٨.

لنبيٍّ أو شقيٍّ، فهو الطالب الحثيث الذي لا يفوته المقيم، ولا يُعجزه الهارب،
والسعيد من سارع إلى الخيرات»^(١).

خامساً- التستري:

قال: «ثُمَّ اخْتَارَ سَبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَكَذَا فِي الْمَصْرِيَّةِ^(٢)،
وَالصَّوَابُ: (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) كَمَا فِي ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ^(٣)، وَابْنِ مِيثَمِ^(٤)،
وَالْخَطِيئَةُ.

(لِقَاءُهُ) بَارْتَحَالَهُ؛ رَوَى الطَّبْرِيُّ مُسْنَدًا عَنْ أَبِي مُوَيْهَبَةَ مَوْلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ)، قَالَ: (بَعَثَنِي النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ لِي:
يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ، إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ أَنْ أَسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبَيْعِ فَاَنْطَلِقْ مَعِي، فَاَنْطَلَقْتُ
مَعَهُ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ، لِيَهْنِ لَكُمْ
مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ فِيهِ، أَقْبَلْتَ الْفِتْنُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَتَّبِعُ
آخِرُهَا أَوَّلَهَا، الْآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الْأُولَى.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ، فَقَالَ:

يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا، ثُمَّ الْجَنَّةَ،
خَيْرٌ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي وَالْجَنَّةِ، فَاخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي وَالْجَنَّةَ.

قال: قلتُ: بأبي أنت وأُمِّي، فَخُذْ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ،

(١) في ظلال نهج البلاغة: ٦٣/١.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق: محمد عبدة: ٢٥/١، وفيها (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ).

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ١١٦/١، وفيه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ).

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة، البحراني: ١٩٩/١، وفيه (ص).

فقال: لا والله يا أبا موهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة، ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف، فبدأ النبي (صلى الله عليه وآله) بوجعه الذي قُض فيه^(١).

(فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وبعد بلاغه رسالات ربه، روى الطبري: (عن ابن مسعود قال: نعى إلينا نبينا وحبينا (صلى الله عليه وآله) نفسه قبل موته بشهر)، إلى أن قال: (فقلنا: متى أجلك؟ قال: قَدْ دَنَا الْفِرَاقُ وَالْمُنْقَلَبُ إِلَى اللهِ، وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى).

قلنا فمن يغسلك يا نبي الله؟ قال: (أهلي الأدنى فالأدنى)، قلنا: ففيم نكفّنك يا نبي الله؟ قال:

فِي ثِيَابِي هَذِهِ إِنْ شِئْتُمْ، أَوْ فِي بِيَاضِ مِصْرَ، أَوْ فِي حُلَّةِ يَمَانِيَّةٍ) إلى أن قال: (إِذَا غَسَلْتُمُونِي، وَكَفَّتُمُونِي، فَضَعُونِي عَلَى سَرِيرِي فِي بَيْتِي هَذَا عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي، ثُمَّ أَخْرَجُوا عَنِّي سَاعَةً، فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيَّ جَلِيسِي وَخَلِيلِي جِبْرَائِيلُ، ثُمَّ مِيكَائِيلُ، ثُمَّ إِسْرَافِيلُ، ثُمَّ مَلَكَ الْمَوْتِ مَعَ جُنُودِ كَثِيرَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِأَجْمَعِهَا).

إلى أن قال: (قلنا: فمن يدخلك في قبرك يا نبي الله؟ قال:

أَهْلِي مَعَ مَلَائِكَةٍ كَثِيرِينَ، يَرُونَكُمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)^(٢)»^(٣).

سادساً- النقوي:

قال: «إن الله تعالى بعد ما أرسله (صلى الله عليه وآله) رحمة للناس، وبلغ ما أنزل عليه من ربه، وأدى رسالته، وأتى بما أمره الله به، اختار له المقام بدار

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٤٣٥-٤٣٦.

(٣) بهج الصباغة: ٢/ ١٤٥-١٤٦.

القرار والخلود والارتحال، عن دار المجاز والغرور، قضاء حكمه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلِيهَا فَاِنْ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٣). ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾^(٥)، وأمثال ذلك من الآيات الدالة على أن الموت لا بُدَّ منه على كل مخلوق نبياً كان أو غيره ولا بقاء دائماً إلا لله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾^(٦)، ويستنبط من هذا الكلام وجوه من المعاني:

الأول: إنه (صلى الله عليه وآله) ما اختار لنفسه شيئاً من الموت والحياة، بل الله تعالى اختار له ما اختاره؛ ويدل عليه قوله (عليه السلام): (تَمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِقَاءَهُ)، وفيه إشعار إلى كمال قربته (صلى الله عليه وآله) إلى الحق، وفنائته المحض في وجود الواجب، بحيث لا تبقى له إرادة واختيار بل الأمر بالكليّة مفوض إليه، كما قال الصادق (عليه السلام): (إِنْ شَاءَ اللَّهُ شِئْنَا وَإِنْ أَرَادَ أَرَدْنَا)^(٧).

(١) الرحمن، الآية: ٢٦-٢٧.

(٢) الزمر، الآية: ٣٠.

(٣) الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٤) آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٥) الفجر، الآية: ٢٧-٢٨.

(٦) طه، الآية: ١١١.

(٧) ينظر: تفسير الفرات الكوفي: ٥٢٩، بحار الأنوار، المجلسي: ٢٦/٢٥٦.

الثاني: إنّه (عليه السلام) لم يُعبّر عنه بالموت، ولم يُقل: ثمّ اختار لمحمّد (صلّى الله عليه وآله) مَوْتَهُ، بل قال: (لِقَاءَهُ)؛ وفيه إشعار بأنّ الأرواح المقدّسة ولاسيما روح النبيّ [صلّى الله عليه وآله] الذي هو الصادر الأوّل وهو العقل الكلّيّ، والقلم الأعلى واللّوح والعرش والكرسيّ وغيرها، من شدّة نورانيّته ودُنُوّه بمقام القُرب والمبدأ الفيّاض بحيث لا واسطة بينه وبين علّته لا موت فيه حقيقة، فإنّ الموت عبارة عن انسلاخ البدن من الرُّوح، وقطع علاقة التدبير للرُّوح عن البدن العنصريّ، وفي النبيّ ليس الأمر كذلك، إذ الانسلاخ وقطع العلاقة لا يُعقل إلّا في الأرواح الضعيفة التي حين تعلّقها بالأبدان كانت في مقام العقل الهولاني، ثمّ الترقّي لها إلى مقام عقلٍ آخر، ففي كلّ هذه النشآت يُدبّر الروح البدن تدبيراً يُغيّر تدبير نشأة القبل من حيث الكمال والنقص.

فإذا حان وقت مَوْتِهِ فيُقطع التدبير لا محالة ويتعلّق الرُّوح بالبدن المثاليّ على التحقيق حتّى تصل النوبة إلى المعاد والحشر فيرجع إليه ثانيّاً، وأمّا أرواح الأنبياء ولاسيما أولو العزم منهم، وبالأخصّ سيّد الأنبياء وكذا أولاده المعصومين فليست كذلك؛ حيث إنّ نفوسهم كانت من أوّل الأمر كاملة غير ناقصة، خلافاً لبعض الفلاسفة؛ لاعتقادهم فيهم أنّ نفوسهم بحسب الفطرة ناقصة، إلّا أنّها بعد طيّ مدارج الكمال تصير مكتملة بذواتها وبواطن ذواتها من علّله الذاتيّة، وأمّا بعد الاستكمال فربّما صار تامّاً، وقالوا إنّ نفوس الأفلاك أيضاً من هذا القبيل.

قال السبزواريّ (فُدّس سرّه) في منظومته وشرّحها: في غرر أنحاء

التقسيمات لفعل الله تعالى ما هذا لفظه: الفعل بمعنى المفعول إما أن يكون مسبوقةً بالمادة والمدّة وهو الكائن، وإمّا أن لا يكون مسبوقةً بشيءٍ منها، وهو المبتدع، وإمّا أن يكون مسبوقةً بالمادة دون المدّة وهو المخترع، وأمّا عكسه: احتمال في بادي النظر غير متحقّق في الخارج؛ وإليها أشير بقولنا:

الفعل إن يسبق هيولى مبتدع ومع لحوق كائن ومخترع^(١).

ثمّ قال (قده) بعد كلام:

بتمّ أو ناقص، أمّا مكتفى أو غيره الفعل كذا أيضًا يفي^(٢)

وقال في الشرح: (بتمّ متعلّق يفي؛ وهو ما ليس له حالة منتظرة - كالعقول، أو ناقص وهو بخلاف التامّ والناقص إمّا مكتفى: إن اكتفى بذاته وباطن ذاته من علّة ذاتيّة وخروجه من النقص إلى الكمال؛ كالأفلاك ونفوسها، ومن هذا القبيل نفوس الأنبياء بحسب الفطرة، وأمّا بعد الاستكمال فربّما صاروا تامّاً من التام^(٣) انتهى ما قاله.

وهذا تصريحٌ منه بأنّ نفوسهم بحسب الفطرة كانت ناقصة، وبعد الاستكمال صارت تامّة، وعليه لا فرق بيننا وبينهم إلّا في علّة الكمال؛ حيث إنّ العلّة فيها ذاتيّة، ومن بواطن ذواتها، وفيها خارجيّة، وأنّ الأرواح فيهم ربّما صارت تامّة كالعقول، وفيها ليس كذلك.

وأنت خير بأنّ حقيقة الأمر ليس كما ذكره (قدّس سرّه) تبعاً لسائر

(١) ينظر: شرح المنظومة، السبزواري: ١٧٢/٣.

(٢) شرح المنظومة، السبزواري: ١٧١/٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٧٣/٣.

الفلاسفة، وذلك لأنّ الأرواح فيهم بحسب الفطرة كانت كاملةً تامة لا أنّها ناقصةٌ وبصدد الاستكمال، وكيف لا يكون كذلك وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين ولادته (صلى الله عليه وآله) بناء على ما روي في الاحتجاج وغيره، عن العبد الصالح، أنّه (صلى الله عليه وآله): (وَضَعَ يَدَهُ الْيُسْرَى عَلَى الْأَرْضِ وَرَفَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)^(١).

وقال الواقديّ: لما أخبرتُ أمنةُ عبد المطلب بولادته (صلى الله عليه وآله)، فذهب عبد المطلب إلى أمنة مع أولاده ونظروا إلى وجه رسول الله [صلى الله عليه وآله] ووجهه كالقمر ليلة البدر يُسَبِّحُ وَيُكَبِّرُ فتعجّب منه عبد المطلب^(٢).

والرؤايات به كثيرة متواتره، وقد قال الله تعالى حكايةً عن عيسى وهو في المهدي: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^(٣)، وفي يحيى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾^(٤)، وهل يَعْقِلُ النبوة وإيتاء الكتاب والشهادة بالوحدانية؟ بل قوله (صلى الله عليه وآله): (كُنْتُ نَبِيًّا وَأَدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ)^(٥).

وأمثال ذلك لمن لم يُكْمَلِ نفسه بعد، بل وكذلك بالنسبة إلى المعصومين (سلام الله عليهم أجمعين)؛ هذه فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) كانت تتكلم

(١) الاحتجاج، الطبرسي: ١ / ٣٣١، بحار الأنوار: ٤٥ / ١٠. في الاحتجاج وغيره ورد القول عن أمير المؤمنين (عليه السلام) هكذا، وقال: «يُحْرُكُ شَفْتَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ».

(٢) ينظر: الفضائل، ابن شاذان: ٢١، بحار الأنوار، المجلسي: ٢٩٠ / ١٥.

(٣) مريم، الآية: ٣٠.

(٤) مريم، الآية: ١٢.

(٥) مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٨٣.

مع أمِّها خديجةَ في الرَّحِمِ، وهذان الحسنُ والحسينُ قد كلَّما أمَّهما في الرَّحِمِ، وكذا سائر الأئمَّة، ألم تَرَوِ الرواةُ وتواترَ عنهم أنَّ عليًّا (عليه السلام) حين ولادته، قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١) مع أنَّ القرآن لم ينزل، فكيف يمكن لنا القول بما قاله بعض الفلاسفة من كون نفوسهم بحسب الفطرة ناقصةً وبعد الاستكمال فربَّما صاروا تامًّا، فإنَّ يمكن التكلُّم بالقرآن أو في المهد أو أمثال ذلك بالنسبة إلى نفوس الناقصة فلا بحث لنا معهم، وإنَّ لم يمكن فكيف تكلموا؟ فظهر أنَّ النفوس الكاملة ليست كنفوسنا من كلِّ الوجوه، فعلى مَسلكنا في الفلسفة في بحث النفوس، فإنَّ قال ولا سيَّما نفس النبيِّ والمعصومين من وُلده (عليهم السلام) من أوَّل الأمر كانت كاملةً لا إشكال فيه، ولتحقيق هذا البحث مقام آخر وقد حقَّقناه في محلِّه بما لا مزيدَ عليه.

والحاصل: إنَّ نفوسهم ليس لها تعلُّقُ بأبدانهم العنصريَّة كتعلُّق نفوسنا بها، حتَّى يُطلَق الموتُ عليها حقيقةً كما يُطلَق علينا، بل هم بعد الموت وقبل الموت سيَّان، كما ورد: أشهد أنَّك تسمع كلامي وتردُّ سلامي وأنت حيٌّ عند ربِّك مرزوق.. إلخ^(٢)، فالموت بمعنى الانقطاع كما هو معناه الحقيقي ليس فيهم، ولست أقول أنَّهم لا يموتون، فإنَّ البقاء لله وحده، ولكنِّي أقول: إنَّهم يموتون بموتٍ غير سائر الأموات، كما أنَّ حياتهم دون سائر الأحياء، فافهم واغتنم قوله (عليه السلام): (وَرَضِي لَهُ مَا عِنْدَهُ): وهذا إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(٣)، والباقي أوَّل من الفاني، ولما كان

(١) المؤمنون، الآية: ١.

(٢) ينظر: مصباح الزائر، ابن طاووس: ١٣٦.

(٣) النحل، الآية: ٩٦.

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) أَوْلَى المخلوقات وأشرفها بالمبدأ فلا جرم اختار الله سبحانه له عنده وَرَضِي بِهِ وهو البقاء ببقائه والدوام بدوامه، فإنَّ المخلوق إذا اتَّصف بصفات الخالق وَعَبَدَهُ عِبَادَةً تَلِيقُ بِجَنَابِهِ فيصير باقياً ببقائه وحيّاً بحياته، كما قال في حديث القدسي: (عَبْدِي أَطْعَمَنِي حَتَّى أَجْعَلَكَ مِثْلِي أَوْ مِثْلِي)^(١)، وأيُّ موجودٍ عبدَ الله تعالى أحسنُ من رسوله الخاتم؟ وفيه أيضاً إشارة إلى أنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) في مقام الرضا والتسليم لرَبِّه بمثابته لا يعقل فوقها لأحدٍ من الممكنات.

وأما قوله (عليه السلام): (فَأَكْرَمَهُ عَن دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ عَن مُقَارَنَةِ البُلُوَى)، فإشارة إلى دناءة الدنيا وَخِسَّتْهَا، وأنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) أَجْلُّ شَأْنًا وَأَرْفَعُ مَقَامًا من أن يكون في هذه الدنيا الدنيّة باقية ثابتة، فإنَّ مقامه الأصلي الذي يليق بجنابه هو مقام القرب والوصل ومرافقة الأبرار من الأنبياء المرسلين، والملائكة المقربين، لا مرافقة الأشرار والحياة الفانية الدائرة، وقوله (عليه السلام): (عَن مُقَارَنَةِ البُلُوَى) إشارة إلى أن الدنيا محفوفةٌ بالبلايا والهموم والآفات والسّموم، وهو كذلك كما قال (عليه السلام):

(دَارٌ بِالبَلَاءِ مُحْفُوفَةٌ، وَبِالغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ)^(٢)، ولولا أهميّة الإرشاد وتبليغ الأحكام من الله تعالى إلى عباده لم يسافر هو وسائر النفوس القدسيّة إلى هذه الدنيا طرفة عينٍ أبداً؛ لأنّهم ليسوا بأهلٍ لها كما هو واضح على العارف اللّيب.

(١) مشارق أنوار اليقين، الحافظ البرسي: ١٠٠.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق: د. صلاح مهدي الفرطوسي: ٢٨٤/٢.

وأما قوله (عليه السلام): (فَقَبِضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا) [فأبمنزلة النتيجة لما تقدّم، فإنّ الفاء فيه للتفريع، والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى بسبب الجهات التي مرّت ذكرها قبض روحه المقدّس عن القلب العنصريّ الملكيّ، وهو كناية عن موته حتّى لا يشكّ في موته شكًّا، ويعلم الناس كلّهم أنّ ما سوى الله يموت.

وأما قوله (عليه السلام): (كَرِيمًا) حيث اتّصف (عليه السلام) موته بالكرامة إشارة إلى ما قال (صلّى الله عليه وآله): حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَمَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ^(١)؛ فكما أنّ حياته كانت مشحونةً بالكرامة فكذلك مماته أيضًا؛ وبعد الفراغ عن شرح الجُمَلات نشير إلى زمان موته وكيفيته وسائر ما يتعلّق به، فنقول:

تاريخ وفاته:

قُبِضَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) فِي شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ لِلْيَلْتَيْنِ خَلَّتَا مِنْهُ^(٢).
وروي لثمانٍ عشرة ليلةً منه^(٣).

وقيل لعشرٍ خلون منه^(٤).

وقيل لثمانٍ بقين، منه وقيل لثمانٍ خلون من ربيع الأول^(٥)، وذلك في سنةٍ عشرٍ من الهجرة^(٦).

(١) ينظر: بصائر الدرجات، الصفار: ٤٦٣، معاني الأخبار، الصدوق: ٤١٠.

(٢) ينظر: تاريخ الطبري: ٤٤١/٢، تاريخ مواليد الأئمة، ابن الخشاب البغدادي: ٦.

(٣) ينظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي: ٤٠/٤، كشف الغمّة، الأربلي: ١٤/١.

(٤) ينظر: كشف الغمّة، الأربلي: ١٤/١.

(٥) ينظر: كشف الغمّة، الأربلي: ١٤/١.

(٦) ينظر: تهذيب الأحكام، الطوسي: ٢/٦، روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ٧١، تاريخ

مواليد الأئمة، ابن الخشاب البغدادي: ٥، كشف الغمّة، الأربلي: ١٤/١، بحار الأنوار،

المجلسي: ٥٠٣/٢٢.

فكان مقامه بمكة أربعين سنة قبل نزول الوحي، ثم نزل عليه الوحي في تمام الأربعين، وكان بعده بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم هاجر إلى المدينة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فأقام بالمدينة عشر سنين، ثم قبض (صلى الله عليه وآله)^(١).

وقال ابن الأثير في تاريخه: إنّه (صلى الله عليه وآله) قبض نصف النهار يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول^(٢)، والمشهور بين الإمامية أنّه قبض في يوم الاثنين لِلْيَلْتَيْنِ خَلَّتَا مِنْهُ^(٣) كما هو المتعارف في زماننا هذا، وأمّا يوم وفاته فلا خلاف يُعتدُّ به بين الفرقين ظاهرًا وهو يوم الاثنين.

وعن ابن عباس أنّه قال: لما مرّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعنده أصحابه، قام إليه عمّار بن ياسر فقال له: فداك أبي وأمي يا رسول الله، مَنْ يغسلك مِنّا، إذا كان ذلك منك؟ قال (صلى الله عليه وآله): ذَلِكَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (ذاك) لَأَنَّهُ لَا يَهُمُّ بِبَعْضِهِمْ مِنْ أَعْضَائِي إِلَّا أَعَانَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى ذَلِكَ).

فقال له: فداك أبي وأمي، فمَنْ يُصَلِّي عَلَيْكَ مِنّا إذا كان ذلك منك؟ قال (صلى الله عليه وآله): قَدْ رَحِمَكَ اللهُ، ثُمَّ قَالَ (صلى الله عليه وآله) لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (عليه السلام):

إِذَا رَأَيْتَ رُوحِي قَدْ فَارَقَتْ جَسَدِي فَأَغْسِلْنِي وَأَنْقِ غُسْلِي وَكَفِّنِّي فِي طَمْرِي هَذَيْنِ، أَوْ فِي بَيَاضِ مِصْرَ (جر) وَبُرْدِ يَمَانٍ وَأَحْمِلُونِي حَتَّى تَضْعُونِي

(١) ينظر: تاريخ مواليد الأئمة: ٦.

(٢) ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٣٢٣/٢.

(٣) ينظر: المحبر، ابن حبيب البغدادي: ١٢، تاريخ يعقوبي: ١١٣/٢، تفسير مجمع البيان، الطبرسي: ٢١٤/٢.

عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي، فَأَوَّلُ مَنْ يُصَلِّي عَلَيَّ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ ثُمَّ جَبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ فِي جُنُودٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ، ثُمَّ الْحَافُونَ بِالْعَرْشِ ثُمَّ سُكَّانُ السَّمَاءِ (أهل السماء) ثُمَّ جُلُّ أَهْلِ بَيْتِي وَنِسَائِي الْأَقْرَبُونَ فَلْأَقْرَبُونَ يُومِتُونَ إِيْمَاءً وَيُسَلِّمُونَ تَسْلِيمًا، لَا تُؤَدُّونِي بِصَوْتٍ نَادِيَةٍ وَلَا رَنَّةٍ^(١).

وروي عن ابن عباس أيضًا، أنه قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ذلك المرض كان يقول: (أدعوا لي حبيبي) فجعل يدعو له رجل بعد رجل فيعرض عنه، فقبل لفاطمة (عليها السلام) امضي إلى عليّ فما نرى رسول الله (صلى الله عليه وآله) يريد غير عليّ (عليه السلام)، فبعثت فاطمة إلى عليّ (عليهم السلام)، فلما دخل فتح رسول الله (صلى الله عليه وآله) عينيه وتهلّل وجهه، ثم قال:

(إيَّ يَا عَلِيُّ أَيَّ يَا عَلِيُّ) فما زال (صلى الله عليه وآله) يُدنيه حتى أخذه بيده وأجلسه عند رأسه، ثم أغمي عليه، فجاء الحسن والحسين (عليهما السلام) يصيحان ويبكيان حتى وقعا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأراد عليّ (عليه السلام) أن يُنحّيهما عنه فأفاق رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليه وآله، ثم قال:

يَا عَلِيُّ دَعْنِي أَشْمَهُمَا وَيَشْمَانِي وَأَتَزَوَّدُ مِنْهُمَا وَيَتَزَوَّدَانِي^(٢) (مني) أما إني سَيُظْلَمَانِ بَعْدِي وَيُقْتَلَانِ ظُلْمًا، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى مَنْ يَظْلِمُهُمَا).

(١) ينظر: الأمالي، الصدوق: ٧٣٢-٧٣٣، روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ٧٢-٧٣.

(٢) (ويترودان مني) هكذا في المصدر.

يقول ذلك ثلاثاً، ثم مَدَّ يده إلى عليٍّ (عليه السلام) فجذبه إليه حتى أدخله تحت ثوبه الذي كان عليه ووضع فاهَ عليٍّ فيه وجعل يُناجيه مناجاةً طويلة حتى خرجت روحه الطيبة (صلى الله عليه وآله) فأنسلَّ عليٌّ (عليه السلام) من تحت ثيابه وقال:

(أَعْظَمَ اللَّهُ أُجُورَكُمْ فِي نَبِيِّكُمْ فَقَدْ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ).

فارتفعت الأصوات بالضجَّة والبكاء، فقبل لأمر المؤمنين (عليه السلام) ما الذي ناجاك به رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين أدخلك تحت ثيابه، فقال:

عَلَّمَنِي أَلْفَ بَابٍ، كُلُّ بَابٍ يَفْتَحُ أَلْفَ بَابٍ^(١).

وقال الصادق (عليه السلام):

(إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) أَوْصَى إِلَى عَلِيٍّ أَنْ لَا يُغَسِّلَنِي غَيْرُكَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ يُنَاوِلُنِي الْمَاءَ وَأَنْتَ رَجُلٌ ثَقِيلٌ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْلَبَكَ؟ فَقَالَ: جَبْرَيْلُ (عليه السلام) مَعَكَ يُعَاوِنُكَ وَيُنَاوِلُكَ الْفَضْلُ الْمَاءَ، وَقُلْ لَهُ فَلْيُغَطِّ عَيْنَيْهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَرَى أَحَدٌ عَوْرَتِي غَيْرَكَ إِلَّا انْفَقَأَتْ عَيْنَاهُ»، قال: «كَانَ الْفَضْلُ يُنَاوِلُهُ الْمَاءَ، وَجَبْرَيْلُ يُعَاوِنُهُ، وَعَلِيٌّ يُغَسِّلُهُ، فَلَمَّا فَرِغَ مِنْ غَسْلِهِ وَكَفَّنَهُ أَتَاهُ الْعَبَّاسُ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَيَّ أَنْ يُدْفَنَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله) فِي بَقِيعِ الْمِصَلِّ وَأَنْ يُؤَمَّهُمْ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَخَرَجَ عَلِيٌّ (عليه السلام) إِلَى النَّاسِ، فَقَالَ: أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) إِمَامُنَا حَيًّا وَمَيِّتًا؟ وَهَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ (صلى الله عليه وآله) لَعَنَ مَنْ جَعَلَ الْقُبُورَ مُصَلَّى،

(١) ينظر: الأمالي، الصدوق: ٧٣٦-٧٣٧.

وَلَعَنَ مَنْ يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا، وَلَعَنَ مَنْ كَسَرَ رُبَاعِيَّتَهُ وَشَقَّ لِسْتَهُ؟» قال فقالوا: «الْأَمْرُ إِلَيْكَ فَاصْنَعْ مَا رَأَيْتَ، قال: وَإِنِّي أَدْفِنُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي قُبِضَ فِيهَا، ثُمَّ قَامَ عَلَى الْبَابِ فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ النَّاسَ عَشْرَةَ عَشْرَةَ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ ثُمَّ يَخْرُجُونَ»^(١).

[عدد أولاده (صلى الله عليه وآله)]^(٢).

قال ابن الأثير: (أولاده (صلى الله عليه وآله) في تاريخه، في عدد أولاده.

فولدت له ثمانية:

- ١- القاسم ٢- الطيب ٣- الطاهر ٤- عبد الله ٥- زينب
- ٦- رُقِيَّة ٧- أم كلثوم ٨- فاطمة الزهراء (عليها السلام).

وهذه كلها من خديجة، ولم يولد له ولدٌ من غيرها إلا إبراهيم^(٣) انتهى.

فعلى ما ذكره مجموع أولاده النبي (صلى الله عليه وآله) تصير تسعة؛ خمسة من الذكور وأربعة من الإناث.

(وروي عن الصادق (عليه السلام) عن أبيه قال (عليه السلام): «وُلِدَ لِرَسُولِ اللَّهِ مِنْ خَدِيجَةَ: ١- القاسم ٢- الطاهر ٣- أم كلثوم ٤- رُقِيَّة ٥- زينب ٦- فاطمة، فَزَوَّجَ عَلِيًّا فَاطِمَةَ (عليهما السلام) وَتَزَوَّجَ أَبُو الْعَاصِ ابْنَ رَبِيعَةَ وَهُوَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ زَيْنَبَ، وَتَزَوَّجَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ أُمَّ كُلْثُومَ وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا حَتَّى هَلَكَتْ، وَزَوَّجَهُ رَسُولُ اللَّهِ مَكَانَهَا رُقِيَّةَ، ثُمَّ وُلِدَ لِرَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ

(١) فقه الرضا، علي بن بابويه القمي: ١٨٨-١٨٩، بحار الأنوار، المجلسي: ٥١٧/٢٢.

(٢) لم يرد العنوان في المصدر، ولكن أثبتناه هنا ليسهل على القارئ متابعة الشرح.

(٣) ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٣٠٧/٢.

عليه وآله) مِنْ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ، إِبْرَاهِيمَ وَهِيَ مَارِيَةُ الْقُبَيْطِيَّةُ، أَهْدَاهَا إِلَيْهِ صَاحِبُ
الإِسْكَانْدَرِيَّةِ مَعَ الْبَغْلَةِ الشَّهْبَاءِ وَأَشْيَاءَ مَعَهَا^(١). انتهى.

أقول: وأنت ترى أنّ في هذه الرواية ليس من عبد الله والطيب، أثرًا أصلاً،
مع أنّ صاحب الكامل أثبتهما في عداد أولاده، وقال ابن هشام في سيرته في
أولاده (صلى الله عليه وآله) من خديجة:

١- القاسم.

٢- الطيب.

٣- الطاهر.

وأكبر بناته: رُقِيَّةٌ ثُمَّ زَيْنَبٌ ثُمَّ أُمُّ كَلْثُومٍ ثُمَّ فَاطِمَةُ، وَأُمَّا إِبْرَاهِيمَ فَأُمُّهُ
مَارِيَةُ قُبَيْطِيَّةٌ^(٢).

فعليه لا تصير أولاده (صلى الله عليه وآله) جمعا تسعة بل ثمانية.

وأنا أقول: قد أخطأ ابن الأثير في تاريخه، وابن هشام في سيرته، وذلك
لأنّ القاسم وعبد الله هما الملقبان بالطاهر والطيب؛ فالطاهر والطيب لقبان
لهما لا ولدان له (صلى الله عليه وآله)، وأهل البيت أدري بما في البيت، ففي
الرواية المذكورة المراد بـ(الطاهر) إنّها هو عبد الله، وإنّما أتى (عليه السلام)
بلقبه دون اسمه، ويظهر من بعض حواشي السيرة أيضاً ما ذكرناه، إلاّ أنّه
قال الطاهر والطيب لقبان لعبد الله، ونحن قلنا لقبان لهما، وعلى أيّ تقدير
لا إشكال في أنّه ليس لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وكذا يسمّى بالطيب

(١) قرب الإسناد، الحميري القمي: ٩، بحار الأنوار، المجلسي: ١٥١/٢٢.

(٢) ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام: ١/١٢٢-١٢٣.

والطاهر، فعلى هذا أولاده تصير سبعة؛ ثلاثة من الذكور، وأربعة من الإناث، ثم إنه لا خلاف في أن أولاده (صلى الله عليه وآله) ماتوا جميعاً في حياته (صلى الله عليه وآله)، وما بقيت بعده إلا فاطمة الزهراء (عليها السلام).

وها هنا قول آخر؛ وهو أنه نُقِلَ عن (البلاذريّ والأنوار والكشف واللمع أن زينب ورقية كانتا ربييتيه من جحش)^(١) فعلى هذا تصير أولاده خمسة.

- عدد أزواجه (صلى الله عليه وآله):

قال في الكامل قال ابن الكلبي: إن النبي (صلى الله عليه وآله) تزوج خمس عشرة امرأة ودخل بثلاث عشرة وجمع بين إحدى عشرة، وتوفي عن تسع:

١ - وأول امرأة تزوجها خديجة بنت خويلد^(٢):

وكان تزوجها قبله عتيق بن عابد بن عمر بن مخزوم، ومات عنها، ثم تزوجها أبو هالة بن زرارة بن نباش بن عدي التميمي فولدت له هند ابن أبي هالة، ثم مات عنها، فتزوجها رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولم يتزوج على خديجة في حياتها أحد، وكان موثها قبل الهجرة بثلاث سنين^(٣).

ولنذكر سمةً من حوالات خديجة وسائر زوجاته؛ تميمًا للبحث وتكميلاً للفائدة.

فنقول: لا خلاف بين العامة والخاصة في أن خديجة أول زوجة تزوجها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة قد

(١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ١/ ١٤٠، بحار الأنوار، المجلسي: ١٥٢/ ٢٢.

(٢) لم يضع الشارح عددًا في تسلسله لأزواج النبي (صلى الله عليه وآله)، ولعل ذلك وقع سهواً.

(٣) ينظر: الكامل في تاريخ، ابن الأثير: ٣٠٧/ ٢.

مضت عليها أربعون سنة، ولا خلاف أيضًا في أن أولاد رسول الله (صلى الله عليه وآله) سوى إبراهيم من خديجة، ولم يتزوج عليها في حياتها أحدًا كما ذكرنا.

نَسَبُهَا:

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصيِّ بن كلاب بن مُرّة بن كعب، بن لؤي، بن غالب، فنسبها (عليه السلام) يتحد مع النبي في قُصيِّ بن كلاب، فهما من شجرة واحدة^(١)، ولهذا ترى خديجة تُخاطب النبي (صلى الله عليه وآله) في بعض كلماته يا بن عم^(٢) (وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواح بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب)^(٣).

سَبَبُ تزويجها به (صلى الله عليه وآله):

(رُوي عن جابر أنه قال: كان سَبَبُ تزويج خديجة محمدًا (صلى الله عليه وآله) أن أبا طالب قال: يا محمد إني أريد أن أزوجه ولا مال لي أساعدك به، وأن خديجة تُخرج كل سنة قريشًا في مالها مع غلمانها يتجر لها ويأخذ وقر بعير مما أتى به، فهل لك أن تخرج؟ قال: (نعم)، فخرج أبو طالب إليها وقال لها ذلك، فخرجت وقالت لغلامها مسيرة: أنت وهذا المال كلُّه بحكم محمد (صلى الله عليه وآله)، فلما رجع مسيرة حدث أنه ما مرّ بشجرة ولا مدرة إلا قالت: السلام عليك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وقال:

(١) ينظر: تاريخ دمشق، ابن عساکر: ٣/ ١٩٢.

(٢) ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام: ١/ ١٥٧، كشف الغمّة، الأربلي: ٢/ ١٣٤.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام: ١/ ١٢٢.

جاء بحيرا الراهب وخدمنا لما رأى الغمامة على رأسه تسير حيثما سار وتُظَلُّه بالنهار، ورَبِحَا في ذلك السَّفَرِ رِبْحًا كَثِيرًا، فلَمَّا انصرفا قال ميسرة: لو تقدّمت يا محمّد (صلى الله عليه وآله) إلى مكّة وبشّرت خديجة بما قد ربحتنا لكان أنفع لك، فتقدّم محمّد (صلى الله عليه وآله) على راحلته وكانت خديجة ذلك اليوم جالسة على غرفة مع نسوة فظهر لها محمّد (صلى الله عليه وآله) راكبًا، فنظرت خديجة إلى غمامة عالية على رأسه تسير بسيره ورأت ملكين عن يمينه وعن شماله، في يد كلِّ ملكٍ سيفٌ مسلول يجيئان في الهواء معه، فقالت: إن لهذا الرّاكب لشأنًا عظيمًا ليتّه جاء إلى داري، فإذا هو محمّد (صلى الله عليه وآله) قاصدًا لدارها، فنزلت حافية إلى باب الدار، وكانت إذا أرادت التحوّل من مكانٍ إلى مكانٍ حوّلت الجوّاري السريّر الذي كانت عليه، فلَمَّا دنت منه، قالت: يا محمّد (صلى الله عليه وآله)، اخرج وأحضر لي عمّك أبا طالب الساعة، وقد بعثت إلى عمّها أن زوّجني من محمّد (صلى الله عليه وآله) إذا دخل عليك، فلَمَّا حضر أبو طالب قالت: اخرجنا إلى عمّي ليزوّجني من محمّد (صلى الله عليه وآله) فقد قلتُ له في ذلك، فدخلا على عمّها وخطب أبو طالب بهذه الخطبة)^(١).

(الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم الخليل، ومن ذرية الصفيّ إسماعيل، وضئضئ معدّ، وعنصر مُضَرّ، وجعلنا حصنة بيته، وسوّاس حرّمه، وجعل مسكننا بيتًا محجّوجًا، وحرّمًا آمنًا، وجعلنا الحكّام على الناس، ثمّ ابن أخي هذا محمّد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) لا يُوازنُ برجل من قريش إلا رجح به، ولا يُقاس بأحدٍ منه إلا عَظُم عنه، وإن كان في

(١) الخرائج والجرائح: ١/١٣٩-١٤٠، بحار الأنوار: ١٦/٣-٤.

المال مُقْلًا فَإِنَّ الْمَالَ وَرَقٌ حَائِلٌ وَظِلٌّ ضَائِلٌ^(١) وله والله خطب عظيم، ونبأ شائع، وله رغبة في خديجة، ولها فيه رغبة، فزَوَّجُوهُ وَالصَّدَاقُ مَا سَأَلْتُمُوهُ مِنْ مَالِي آجَلُهُ وَعَاجِلُهُ، فقال: خويلد زوَّجناه ورضينا به^(٢)، فقال عبد الله ابن غنم في ذلك:

هَنِيئًا مَرِيئًا يَا خَدِيجَةُ قَدْ جَرَتْ
تَزَوُّجَتِهِ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
وَبَشَّرَ بِهِ الْمَرْءَانِ^(٣) عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ
أَقَرَّتْ بِهِ الْكُتَّابُ قَدَمًا بِأَنَّهُ
لَكَ الطَّيْرُ فِيمَا كَانَ مِنْكَ بِأَسْعَدِ
وَمَنْ ذَا الَّذِي فِي النَّاسِ مِثْلُ مُحَمَّدٍ
وَمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ فَيَأْقُرُّبَ مَوْعِدِ
رَسُولٍ مِنَ الْبَطْحَاءِ هَادٍ وَمُهْتَدٍ^(٤)

قال ابن هشام في سيرته: (وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن أسد بن عبد العزى وكان ابن عمها وكان نصرانياً قد تتبَّع الكُتْبَ وَعَلِمَ مِنْ عِلْمِ النَّاسِ مَا ذَكَرَ لَهَا غَلَامَهَا مَيْسِرَةً مِنْ قَوْلِ الرَّاهِبِ وَمَا كَانَ يَرَى مِنْهُ إِذْ كَانَ الْمَلِكُ يَظْلَانُهُ فَقَالَ وَرَقَةٌ: لئن كان هذا حقاً يا خديجة؛ إنَّ مُحَمَّدًا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لَنَبِيٌّ هَذِهِ الْأُمَّةُ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ كَائِنٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ نَبِيٌّ يُنْتَظَرُ، هَذَا زَمَانُهُ، أَوْ كَمَا قَالَ: فَجَعَلَ وَرَقَةٌ يَسْتَبْطِئُ الْأَمْرَ وَيَقُولُ: حَتَّى مَتَى؟ فَقَالَ وَرَقَةٌ فِي ذَلِكَ:

لَجِجْتُ وَكُنْتُ فِي الذِّكْرِ لَجُوجًا
وَوَصَفٍ مِنْ خَدِيجَةَ بَعْدَ وَصْفِ
لَهُمْ طَالَمَا بَعَثَ النَّشِيجَا
فَقَدْ طَالَ^(٥) انْتِظَارِي يَا خَدِيجَا

(١) (زائل) هكذا في مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٩، بحار الأنوار: ٦/ ١٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٩، بحار الأنوار: ١٦/ ٥-٦.

(٣) (البرَّان) هكذا في الكافي.

(٤) الكافي، الكليني: ٥/ ٣٧٥، مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ١/ ٤٠.

(٥) (فقد قال) هكذا في سيرة ابن هشام: ١/ ١٢٣.

بِبَطْنِ الْمَكْتَبَيْنِ عَلَى رَجَائِي
بِمَا خَبَرْتَنَا مِنْ قَوْلِ قَسِّ
بِأَنَّ مُحَمَّدًا سَيَسُودُ فِينَا
وَيُظْهِرُ فِي الْبِلَادِ ضِيَاءَ نُورٍ
فَيَلْقَى مَنْ يُحَارِبُهُ^(١) خَسَارًا
فَيَا لَيْتِي إِذَا مَا كُنْتُ ذَاكُمْ
وُلُوجًا فِي الَّذِي كَرِهَتْ قَرِيشُ
أُرْجِي بِالَّذِي كَرِهُوا جَمِيعًا
وَهَلْ أَمْرُ السَّفَالَةِ غَيْرُ كُفْرٍ
فَإِنْ يَبْقَوْا وَأَبَقَ تَكُنْ أُمُورٌ
وَإِنْ أَهْلَكَ فَكُلُّ فَتَى سَيَلْقَى
حَدِيثِكَ أَنْ أَرَى مِنْهُ خُرُوجًا
مِنَ الرَّهْبَانِ أَكْرَهُ أَنْ يَعُوجَا
وَيَخْصِمُ مَنْ يَكُونُ لَهُ حَجِيجًا
يُقِيمُ بِهِ الْبَرِيَّةَ أَنْ تَمُوجَا
وَيَلْقَى مَنْ يُسَالِمُهُ فُلُوجًا
شَهِدْتُ فَكُنْتُ أَوْلَهُمْ وَوُجَا
وَلَوْ عَجَّتْ بِمَكَّتِهَا عَجِيجًا
إِلَى ذِي الْعَرْشِ إِنْ سَفَلُوا عُرُوجًا
بِمَنْ يَخْتَارُ مِنْ سَمَكِ الْبُرُوجَا
يَضِجُ الْكَافِرُونَ لَهَا ضَجِيجًا
مِنَ الْأَقْدَارِ مُتْلَفَةً حُرُوجَا^(٢).

وقد أقرت الخاصة والعامة بفضلها وشرفها، والروايات الواردة في شأنها من الطرفين كثيرة متظاهرة؛ فمن ذلك ما روي في مسند أحمد بن حنبل (عن عبد الله بن جعفر، عن علي بن أبي طالب، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): خَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةٌ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ^(٣)).

ومنه (عن عبد الله بن جعفر، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أُمِرْتُ أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ، وَلَا نَصَبَ)^(٤)، ومنه (عن

(١) في مفتاح السعادة: (يجار به)، وما أثبتناه من المصدر كونه الأوفق بالسياق.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام: ١٢٣/١-١٢٤.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ١/١٣٢.

(٤) المصدر نفسه: ١/٢٠٥.

ابن عباس أن أول من صلى مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد خديجة علي (عليه السلام)^(١)، قال: وقد تقدم ذكر تقدم إسلامها وأنها سبقت الناس كافة، فلا حاجة إلى إعادة ذلك وهو مشهور^(٢).

وعن أنس بن مالك، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال:

(حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ)^(٣).

ومنه عن أبي عبد الله (عليه السلام) (عن عبد الله ابن أبي أوفى)، قال للنبي (صلى الله عليه وآله): بَشُرْ خَدِيجَةَ بَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ^(٤).

وروي أن جبرئيل أتى النبي (صلى الله عليه وآله) فسأل عن خديجة فلم يجدها فقال:

(إِذَا جَاءَتْ فَأَخْبِرْهَا أَنَّ رَبَّهَا يَقْرُؤُهَا السَّلَامَ)^(٥).

قلت: لا حاجة لنا إلى إطالة الكلام فيها؛ فإنها أول من أسلمت، وأنفقت جميع مالها في سبيل الله، وترويح الإسلام، مع شدة احتياج المسلمين إلى المال في صدر الإسلام، مضافاً إلى أنها قد أولدت فاطمة الزهراء (عليها السلام) سيّدة نساء العالمين، فلو لم يكن لها شرف وفضيلة إلا هذه لكفاها سلام الله عليها وعلى بعلها وابنتها من الآن إلى يوم الدين.

(١) ينظر: مسند أحمد بن حنبل: ١ / ٣٧٣.

(٢) كشف الغمّة، الأربلي: ٢ / ١٣٠.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٣ / ١٣٥.

(٤) ينظر: المعجم الأوسط، الطبراني: ٢ / ٣٥٧.

(٥) روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ٢٦٩.

٢- سودة.

ثم إنّه (لما تُوفِّيتُ خديجة نكح بعدها سودة بنت زمعة، وقيل: عائشة، وأمّا عائشة فكانت صغيرة يوم تزوّجها بنت ستّ سنين، وأمّا سودة فكانت امرأة ثيبيا، وكانت قبله عند السكران بن عمرو بن عبد شمس، أخي سهيل بن عمرو، وكان من مهاجرة الحبشة، فتنصّر بها ومات، فخلف عليها رسول الله وهو بمكة، وكان الذي خطبها عليه خولة بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون، فدخل بسودة بمكة، زوّجها منه أبوها زمعة بن قيس، فلما تزوّجها كان أخوها عبد بن زمعة غائبا، فلما قدّم جعل يثبي الترابَ على رأسه، فلما أسلم قال: إنّي سفيهٌ حيث فعلتُ ذلك، ونَدِمَ على ما كان منه)^(١).

٣- عائشة.

(وأمّا عائشة فدخل بها بالمدينة وهي ابنةُ تسع سنين ومات (صلّى الله عليه وآله) عنها وهي ابنة ثمانى عشرة سنة ولم يتزوَّج بكَراً غيرها، وماتت سنة ثمان وخمسين)^(٢).

٤- حفصة.

(ثم تزوّج بعد عائشة حفصة بنت عمر بن الخطّاب، وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي، وكان بدرياً ولم يشهد من بني سعد بدراً غيره، ولم تلد له شيئاً، وماتت بالمدينة في خلافة عثمان ابن عفّان)^(٣).

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٢/ ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٣٠٨.

(٣) المصدر نفسه.

٥- أُمُّ سَلَمَةَ.

(ثم تزوج بعد حفصة أُمُّ سَلَمَةَ ابنة أبي أُمَيَّة زاد الركب المخزوميَّة، وكانت قبله (صلى الله عليه وآله) عند أبي سَلَمَةَ ابن عبد الأسد المخزومي، شهد بدرًا وأصابته جراحةٌ يوم أحد فمات منها، وتزوجها رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبل الأحزاب، وماتت سنة تسع وخمسين، وقيل بعد قتل الحسين (عليه السلام))^(١)؛ أقول: وحديث القارورة^(٢) يدل عليه.

٦- زينب.

(ثم تزوج زينب بنت خزيمة، من بني عامر بن صعصعة، ويقال لها: أُمُّ المساكين، وتُوفيت في حياته، ولم يمُت في حياته غيرها وغير خديجة بنت خويلد، وكانت زينب قبله (صلى الله عليه وآله) عند الطفيل بن الحارث بن المطلب)^(٣).

٧- جويرية.

(ثم تزوج عام المريسيع^(٤) جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار الخزاعية، من بني المصطلق، وكانت قبله عند مسافع بن صفوان المصطلق، لم تلد له شيئاً)^(٥).

(١) الكامل في التاريخ: ٣٠٨/٢.

(٢) للمزيد من التفصيل ينظر: الإرشاد، المفيد: ١٣٠/٢-١٣١.

(٣) الكامل في التاريخ: ٣٠٨/٢.

(٤) أطلقت تسمية هذا العام على عام غزوة بني المصطلق وهو العام السادس للهجرة. ينظر:

المعجم الكبير، الطبراني: ٦٠/٢٤، مجمع الزوائد، ابن الهيثم: ١٤٢/٦.

(٥) الكامل في التاريخ: ٣٠٨/٢.

٨- أم حبيبة.

(ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت قبله (صلى الله عليه وآله) عند عبيد الله بن جحش، وكان من مهاجرة الحبشة فتنصر بها ومات، فأرسل النبي إلى النجاشي فخطبها إليه وتزوجها وهي بالحبشة، وزوجها منه خالد بن سعيد بن العاص، وقيل بل خطبها إلى عثمان بن عفان فزوجها منه، وبعث فيها إلى النجاشي فساق له المهر أربع مائة دينار وأرسلها إليه، وتوفيت في خلافة أخيها معاوية لعنة الله عليه ولم تلد شيئاً)^(١).

٩- زينب.

(ثم تزوج زينب بنت جحش، وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولاه، فلم تلد له شيئاً فزوجها الله إياه، وبعث في ذلك جبرئيل، وكانت تفتخر على نساء النبي (صلى الله عليه وآله)، وهي أول أزواجه، توفيت بعده في خلافة عمر بن خطاب)^(٢).

١٠- صفية.

(ثم تزوج عام خيبر صفية بنت حبي بن أخطب، وكانت قبله تحت سلام بن مشكم، فتوفي عنها وخلف عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فقتله محمد بن مسلمة^(٣) صبراً بأمر النبي ثم أعتقها النبي (صلى الله عليه وآله) وتزوجها سنة ست، وماتت سنة ست وثلاثين)^(٤).

(١) الكامل في التاريخ: ٣٠٨/٢ - ٣٠٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣٠٩/٢.

(٣) مسلمة) هكذا في الكامل في التاريخ: ٣٠٩/٢.

(٤) الكامل في التاريخ: ٣٠٩/٢.

١١ - ميمونة.

(ثم تزوج ميمونة ابنة الحارث الهلاليّة، وكانت قبله عند مسعود بن عمرو بن عمير الثقفيّ، ولم تلد له شيئاً، ثم خلف عليها أبو رهم ابن عبد العزّي بعد مسعود، ثم رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعده وهي خالة ابن عباس وخالد بن الوليد، وتزوجها في عمرة القضاء بسوف)^(١).

١٢ - (ثم تزوج امرأة من بني كلاب يُقال لها: شاه بنت رفاعة، وقيل هي سني ابنة أسماء بن الصّلت، وقيل ابنة الصّلت بن حبيب، توفيت قبل أن يدخل بها)^(٢).

١٣ - (ثم تزوج الشنباء ابنة عمرو الغفاريّة، وقيل: الكنانيّة، فمات إبراهيم ابنه قبل أن يدخل بها، فقالت: لو كان نبياً ما مات ابنه، فطلّقها)^(٣).

١٤ - (ثم تزوج غزية ابنة جابر الكلابيّة، خطبها عليه أبو أسيد الساعديّ، فلمّا قدّمت على النبيّ (صلى الله عليه وآله) استعادت بالله منه ففارقها)^(٤).

١٥ - (ثم تزوج أسماء ابنة النعمان بن الأسود بن شراحيل الكنديّ، فلمّا دخل بها وجد بها بياضاً فمتّعها وردّها إلى أهلها، وقيل: بل استعادت منه أيضاً فردّها)^(٥).

وبعضهم زاد في الزّوجات اثنتين أُخرتين، وهما:

(١) الكامل في التاريخ: ٣٠٩ / ٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ٣١٠ / ٢.

(٥) المصدر نفسه.

١٦ - ثم تزوج بعدها (عالية ابنة ظبيان ثم فارقتها)^(١).

١٧ - (ثم تزوج قتيلة بنت قيس أخت الأشعث فتوفي عنها قبل أن يدخل بها)^(٢).

١٨ - ثم (تزوج خولة ابنة الهذيل بن هبيرة)^(٣).

١٩ - ثم تزوج (ليلي ابنة الخطيم الأنصارية؛ عرضت نفسها عليه فتزوجها فأخبرت قومها فقالوا: أنت غيورٌ وله نساءٌ فاستقبله، فأقالتهُ، ففارقها)^(٤).

فعلى هذا تصير مجموع زوجاته (صلى الله عليه وآله) تسع عشر زوجة، والله أعلم بحقائق الأمور.

وأما عدد غزواته (صلى الله عليه وآله وسلم):

اختلفوا فيه؛ فمنهم من عدّها ستاً وعشرين غزوة، ومنهم من قال: بأثنا سبعمائة وعشرون، والأوّل: جعل غزوة خيبر وغزوة وادي القرى واحداً، والثاني جعلهما اثنتين^(٥)، وعلى أيّ حال أوّل غزوة غزاها تُسمّى بد (ودان) وهي الأبواء، ثم بواط بناحية رضوى، ثم العشيرة، ثم بدر الأولى ثم بدر التي قتل فيها قريشاً، ثم غزوة بني سليم، ثم غزوة السويق، ثم غزوة غطفان، ثم غزوة بحران بالحجاز، ثم غزوة أحد، ثم غزوة حمراء الأسد، ثم غزوة بني النضير، ثم غزوة ذات الرقاع، ثم غزوة بدر الآخرة، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قريظة، ثم غزوة بني لحيان

(١) الكامل في التاريخ: ٣١٠ / ٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ينظر: تاريخ الطبري: ٢ / ٤٠٤، مروج الذهب، المسعودي: ٢ / ٢٨٠-٢٨١.

من هذيل، ثم غزوة ذي قرد، ثم غزوة بني المصطلق، ثم غزوة الحديبية، ثم غزوة خيبر، ثم عمرة القضاء، ثم غزوة فتح مكة، ثم غزوة حنين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تبوك^(١) انتهى.

حج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

قال جابر: حج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حجّتين: حجة قبل أن يهاجر وحجة بعدها وقال عمر: اعتمر رسول الله ثلاث عمّر، وقالت عائشة: أربع^(٢).

صفة النبي:

ذكر صفة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): قال ابن الأثير في الكامل قال علي بن أبي طالب:

(كَانَ رَسُولُ اللَّهِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ، ضَخْمُ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ، بَاسِطَ^(٣) الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، ضَخْمَ الْكَرَادِيْسِ، مَشْرِبًا وَجْهَهُ حُمْرَةً، طَوِيلُ الْمَسْرُوبَةِ، إِذَا مَشَى تَكْفَأَ تَكْفَأًا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ، وَكَانَ أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ، سَبِطَ الشَّعْرِ، سَهْلَ الْخَدَّيْنِ، ذَا وَفْرَةٍ، كَانَ عُنُقُهُ إِبْرِيْقُ فِضَّةٍ، وَإِذَا التَّفَّتَ التَّفَّتَ جَمِيعًا، كَانَ الْعَرَقُ فِي وَجْهِهِ اللَّوْلُو الرَّرِيبُ الطَّيِّبُ عَرَقُهُ وَرِيْحُهُ^(٤)).

هذا خلاصة ما أوردنا في المقام من حالاته (صلى الله عليه وآله وسلم) وزوجاته وسائر ما يتعلّق به، ومن أراد التفضيل فعليه بالكتب المفصلة^(٥).

(١) ينظر: تاريخ الطبري: ٢/٤٠٤.

(٢) ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٢/٣٠٥.

(٣) (شنن) هكذا في الكامل في التاريخ: ٢/٣٠٥.

(٤) الكامل في التاريخ: ٢/٣٠٥.

(٥) مفتاح السعادة: ١/٤٩٦-٥١٦.

سابعًا- مكارم الشيرازي:

قال: «(ثُمَّ اخْتَارَ سَبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ فَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مُقَارَنَةِ الْبُلُوَى)^(١). أجل، فقد قَبَضَهُ إِلَيْهِ قَبْضَ اخْتِيَارٍ وَكَرَامَةٍ، (فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)^(٢).

ثامنًا- السيد نبيل الحسنی:

يُرشد قوله (عليه الصلاة والسلام): «ثُمَّ اخْتَارَ سَبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، فَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مُقَارَنَةِ الْبُلُوَى، فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)» -فضلاً عما أفاده الشَّرَاح- إلى أمور؛ منها:

أولاً- دلالة «الاختيار» في النَّصِّ الشريف تظهر أنَّ مَوْتَ المعصوم (عليه السلام) يختلف عن مَوْتِ بني البشر.

يُرشد قوله (عليه السلام): «ثُمَّ اخْتَارَ سَبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِقَاءَهُ» إلى بيان سِمَةِ من سَمَاتِ المعصومين سواء كانوا أنبياء أو مرسلين أو أئمة (سلام الله عليهم أجمعين)، وهي سِمَةُ التسليم لما يختاره الله تعالى لهم في الحياة والمات، وهو أمر انمازوا به عن جميع بني البشر، بمعنى أنَّ الله تعالى أطلعهم على صفة ماتهم وطريقة انتقالهم إلى الآخرة، فسَلَّموا الله ما اختاره لهم ورضوا به.

(١) قال الشارح مكارم الشيرازي: «إذا تعدَّتْ (رغب) بحرف في عنت: الرغبة في الشيء والإقبال عليه، بينما تعني: العزوف عن الشيء والانصراف عنه، حيث يكون معنى العبارة: أنَّ الله لم يُردِّ لنبيه أن يعيش صعاب الدنيا أكثر من هذا الحدِّ، فقبضه من هذا العالم الدني ليضمَّه إلى جواره في العالم العلوي». نفحات الولاية، الشيرازي: ١/ ١٥٠.

(٢) نفحات الولاية: ١/ ١٥٠-١٥١.

وقد بيّن القرآن هذه الخصيصة في حديثه عن نبيّ الله عيسى (عليه السلام)، فقال عزَّ وَجَلَّ:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِنِّي فَتَوَّيْتُكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(١)، فقد أخبر الله عيسى بوفاته واختار له لقاءه في الوقت المحدد الذي أطلع عليه عيسى (عليه السلام).

وقد بيّن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) هذه الحقيقة وكذا أئمة العترة (عليهم السلام)، فمما جاء في ذلك:

١ - قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في الساعات الأخيرة من عمره الشريف، وقد أمره الله تعالى بزيارة قبور أهل البقيع، مصطحباً معه (أبو مويهبة)^(٢) ليكون هو الشاهد على هذه الحقيقة التي سمعها من رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، فيقول -واللفظ لأحمد بن حنبل^(٣)-:

«بعثني رسول الله [صلّى الله عليه وآله] من جوف الليل، فقال:

يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ، إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ أَنْ أَسْتَعْفَرَ لِأَهْلِ الْبُقَيْعِ فَاَنْطَلِقْ مَعِي.

فانطلقتُ معه، فلما وقف بين أظهرهم، قال:

(١) آل عمران، الآية: ٥٥.

(٢) أبو مويهبة: مولى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) كان من مولدي مزينة، اشتراه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعتقه .

يقال : إنه شهد المريسيع، ولا يوقف له على اسم، روى عنه عبد الله بن عمرو بن العاص، وعده ابن حبان في الثقات. (أسد الغابة، ابن الأثير: ٦/٣٠٢، الثقات: ٣/٤٥٣).

(٣) مسند أحمد: ٣/٤٨٩.

السَّلَامَ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ، لِيَهِنَ لَكُمْ مَا أَصَبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّكُمْ اللَّهُ مِنْهُ، أَقْبَلْتِ الْفِتْنُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَتَّبِعُ أَوْلَهَا آخِرَهَا، الْآخِرَةُ شَرُّ مِنَ الْأُولَى.

قال: ثمَّ أقبل عليَّ فقال: يَا أَبَا مُؤَيْبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا، ثُمَّ الْجَنَّةَ، وَخَيْرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ، وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةِ، قال: قلتُ: بِأبي وأُمِّي فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، قال:

لَا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُؤَيْبَةَ، لَقَدْ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي وَالْجَنَّةَ.

ثمَّ استغفر لأهل البقيع، ثمَّ انصرف، فبدأ رسول الله [صلى الله عليه وآله] في وجعه الذي قبضه الله عزَّ وجلَّ فيه حين أصبح^(١).

٢- قال أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)، «على منبر الكوفة، فأخذ بلحيته، ثمَّ قال: مَتَى يُبْعَثَ أَشْقَاهَا حَتَّى يُخَضَّبَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ»^(٢).

وقال أيضا: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَهْدَ إِلَيَّ أَنْ لَا أَمُوتَ حَتَّى أُوْمَرَ، ثُمَّ تَخْضِبَ هَذِهِ، يَعْنِي: لِحِيته، مِنْ دَمِ هَذِهِ، يَعْنِي: هَامَتِهِ»^(٣).

(١) سنن الدارمي: ٣٧/١، المستدرک علی الصحیحین، الحاکم: ٥٦/٣، السیرة النبویة، ابن هشام: ٢٤٧/٤، الطبقات الكبرى، ابن سعد: ٢/٢٠٤، نهاية الأرب، النويري: ٣٦٢/٨، السیرة النبویة، ابن كثير: ٤٤٣-٤٤٤، دلائل النبوة، البيهقي: ٧١٦-٧١٧، تاريخ الطبري: ١٨٨/٣، أنساب الأشراف، البلاذري: ٥٤٤/١، تاريخ الإسلام، الذهبي: المغازي، الواقدي: ٥٤٥.

(٢) الأحاد والمثاني، الضحاک: ١/١٤٨، الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٣/٣٨٨، الشفا بحقوق المصطفى (صلى الله عليه وآله)، القاضي عياض: ٣٣٩، كشف الغمة، الأربلي: ١٩٠.

(٣) مناقب علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ابن المغازلي: ٦٥، مسند أحمد بن حنبل: ١/١٠٢، دلائل النبوة، البيهقي: ٤٣٨/٦.

٣- وقال الإمام الحسين السبط الشهيد (عليه السلام) في بيان اختيار الله لوفاته وطريقة مماته، وتصريحه بذلك قبل خروجه إلى أرض كربلاء:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ وَمَا شَاءَ اللَّهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، [وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ]، خُطَّ الْمَوْتُ عَلَى وُلْدِ آدَمَ مَخَطَّ الْقِلَادَةِ عَلَى جِيدِ الْفَتَاةِ، وَمَا أَوْهَنِي إِلَى أَسْلَافِي أَشْتِيَاقَ يَعْقُوبَ إِلَى يُوسُفَ، وَخَيْرِي مِصْرَ عَ أَنَا لِأَقِيهِ، كَأَنِّي بِأَوْصَالِي تُقَطِّعُهَا عُسْلَانُ الْفَلَوَاتِ بَيْنَ النَّوَاوِيسِ وَكَرْبَلَاءَ، فَيَمْلَأَنَّ مِنِّي أَكْرَاشًا جَوْفًا وَأَجْرِبَةً سُغْبًا، لَا يَحِيصُ عَنْ يَوْمِ خُطِّ بِالْقَلَمِ، رِضَا اللَّهِ رِضَانَا أَهْلَ الْبَيْتِ، نَصَبِرُ عَلَى بَلَائِهِ وَيُؤَفِّقُنَا أَجْوَرَ الصَّابِرِينَ، لَنْ تَشُدَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِحُمَّتُهُ، وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ لَهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدْسِ، تَقَرُّ بِهِمْ عَيْنُهُ، وَيُنْجِزُ بِهِمْ وَعْدَهُ، مَنْ كَانَ بَاذِلًا فِينَا مُهْجَتَهُ، وَمُوطِنًا عَلَى لِقَاءِ اللَّهِ نَفْسَهُ فَلْيَرَحِلْ مَعَنَا؛ فَإِنِّي رَاحِلٌ مُضِيحًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى»^(١).

وَمِنْ تَمَّ فِدَالَةَ الْاِخْتِيَارِ فِي النَّصِّ كَاشِفَةٌ عَنِ عِلْمِ الْمُعْصُومِ (عَلَيْهِ السَّلَام) بَوَفَاتِهِ وَالتَّسْلِيمِ لِلَّهِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ وَبِمَا اخْتَارَ.

ثَانِيًا - دَلَالَةُ الرِّضَا الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) فِي النَّصِّ الشَّرِيفِ.

يُنْتَقَلُ بِنَا النَّصِّ الشَّرِيفِ إِلَى بَيَانِ سِمَةِ أُخْرَى مِنْ سِمَاتِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) وَالتِّي تَوَاشَجَتْ وَاتَّسَقَتْ مَعَ الْوَحْيِ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ؛ وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَدَّ لَهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) فِي الْآخِرَةِ مَا يُرْضِيهِ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَخْضُ بِهِ مَخْلُوقٌ قَطُّ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ سِوَى حَبِيبِهِ الْمُصْطَفَى

(١) مشير الأحزان، ابن نما الحلي: ٢٩، اللهوف، ابن طاووس: ٣٨.

(صلى الله عليه وآله)، وهذا أمرٌ في غاية التأمل، فما الذي بلغه (صلى الله عليه وآله) من التوحيد والمعرفة والتعبُّد لinal هذه المنزلة؟

وقد أخبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة في سورة الضحى، فقال سبحانه: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾^(١)، وقوله تعالى من سورة الإسراء: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾^(٢).

وقد ورد في آداب الأذان أن السامع يُستحبُّ له أن يدعو الله تعالى بهذا الدعاء: «اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا [صلى الله عليه وآله] الوسيلة، والشفاعة، والفضيلة، وأبعثه المقام المحمود الذي وعدته، وأرزقني شفاعته يوم القيامة»^(٣).

ومن ثمَّ فقد أعدَّ الله تعالى لنبِيِّه (صلى الله عليه وآله) ما يُرضيه من الوسيلة، والفضيلة، والمقام المحمود، والشفاعة، والحوض، وغيرها ممَّا لا يعلمه إلاَّ الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) وعترته أهل بيته (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

ثالثاً- دلالة كرم الله لنبِيِّه في وفاته (صلى الله عليه وآله).

ينتقل بنا النصُّ الشريف إلى بيان حقيقة أُخرى من الحقائق المرتبطة بمنزلة النبيِّ (صلى الله عليه وآله) عند الله تعالى، فضلاً عن منزلته في الدنيا بالقياس

(١) الضحى، الآية: ٤-٥.

(٢) الإسراء، الآية: ٧٩.

(٣) المبسوط، الشيخ الطوسي: ٩٧/١.

إلى الآخرة، وهي كالآتي:

١- ممّا لا ريب فيه أنّ صفة الكرم تقتضي أن يفيض الكريم على ضيفه بـجودِه، وأن تتعاضم العطيّة بتعاضم الضيف ومنزلته وشأنه وعنوانه، بل وتتعاضم أكثر فيما يعنيه الضيف في نفس الكريم.

ومن ثمّ فالنصّ الشريف يُرشدنا إلى هذه الحقيقة وهي: إنّ الكريم هو الله تعالى وممّا لا ريب فيه أنّه أكرم الأكرمين، بل لا يُدانيه في الكرم مخلوق، وأنّ القادم عليه هو أيضًا لا يُدانيه مخلوق في شأنه ومنزلته وعنوانه، وأنّه أيضًا لا يُدانيه مخلوق في الحبّ والقرب، وحسبنا في ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾^(١) إلى الحدّ الذي يتساءل فيه الوحي متعجبًا من تلك العقول التي تُمّاري النبيّ (صلّى الله عليه وآله) فيما يرى، قائلاً عزّ شأنه: ﴿أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾!!

٢- إنّ الله تعالى لما ابتلى نبيّه آدم (عليه السلام) بإخراجه من الجنّة وإنزاله إلى الأرض، أنّما كان لبيان حقيقة المقامين: مقام الآخرة ومقام الدُّنيا، وما سميت بالدُّنيا إلّا لدُنُوّها وتضاغر شأنها عند الله تعالى، ومن ثمّ لم يزل آدم الذي شهد الجنّة وعالم الملك يبكي على ما شاهد وعاش وترك منزله فيها، وسرى ذلك في نفوس الأنبياء والمرسلين والأولياء وعباد الله الصّاحين، فهُم تحنُّ أرواحهم إلى كرامة الله تعالى لهم بالخروج من الدُّنيا والعُروج بأرواحهم إلى الآخرة؛ ومن ثمّ: تكون وفاة الحبيب المصطفى (صلّى الله عليه وآله) هي إكرامًا من الله تعالى له وحفاوةً وتعظيمًا.

رابعاً- دلالة النصّ الشريف في «وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مُقَارَنَةِ الْبَلْوَى».

قال الشارح الخوئي (رحمه الله) في بيان معنى: «رَغِبَ» بالكسر من باب تَعِب: إذا تعدّى بكلمة (في)، فبمعنى الإرادة والميل، وإذا عُدِّيَ به (عن) فبمعنى: الإعراض والعُدول، يُقال: رَغِبَ فِيهِ رَغْبًا وَرَغْبَةً إِذَا أَرَادَهُ، رَغِبَ عَنْهُ إِذَا لَمْ يُرِدْهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وهذا المعنى اللُّغَوِيُّ فِي «رَغِبَ» المقرون بعن يُرشد إلى أنّ الله تعالى عَدِلَ بالنبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عن الدُّنْيَا وَأَعْرَضَهُ عَنْهَا، فلم يرغب بها له مقامًا بعد أن أدّى ما بَلَغَ به صَادِعًا بأمر ربّه، كما وصفه أمير المؤمنين (عليه السلام) في مواضع أُخرى، فقال:

«أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعًا، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقًا، فَأَدَّى أَمِينًا، وَمَضَى رَشِيدًا»^(١).

وقال أيضًا: «فَبَلَغَ الرَّسَالََةَ صَادِعًا بِهَا، وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالًا عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْإِهْتِدَاءِ، وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً، وَعُرَى الْإِيمَانِ وَثِيقَةً»^(٢).

خامسًا- «مُقَارَنَةِ الْبَلْوَى» بالدُّنْيَا.

إنّ مقارنة النصّ الشريف البلوى بالدُّنْيَا عائدٌ إلى أمورٍ؛ منها:

١- إنّ قصد البلوى في النصّ الشريف يعود على الدُّنْيَا فهي محلّ البلوى؛ وذلك بوصفها محلّ التزيين، وكلُّ زينةٍ هي ابتلاء، وذلك لقوله تعالى: ﴿زِينَتٍ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ

(١) نهج البلاغة، تحقيق صبحي صالح: ١٤٥-١٤٦.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧٠.

حُسْنُ الْمَاءِ ﴿١﴾ وقوله سبحانه: ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٢).

٢- إنَّ قَصْدَ النَّصِّ فِي الْبَلْوَى يَعُودُ إِلَى وَقُوعِ الْفِتَنِ وَلَا سِيَّامًا إِنْ أَشَدَّ مَا يُبْتَلُونَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) هُوَ انْقِلَابُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ التَّنْزِيلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٣).

وقد أخبر النبي (صلى الله عليه وآله) عن هذه البلوى التي تقع في الأمة بعد وفاته، ومن ثم فقد «رَغِبَ» الله تعالى «بِهِ عَنِ مُقَارَنَةِ الْبَلْوَى»؛ هذه البلوى التي وصفها النبي (صلى الله عليه وآله) كأنها: «قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ» في خروجه لزيارة أهل البقيع والاستغفار لهم - كما مرَّ بيانه آنفًا - وكقوله وكشفه لحقيقة انقلاب عدد من أصحابه وأحداثهم من بعده كما يخرجهم البخاري ومسلم في صحيحيهما، أنه قال:

«بينما أنا قائم فإذا زمرة حتى إذا عرفتهم، خرج رجل من بيني وبينهم.

(١) آل عمران، الآية: ١٤.

(٢) آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٣) المائدة، الآية: ١١٦-١١٧.

فقال: هَلُمَّ.

فقلت: أين؟

قال: إلى النار والله.

فقلت: وما شأنهم؟

قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقري.

ثم إذا زُمرَةٌ حتَّى إذا عرفتهم، خرج رجلٌ من بيني وبينهم، فقال هَلُمَّ،

قلت: أين؟

قال: إلى النار والله.

قلت: ما شأنهم؟

قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقري، فلا أراه يخلص منهم إلا

مثل همل النعم»^(١) أي القليل جدًا.

٣- أخرج مسلم في صحيحه، عن عائشة، قالت: سمعتُ رسول الله (صلى

الله عليه وآله وسلم) يقول وهو بين ظَهْراني أصحابه:

«إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُهُ عَلَيَّ مِنْكُمْ فَوَاللَّهِ فَلْيَقْطَعَنَّ دُونِي رِجَالٌ،

فَلَأَقُولَنَّ: أَيُّ رَبِّ! مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي، فيقول: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بِعَدِّكَ، مَا

زَالُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»^(٢).

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق: ٢٠٩/٧، فتح الباري بشرح صحيح البخاري:

٢٩٦/١٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: إثبات الحوض: ٤/١٧٩٤ حديث ٢٢٩٤.

٤- أخرج ابن حجر والدارقطني، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال:

«يَرِدُ عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِي فَيُجْلَوْنَ عَنِ الْحَوْضِ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحَدُثُوا بَعْدَكَ؛ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَيَّ أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرِي»^(١).

٥- وفي صحيح مسلم أيضاً، فيقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

«إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي»^(٢).

ومن ثم: فقد رَغِبَ اللهُ تعالى به عن هذه البلوى.

سادساً- دلالة قوله (عليه السلام): «فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً (صلى الله عليه وآله)».

ينتقل بنا النص الشريف إلى بيان حقيقة أخرى في سبته (صلى الله عليه وآله)؛ وهي انتقاله إلى ربه وقبض روحه المقدسة، وقد كشفت النصوص الشريفة عن بيان المراسيم الإلهية الخاصة التي باشرت قبض روح سيّد الخلق للقاء بارئها حيث موطنها ومنشؤها ومحلها.

ولقد كان أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) يفتخر على الصحابة جميعاً بما خصّه الله تعالى من الكرامة في تلك اللّحظات والمراسيم الإلهية التي نقلت الملائكة فيها روح الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وآله)، فيقول:

(١) فتح الباري لابن حجر: ٤٦٤/١١ و ٢٩٥/١٣ حديث ٦٥٨٦ ط دار الفكر، الإلزامات والتبعية للدارقطني/ ١٢٢ ط دار الكتب العلمية.

(٢) صحيح مسلم: باب إثبات الحوض: ٤/١٧٩٣، منحة المعبود: ٢/٢٣١ ط المكتبة الإسلامية.

«وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، أَنِّي لَمْ أُرِدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ، وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا، (وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ رَأْسَهُ عَلَى صَدْرِي وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَزْتُهَا عَلَى وَجْهِي، وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمَلَأْتُكَ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَّةُ، مَلَأُ يَهْبِطُ وَمَلَأُ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقْتُ سَمْعِي هَيْئَةً مِنْهُمْ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ، حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْحِيهِ»^(١)، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا»^(٢).

والحمد لله على فضله وفضل رسوله (صلى الله عليه وآله).

(١) ما بين الهالين أوردته العلامة الزمخشري في: ربيع الأبرار، باب المرآة.

(٢) نهج البلاغة، خطبة ١٩٥ ص ٣٨٠ ط مصر، بشرح محمد عبده، وبشرح ابن أبي الحديد: ٥٤١/٢ أفسست بيروت، و ١٩٠/١٠ بتحقيق محمد أبو الفضل ط مصر.

القسم الثالث:

« خاتمة المبحث ونتائجه »

المسألة الأولى: أقوال الشُّراح في خاتمة المبحث:

ينفرد الشيخ مكارم الشيرازي عن بقية الشُّراح بوضع خاتمة لهذا المطلب، فقال:
«تأمل: الأديان قبل البعثة النبوية.

لقد تضمَّنت عبارته (عليه السلام) إشاراتٍ مقتضبة عميقة المعنى بشأن أديان العرب وغير العرب في العصر الجاهليّ وقبل البعثة النبوية، بحيث صرَّح المؤرِّخون والمحقِّقون بأنَّ العرب وعلى غرار سائر الأقسام كانت تعيش عدَّة أديانٍ ومذاهب لا يُحصى عددها إلى جانب الانحرافات والخرافات الجمَّة.

وقد قال ابن أبي الحديد -الشارح المعروف لنهج البلاغة- بشأن أديان العرب في الجاهليَّة: (فأمَّا الأُمَّة التي بُعثَ النبيّ محمَّد (صلى الله عليه وآله) فيها فهم العرب، وكانوا أصنافاً شتى، فمنهم مُعطلَّة ومنهم غير مُعطلَّة، فأمَّا المعطلَّة منهم، فبعضهم أنكر الخالق والبعث والإعادة، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(١)، فجعلوا الجامع لهم الطبع، والمهلك لهم الدهر، وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعث؛ وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٢)^(٣).

(١) الجاثية، الآية: ٢٤.

(٢) يس، الآية: ٧٨.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١١٧/١-١١٨.

(ومنهم من لا يُطَلَقُ عليها لفظ (الشريك)، ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه، وهم الذين قالو: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(١)، وكان في العرب مُشَبَّهَةٌ ومُجَسِّمَةٌ، منهم أُمَيَّةُ بن الصَّلْتِ، وهو القائل:

مِنْ فَوْقِ عَرَشِ جَائِسٍ قَدْ حَطَّ رِجْلُ
لِيَهْ إِلَى كُرْسِيِّهِ الْمَنْصُوبِ)^(٢)

(وذهب بعض متكلمي المجسِّمة إلى أَنَّ الباري تعالى مُرَكَّبٌ من أعضاء على حروف المعجم، وقال بعضهم: أَنَّهُ ينزل على حمارٍ في صورة غلام أمرد، في رجليه نَعْلان من ذهب، وعلى وجهه فراش من ذهب يتطاير، وقال بعضهم: أَنَّهُ في صورة غلام أمرد صبيح الوجه، عليه كساء أسود، ملتحفٌ به)^(٣).

(فأما الذين ليسوا بمعطلة من العرب؛ فالقليل منهم، وهم المتأهون أصحابُ الوَرَعِ والتحرُّجِ عن القبائح: كعبد الله، وعبد المطلب، وابنه أبي طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة الإيادي، وعامر بن الظرب العدواني، وجماعة غير هؤلاء)^(٤).

أما البعض الآخر من سُراح نهج البلاغة فقد صنَّفوا علماء العرب إلى عدَّة طوائف، منهم العارفون بالأنساب، ومفسرو الأحلام، ومتخصِّصون في علم الأنواء (نوع من التنجيم المشوب بالخرافات) والكهنة الذين يوحون إلى الناس بأنهم يُحِبُّون عن مغيبات المستقبل، أمَّا من غير العرب كان البراهمة الذين عاشوا في الهند يُنكرون كافة الأديان ولا يؤمنون سوى بالأحكام العقلية،

(١) الزمر، الآية: ٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ١١٩ / ١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٢٧ / ٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٢٠ / ١.

وطائفةٌ أُخرى من عبدة الكواكب والشمس والقمر التي تمثل أنواعاً من الوثنيّة، وإلى جانب هذه الطائفة هناك اليهود والنصارى والمجوس، وقد شهدت كل طائفة منهم انحرافاً عقائدياً؛ فالمجوس قالت بإله الخير والشر؛ وقد انطوت المجوسيّة التي قد تكون في بدايتها منسوبة لبعض الأنبياء على خرافات بجمّة، حتّى ذهب بعض المحقّقين إلى أنّهم يعتقدون بإله الخير وإله الشرّ اللّذين تقاطلا حتّى تدخلت الملائكة فأصلحت ذات بينهما بشرط تفويض العالم السفليّ لإله الشرّ مُدّة سبعة آلاف سنة (ويُفوّض العالم العلويّ لإله الخير)^(١).

بينما ابتليت النصرانيّة بالتثليث (الأقانيم الثلاث) كما حرّفت اليهود كتاب التوراة وشحنته بالانحرافات والخرافات التي لا يسعنا الخوض فيها في هذه الأبحاث، فقد أوجز الإمام جميع هذه الطوائف في ثلاث:

الأولى: المشبّهة التي جعلت لله شريكاً؛ كالمجوس والنصارى، أو أولئك الذين يجعلون لله صفات المخلوقين كاليهود^(٢).

الثانية: أولئك الذين عدلوا باسمه إلى غيره؛ كأغلب الوثنيين الذين أسَمَوْا أوثانهم بأسماء الله سبحانه فجعلوهم شفعاءهم عند الله^(٣).

الثالثة: أولئك الذين عبّدوا غير الله؛ كالدهرية التي تعتقد بأنّ الطبيعة هي خالقة الوجود^(٤)، أو عبدة الأصنام والكواكب والشمس والقمر التي

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة، البحراني: ١/ ٢٠٥-٢٠٦، هذا الكلام للبحراني في هذا المبحث، ولكن الشيرازي نقله بتصرف.

(٢) للمزيد من التفصيل ينظر: الملل والنحل، الشهرستاني: ١/ ١٠٣-١٠٦.

(٣) للمزيد من التفصيل ينظر: الملل والنحل: ٣/ ٨٠.

(٤) للمزيد من التفصيل ينظر: الملل والنحل: ٣/ ٧٩.

ترى الأصالة للكواكب والأصنام؛ أي تراها هي الله^(١)، أجل لقد بُعث رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ظلّ هذه الأوضاع ليحمل مشعل الهداية ويُضيء الظلمات بنور القرآن، لقد أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) تلك الأمم بأسمى مفاهيم التوحيد وأعظم المعارف والعلوم وأرصن الصفات الإلهية؛ حيث جاءهم بالحنيفية السمحاء الخالية من الأساطير والخرافات والانحرافات التي سادت سائر الأديان، ولم تهدف قوانينه وتعاليمه سوى إلى حماية المحرومين والمستضعفين وبسط العدل والقسط، وحتى أوجز القرآن الكريم وظيفته في إنقاذ الأمة من الضلال المبين وتعليمها الحكمة وتهذيب نفوس أبنائها: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢).

نعم لقد ظهرت معالم الدين الحقّ بظهور هذا النبيّ الكريم (صلى الله عليه وآله) وانهارت الأساطير والخرافات لتشهد البشرية عصرها الجديد؛ الحقيقة التي أذعن لها الأعداء فضلاً عن الأصدقاء والفضل ما شهدت به الأعداء؛ فقد تناول الكاتب الإنجليزي المعروف برناردشو هذا الأمر ليصف دين محمد (صلى الله عليه وآله) بأنه الدين الوحيد الذي يصلح لقيادة البشرية ويتكيف مع حياتها على مدى التاريخ؛ بحيث يسعه استقطاب جميع الشعوب والأقوام، كما ذهب إلى القول بأن محمداً (صلى الله عليه وآله) منقذ البشرية جمعاء، ولو قدّر لزعيم على غراره أن ينهض بقيادة العالم اليوم لتغلب على كافة المشاكل التي تُعاني منها الإنسانية ولقادها إلى السعادة والسلام، فمحمد

(١) للمزيد من التفصيل ينظر: الملل والنحل: ٣/ ١٠٣-١٠٤.

(٢) الجمعة، الآية: ٢.

أكمل إنسان عرفه الماضي والحاضر، ولا يتصور أن يجود الزمان بمثله في المستقبل^(١).

المسألة الثانية: نتائج البحث:

اشتمل البحث على عدد من النتائج - بحمد الله تعالى - ضمن سبعة مطالب معرفية حول بعث النبي (صلى الله عليه وآله)؛ فكانت على النحو الآتي:

المطلب الأول: قوله (عليه السلام): «إلى أن بعث الله سبحانه محمداً، (صلى الله عليه وآله) لإنجاز عِدته، وتَمَامِ بُبُوته».

وقد أرشد النص الشريف إلى بيان أمور عدة، وهي:

أولاً- السياق المعرفي العام لأصل بعث الأنبياء (عليهم السلام).

أي استمراره (عليه السلام) بعرض السياق المعرفي العام في بيان الأصل الذي من أجله جعل الله النبوة في آدم ومن اصطفاهم من ولده عبر تحقيق خلافة الله في الأرض وما ارتبط بمسيرهم وتكاليفهم الشرعية «إلى أن بعث الله سبحانه محمداً، (صلى الله عليه وآله)».

ثانياً- يرشد قوله (عليه السلام): «لإنجاز عِدته وتَمَامِ بُبُوته» إلى أمرين:

١- رجوع (الهاء) إلى الله تعالى؛ فقد جعل عِدتهم ثابتة؛ وذلك لعلمه عز وجل بخلقهم وما تؤول إليه أمورهم في الحياة والموت؛ وهذا يكشف عن تقديره سبحانه لعمر الدنيا وما تحتاجه الخليقة من الأنبياء (عليهم السلام).

(١) نفحات الولاية: ١٥١-١٥٤.

٢- رجوع (الهاء) إلى النبي (صلى الله عليه وآله) ليكون هو المعنيّ بإنجاز ما أعدّه الله للأرضِ ومَن عليها مِنَ الخيرِ المكنونِ في الخلافة.

ثالثاً- تحقيق الحديث المنسوب للنبيّ (صلى الله عليه وآله) في بدء بعثته: «يا خَدِجَةُ قَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ خَالَطَ عَقْلِي شَيْءٌ» الذي أورده الشارح النقيوي (رحمه الله).

والحديث يرد عليه جملة من الإشكالات؛ وذلك لامتلائه بالمغالطات، فضلاً عن الإساءة لله ورسوله (صلى الله عليه وآله) وأمّ المؤمنين خديجة (عليها السلام)، وهي:

١ - إنها تظهر النبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله) -والعياذ بالله- مُضطرباً وخائفاً وغير مؤهلٍ لحمل الرسالة.

٢- إن الرواية تجعل من أمّ المؤمنين (عليها السلام) أَرْبَطَ جَاشِأً وَأَصْلَبُ نَفْسًا وَأَقْوَى يَقِينًا بالله تعالى من الرسول؛ وذلك لتشخيصها المؤهلات التي يحملها النبيّ (صلى الله عليه وآله) في جملةٍ من الخصال الحميدة التي تدفع عنه البلاء بالجنون.

٣- بل الأدهى من ذلك إنّها (عليها السلام) تذهب إلى أبي بكر تستشيريه في أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله)؛ ولا نعلم أين كان عنه عمّه أبو طالب (عليه السلام)!!؟

٤- بل الأعجب من ذلك أن ورقة بن نوفل قد نزل عليه القرآن قبل النبيّ (صلى الله عليه وآله) ويشهد على ذلك، فهل هو مصادفة أم من خِيَلَةِ الراوي؟

٥- بل الأغرب ما في الرواية من المغالطات أن ورقة يشهد للرسول بأنه النبي الذي بشر به عيسى ثم يبقى على نصرانيته؛ وذلك لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): «رَأَيْتُ الْقَسَّ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ ثِيَابٌ خُضْرٌ!!»
ومن ثم: لا صححة لما رواه ابن أبي شيبة الكوفي في هذا الشأن.

رابعاً- تحقيق الحديث الذي روته عائشة في قول النبي (صلى الله عليه وآله): «زَمَّلُونِي زَمَّلُونِي، فَوَاللَّهِ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى عَقْلِي» وفي لفظٍ آخر: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي».

والحادثة التي وردت بهذه الألفاظ تركز على إظهار جملة من الأمور التي أريد منها عرض صورة مشوهة عن سيد الأنبياء والمرسلين (صلى الله عليه وآله) ومسيئة له ولأمم المؤمنين خديجة (عليها السلام) في أهم مرحلة من مراحل الإسلام؛ وهي على النحو الآتي:

الأمر الأول: مهام أم المؤمنين خديجة (عليها السلام) في بدء البعثة كما يرويه البخاري.

تعددت الأحاديث الواردة في صحاح المسلمين وهي تروي كيفية تلقي النبي المصطفى [صلى الله عليه وآله] للوحي، واختلفت الصورة لدى الباحث والقارئ للسيرة النبوية حينما يقرأ هذه الحادثة، كعصر جبرائيل (عليه السلام) لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى بلغ منه الجهد؟! (١)
فضلاً عن جملة من الصور البشعة والتي توحى للقارئ بأن النبي الأعظم

(١) صحيح البخاري: باب كيف كان بدء الوحي، ج ١ / ٣.

(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يظنُّ بنفسه أنَّه مجنون إلى المستوى الذي يُحاول فيه الانتحار!!

أو أنَّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان لا يهتدي -والعياذ بالله- لتشخيص هويَّة المتكلِّم معه؛ فلم يُفرِّق بين ما يسمعه أرحمائيُّ هو أم شيطانيُّ!!
الأمر الثاني: حقيقة مهامِّ أمِّ المؤمنين خديجة (عليها السلام) في بدء البعثة تختلف عمَّا يرويهِ البخاريُّ ومسلمٌ من شُبهات.

وقد ناقشنا فيه المطالب الآتية:

أولاً: توهمُ سُراح البخاريِّ في دلالة قول خديجة (عليها السلام): «كَلَّا».

ثانياً: دلالة قولها: «أَبَشِرُ» يُراد به التصديق بالنبيِّ (صلى الله عليه وآله).

ثالثاً: أقالت: «لا يحنك» أم «لا يُحنك» التي هي في مقام الذمِّ كما يروي البخاريُّ!!؟

رابعاً: مؤازرتها للنبيِّ (صلى الله عليه وآله) في أمر التصديق، كان من فعل الأنبياء كما نصَّ عليه القرآن الكريم.

المطلب الثاني: قوله (عليه الصلاة والسلام): «مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِثَاقُهُ» ويُرشد إلى أمرين:

الأول: إنَّ الله تعالى جعله في ذروة مقام النبوة والرسالة، ولاسيما أولي العزم (عليهم السلام)؛ فكان الميثاق المأخوذ عليهم هو الإقرار بسيادته عليهم وأثمَّ ينهلون من فيضه وفضله، بمعنى: إنَّه الواسطة في العطاء النازل من الله تعالى إليهم، وقد دلَّ عليه قول أمير المؤمنين (عليه السلام):

«فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبَّنَا وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا»^(١).

الثاني: إن دلالة الميثاق المأخوذ على الأنبياء هو الإسلام؛ وذلك أن جميع الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى كانوا يدينون لله به، وقد تضافرت الآيات المباركة في بيان ذلك.

المطلب الثالث: قوله (عليه الصلاة والسلام): «مَشْهُورَةٌ سِمَاتُهُ» ويُرشد إلى أمور؛ منها:

أولاً: المراد من الشهرة اختصاصها بين الأنبياء (عليهم السلام).

المراد من الشهرة في سِمَاتِهِ؛ أي علاماته عند الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) الذين سبقوه؛ وذلك بدلالة ما سبق من قوله (عليه السلام): «مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ»، فتكون سِمَاتِهِ مشهورة عندهم.

ثانياً: إن الشهرة في سِمَاتِهِ لِقَطْعِ الْحُجَّةِ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ.

إن هذه العلامات مشهورة في زمانه (صلى الله عليه وآله)، وقبل بعثه، وذلك لِقَطْعِ الْحُجَّةِ عَلَى النَّاسِ فِي نَكَرَانِهِ، والاهتداء إليه.

ثالثاً: انقسام السِمَاتِ المشهورة إلى قسمين.

إن هذه السِمَاتِ تنقسم إلى قسمين:

الأول: كونيّة، أي قبل مبعثه، كبيانه (صلى الله عليه وآله) لبعض منها، فيقول: «إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ لِحَاتِمِ النَّبِيِّينَ، وَأَنَّ أَدَمَ لَمُنْجَدِلٍ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنْبِتُكُمْ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةِ عِيسَى قَوْمَهُ، وَرُؤْيَا أُمِّي

(١) نهج البلاغة، تحقيق صلاح الفرطوسي: ٣٤٨/٢.

الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ»^(١)، وغيرها لكثير.

الثاني: شخصية؛ أي إن هذه العلامات المشهورة بين الناس كانت تكمن في سياته الشخصية التي اشتهر بها كسمة (الصادق الأمين)، وغيرها.

رابعاً- لا صححة لما رواه التستري في ترغيب ورقة بن نوفل لأم المؤمنين خديجة (عليها السلام) من الزواج بالنبي (صلى الله عليه وآله)، فهو وإن تناقلته الأعلام عن ابن هشام في السيرة إلا أنه لا صححة له.

المطلب الرابع: قوله (عليه الصلاة والسلام): «كريمًا ميلاده» ويرشد إلى أمور، منها:

أولاً- لم يولد النبي (صلى الله عليه وآله) من سفاح.

تناول الشراح النص الشريف بمزيد من البيان فيما يرتبط بنسب النبي (صلى الله عليه وآله) بوصفه طريقاً إلى بيان كرم مولده، فضلاً عن بيان ما تعلق بساعة مولده وآثارها الفلكية، إلا أنني وجدت أن قصديّة النص تكمن في بيانه (عليه السلام) لطيب مولده، وأنه طاهر الآباء والأمهات من لدن نبي الله آدم (عليه السلام) إلى والديه عبد الله وآمنة (عليهما السلام)، فهو لم يولد من سفاح، وإنما من نكاح.

ثانياً- إشكالية حديث إرضاع حليلة السعدية للنبي (صلى الله عليه وآله).

مما أورده الشارح النقوي (رحمه الله) حديث إرضاع حليلة السعدية للنبي (صلى الله عليه وآله)، إلا أن الرواية يُعارضها أمورٌ فكرية وعقدية وشرعية، وهي على النحو الآتي:

(١) المستدرک علی الصحیحین: ٦٠٠/٢

١- إن العقيدة الثابتة في النبي (صلى الله عليه وآله) توجب ملازمة حرمة قبل البعثة وبعدها، حياً وميتاً، ويجب على المسلم أن يتجنب كل ما يمس حرمة ويقبل من شأنه، ومنها إطعامه من لبن امرأة مشرقة ليشب عليه.

٢- إن إرضاعه (صلى الله عليه وآله) من امرأة مشرقة مخالف للنصوص الشريفة الكاشفة عن الكراهة الشديدة في استرضاع المشرقة؛ وذلك أن حاله قبل النبوة لا يختلف عن حاله بعدها في سماته وأخلاقه وأفعاله وأقواله، وحسبنا في ذلك قول أمير المؤمنين (عليه السلام):

«وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ»^(١).

٣- بل كيف يصح الاعتقاد بإرضاعه (صلى الله عليه وآله) من مشرقة وقد أكرم الله تعالى نبيه موسى (عليه السلام) وحرّم عليه المراضع وردّه إلى أمّه كي ترضعه، ويترك سيّد أنبيائه ورسله بيد المشركات يُرضعنه، فقال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)!

٤- ممّا لا ريب فيه أنّ العلوم الطبيّة الحديثة ولاسيما الطبّ الغذائيّ قد توصل إلى كثير من النتائج التي تُظهر أثر الغذاء على تكوين جسم الإنسان ونفسيته؛ ممّا يُشكّل عاملاً أساسياً في صحّة الإنسان وسلامة عقله ونفسه

(١) نهج البلاغة، تحقيق صلاح الفرطوسي: ٢/ ٢١٢.

(٢) القصص، الآية: ١٢-١٣.

وجسمه، فكيف إذا كان هذا اللبن نجسًا؟

٥- كيف يطمئن عبد المطلب (عليه السلام) إلى تلك المرأة فيسلمها النبي (صلى الله عليه وآله) لتأخذه إلى قومها شهرًا عِدَّة وقد تربص به الكهنه واليهود؟ ومن ثم فإن إرساله إلى جهة مخوفة بالمخاطر معارض للحكمة وسيرة العقلاء.

ومن ثم لا يصح أمر إرساله (صلى الله عليه وآله) إلا إذا قيّد ببقاء حليلة السعدية في بيت عبد المطلب وتحت ناظره، تأكل من طعامه، وتُسقى من ماء زمزم، وأنها كانت على ملة إبراهيم (عليه السلام)؛ لرفع الكراهة عن إرضاعها للنبي (صلى الله عليه وآله) وعدم المساس بحرمته وشأنيته.

وأن مرضعته أمه آمنة بنت وهب (عليها السلام)، كما أرضعت أم موسى ولدها الكليم (عليهما السلام)، وكما أرضعت مريم ولدها عيسى (عليهما السلام).

ثالثًا- تحقيق حديث شق بطن النبي (صلى الله عليه وآله) وإخراج علقة سوداء منه.

ومما أورده الشارح النقوي (رحمه الله) في ولادة النبي (صلى الله عليه وآله) حديث شق بطنه الذي روته حليلة السعدية عنه، أنه قال: «جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقَّا بطني فالتمسا فيه شيئًا لا أدري ما هو».

وغيرها من الألفاظ التي لا نعتقد بصحتها، وأنها مما تزلف بها الرواة للخلفاء، بقصد أو بغيره، فهي جميعها تُسيء للنبي (صلى الله عليه وآله)؛ وذلك لجملة من الأمور، منها:

١- أَنَّهُ وُلِدَ نَاقِصًا غَيْرَ تَامٍّ مِنَ الْعُيُوبِ؛ وَهَذَا مُشْكِلٌ شَرْعًا.

٢- إِنَّ «فِيهِ مِنَ الْغِلِّ وَالذَّنَسِ»!! وَفِي لَفْظِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ: (إِنَّ فِي قَلْبِهِ عِلْقَةٌ سَوْدَاءٌ هِيَ حِظُّ الشَّيْطَانِ)!! - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَيَوْلَدُ سَيِّدَ الْخَلْقِ وَفِيهِ الْغِلُّ وَالذَّنَسُ وَحِظُّ الشَّيْطَانِ!!

٣- الظاهر أن هذه النصوص والروايات يراد منها إظهار منقبة لأبي بكرٍ وعمر؛ وذلك لما رواه ابن سعد في الطبقات، قال: «جاءت ظئر النبي (صلى الله عليه وآله) إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فبسط لها رداءه...» إلخ الرواية. ومن ثم: إن جميع ما علق بمولده (صلى الله عليه وآله) من النصوص الحديثية والتاريخية هو مخالف لقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «كريمًا ميلاده».

المطلب الخامس: قوله (عليه الصلاة والسلام): «وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مَلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَشْرِبَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ» يُرْشِدُ إِلَى أُمُورٍ مِنْهَا:

أولاً- بيانه (عليه السلام) لما شاب الفترة الزمنية التي بُعث فيها النبي (صلى الله عليه وآله).

إنَّ مَّا لَا رَيْبَ وَلَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَتَحَدَّثُ عَنِ الْفِتْرَةِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتِي بُعِثَ فِيهَا النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) وَمَا شَابَهَا مِنَ الضَّلَالِ وَالشُّبُهَاتِ وَالانْحِدَارِ الْفِكْرِيِّ فِي تَعَدُّدِ الْوَثْنِيَّةِ وَأَشْكَالِهَا وَأَنْوَاعِهَا وَالَّذِي لَمْ يُرَلِّهِ مِثْلٌ فِي زَمَنِ مِنَ الْأَزْمَنَةِ الَّتِي سَبَقَتْهُ.

ثانيًا- بيان سمات الاختلاف بين عصر النبي (صلى الله عليه وآله) والعصور السالفة.

إنَّ الاختلاف بين عصر النبي (صلى الله عليه وآله) والعصور السالفة، هو أنَّ هذه الملل والمعتقدات والمذاهب لم تكن محصورة في فئة محدَّدة من الناس كما هو حال الأنبياء (عليهم السلام)؛ ومن ثمَّ لم يكن الأمر عالميا كما هو حال النبي (صلى الله عليه وآله)، فقد أرسله الله لجميع أهل الأرض، ومن ثمَّ فالعلاج لا ينحصر بمكان أو فئة أو ملَّة أو معتقد، بل عام وشامل لجميع أهل الأرض.

ثالثًا- بيانه (عليه السلام) لجُهد النبي (صلى الله عليه وآله) الذي يتناسب مع بعثته لأهل الأرض ومعتقداتهم.

إنَّ الأمر الأساس الذي يُرشد إليه النَّصَّ الشريف هو بيان الجهد الذي بذله رسول الله (صلى الله عليه وآله) في التبليغ وإرشاد الناس وهدايتهم، والتي عبَّرَ عنها القرآن الكريم بـ(المنَّة)؛ وذلك لإخراجهم به (صلى الله عليه وآله) من الضلال المبين.

المطلب السادس: قوله (عليه الصلاة والسلام): «فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ» يُرشد إلى أمور؛ منها:

أولاً- في قصديَّة الهداية في النَّصَّ الشريف.

إنَّ الهداية هنا عامَّة ومُطلقة غير مُقيَّدة أو محصورة بمكان أو زمان؛ وذلك بقريظة «أهل الأرض» الذين بُعث فيهم، فجميعهم سيهديهم الله تعالى به (صلى الله عليه وآله).

ثانياً- في دلالة الإنقاذ في النص الشريف.

إن إنقاذهم بالنبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) يقتضي أن يكون متلازماً مع دوام أمره في هداية الناس؛ وهذا يقتضي أيضاً أن يكون الإسلام والشريعة التي بُعث بها غالباً على أهل الأرض، وهذا لا يتحقق إلا عبر أهل بيته (عليهم السلام).

ثالثاً- ملازمة الهداية والإنقاذ للناس.

ما زال الناس تائهين في الضلالة ومغرقين في الجهالة ما لم يتمسكوا بالثقلين: كتاب الله وعترة النبيِّ أهل بيته (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

المطلب السابع: قوله (عليه الصلاة والسلام): «ثُمَّ اخْتَارَ سَبْحَانَهُ لِحَمْدِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، فَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مُقَارَنَةِ البُلُوَى، فَكَبَّضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)» يُرشد إلى أمور، منها:

أولاً- دلالة «الاختيار» في النص الشريف تُرشد إلى أن موت المعصوم يختلف عن موت بني البشر.

يُرشد قوله (عليه السلام): «ثُمَّ اخْتَارَ سَبْحَانَهُ لِحَمْدِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِقَاءَهُ» إلى بيان سِمَةٍ من سِمَاتِ المعصومين؛ سواء كانوا أنبياء أو مرسلين أو أئمة (سلام الله عليهم أجمعين)، وهي سِمة التسليم لما يختاره الله تعالى لهم في الحياة والممات.

ثانياً- دلالة الرضا الذي أعدّه الله تعالى لرسوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) في النص الشريف.

ينتقل بنا النَّصَّ الشريف إلى بيان سِمة أُخرى من سِمات رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) والتي تواشجت وَاَتَسَقَّتْ مع الوحي في مُحْكَم التَّنْزِيلِ؛ وهي أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَعَدَّ لَهُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) فِي الْآخِرَةِ مَا يُرْضِيهِ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَحْضُ بِهِ مَخْلُوقٌ قَطُّ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ سِوَى حَبِيبِهِ الْمُصْطَفَى (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ).

ثالثاً- دلالة كرم الله لنبيه في وفاته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ).

ينتقل بنا النَّصَّ الشريف إلى بيان حقيقة أُخرى من الحقائق المرتبطة بمنزلة النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، فَضْلاً عَنِ الْمَنْزِلَةِ الدُّنْيَا بِالْقِيَاسِ إِلَى الْآخِرَةِ، وَهِيَ كَرَمُهُ تَعَالَى لَهُ عِنْدَ الْمَمَاتِ.

رابعاً- دلالة النَّصَّ الشريف في «وَرَغِبَ بِهِ عَنِ مُقَارَنَةِ الْبُلُوَى».

يُرْشِدُ النَّصَّ الشريف إِلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى عَدِلَ بِالنَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عَنِ الدُّنْيَا وَأَعْرَضَهُ عَنْهَا، فَلَمْ يَرْغَبْ بِهَا لَهُ مُقَامًا بَعْدَ أَنْ أَدَّى مَا بَلَغَ بِهِ صَادِعًا بِأَمْرِ رَبِّهِ.

خامساً- «مُقَارَنَةِ الْبُلُوَى» بالدُّنْيَا.

إِنَّ مِقَارَنَةَ النَّصَّ الشريفِ الْبُلُوَى بِالْأَنْبِيَاءِ عَائِدٌ إِلَى أُمُورٍ مِنْهَا:

١- إِنَّ قَصْدَ الْبُلُوَى فِي النَّصَّ الشريفِ يَعُودُ إِلَى (الدُّنْيَا) فَهِيَ مَحَلُّ الْبُلُوَى؛ وَذَلِكَ بِوَصْفِهَا مَحَلُّ التَّرْزِينِ، وَكُلُّ زِينَةٍ هِيَ ابْتِلَاءٌ.

٢- إِنَّ قَصْدَ النَّصَّ فِي الْبُلُوَى يَعُودُ إِلَى وَقُوعِ الْفِتَنِ؛ وَلَا سِيَّامًا أَنَّ أَشَدَّ مَا يَبْتَلُونَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) هُوَ انْقِلَابُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ، وَقَدْ أَخْبَرَ

الله تعالى عن ذلك في غير موضعٍ من التنزيل، وقد أخبر النبيّ (صلّى الله عليه وآله) عن هذه البلوى التي تقع في الأمة بعد وفاته؛ ومن ثمّ فقد «رَغِبَ» الله تعالى «بِهِ عَنِ مُقَارَنَةِ الْبَلْوَى» في أحاديث الحوض.

سادساً- دلالة قوله (عليه السلام): فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)».

ينتقل بنا النصُّ الشريف إلى بيان حقيقة أُخرى في سماته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) وهي انتقاله إلى رَبِّهِ وَقَبْضِ رُوحِهِ الْمُقَدَّسَةِ، وقد كشفت النصوص الشريفة عن بيان المراسيم الإلهية الخاصة التي باشرت قَبْضَ رُوحِ سَيِّدِ الْخَلْقِ لِقَاءَ بَارِئِهَا حَيْثُ مَوْطِنُهَا وَمَنْشَأُهَا وَمَحَلُّهَا.

تَمَّ بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى وَسَابِقِ لُطْفِهِ وَفَضْلِهِ وَفَضْلِ رَسُولِهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١).

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

في الليلة التاسعة من شهر رمضان المبارك - ١٤٤٦ هـ

الموافق: الثامن من شهر آذار - ٢٠٢٥ م

كربلاء المقدسة

المشرف بالخدمتين

العتبة الحسينية المقدسة وكتاب نهج البلاغة

السيد نبيل الحسيني الكربلائي

(١) هود، الآية: ٨٨.

(٢) البقرة، الآية: ١٢٧.

المحتويات

٧	المقدمة
١١	المبحث الثامن: بعثة النبي (ﷺ)
١٣	القسم الأول: «المدخل إلى المبحث»
١٣	المسألة الأولى: سند النصّ
١٣	المسألة الثانية: موارد النصّ ومصادره
١٥	المسألة الثالثة: مقدّمة الشّراح للنصّ
١٥	أولاً- البحرانيّ
١٦	ثانياً- النّقويّ
٢٤	ثالثاً- مكارم الشيرازيّ
٢٥	رابعاً- السيّد نبيل الحسينيّ
٢٦	المسألة الرابعة: رؤوس الموضوعات في النصّ
٢٩	القسم الثاني: «مطالب النصّ وحقوله المعرفيّة»
٢٩	المطلب الأول: الحقل المعرفيّة في قوله (عليه السلام): «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَتَمَامِ نُبُوتِهِ»
٢٩	المسألة الأولى: المعنى اللّغويّ
٢٩	أولاً- الراونديّ

- ٢٩ ثانيًا- البحرانيّ.
- ٣٠ المسألة الثانية: الإعراب.
- ٣٠ أولًا- المعتزليّ.
- ٣٠ ثانيًا- الخوئيّ.
- ٣٠ ثالثًا- مغنية.
- ٣٠ رابعًا- مكارم الشيرازي.
- ٣٠ خامسًا- مؤسّسة علوم نهج البلاغة.
- ٣١ المسألة الثالثة: أقوال الشراح.
- ٣١ أولًا- الراونديّ.
- ٣١ ثانيًا- البحرانيّ.
- ٣٢ ثالثًا- الخوئيّ.
- ٣٤ رابعًا- مغنية.
- ٣٤ خامسًا- التستريّ.
- ٣٦ سادسًا- النقويّ.
- ٥٦ ثامنًا- السيّد نبيل الحسينيّ.
- ٨١ **المطلب الثاني:** الحقول المعرفيّة في قوله (عليه السلام): «مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ» . .
- ٨٢ المسألة الأولى: المعنى اللُّغويّ.

٨٢	أولاً- الخوئيّ
٨٢	ثانياً- مغنية.
٨٢	المسألة الثانية: الإعراب .
٨٢	أولاً- البحرانيّ
٨٢	ثانياً- مغنية.
٨٢	ثالثاً- مؤسّسة علوم نهج البلاغة.
٨٣	المسألة الثالثة: أقوال الشُّراح .
٨٣	أولاً- المعتزليّ
٨٣	ثانياً- البحرانيّ.
٨٣	ثالثاً- الخوئيّ
٨٧	رابعاً- مغنية .
٨٨	خامساً- التستريّ .
٨٨	سادساً- النقويّ .
٨٩	سابعاً- مكارم الشيرازيّ
٨٩	ثامناً- السيّد نبيل الحسينيّ
٩١	المطلب الثالث: الحقول المعرفيّة في قوله (عليه السلام): «مَشْهُورَةٌ سِمَاتُهُ» .
٩١	المسألة الأولى: المعنى اللُّغويّ .

- أولاً- الراونديّ ٩١
- ثانياً- مغنية. ٩١
- المسألة الثانية: الإعراب ٩٢
- أولاً- البحرانيّ ٩٢
- ثانياً- مؤسّسة علوم نهج البلاغة ٩٢
- المسألة الثالثة: أقوال الشُّراح ٩٢
- أولاً- الراونديّ ٩٢
- ثانياً- البحرانيّ. ٩٢
- ثالثاً- الخوئيّ ٩٢
- رابعاً- مغنية ٩٤
- خامساً- التستريّ ٩٥
- سادساً- النقويّ ٩٨
- سابعاً- السيّد نبيل الحسينيّ ١١٧
- أولاً: المراد من الشُّهرة اختصاصها عند الأنبياء (عليهم السلام). ١١٨
- ثانياً: إنّ الشُّهرة في سِماته لقطع الحُجّة على أهل زمانه ١١٨
- ثالثاً: انقسام السّمات المشهورة على قسمين ١١٨
- رابعاً: لا صحّة لما رواه التستريّ في ترغيب ورقة بن نوفل لأُمّ المؤمنين خديجة (عليها السلام) من الزواج بالنبيّ (صلّى الله عليه وآله) ١١٩

- المطلب الرابع: الحقول المعرفية في قوله (عليه السلام): «كريمًا ميلادُهُ» ١٢١
- المسألة الأولى: المعنى اللغويّ ١٢٢
- أولاً- الراونديّ ١٢٢
- ثانيًا- البحرانيّ ١٢٢
- ثالثًا- الخويّ ١٢٢
- المسألة الثانية: الإعراب ١٢٢
- أولاً- البحرانيّ ١٢٢
- ثانيًا- مؤسّسة علوم نهج البلاغة ١٢٣
- المسألة الثالثة: أقوال الشّراح ١٢٣
- أولاً- الراونديّ ١٢٣
- ثانيًا- البحرانيّ ١٢٣
- ثالثًا- الخويّ ١٢٣
- رابعًا- مغنية ١٢٦
- خامسًا- التستريّ ١٢٦
- سادسًا- النقويّ ١٢٨
- سابعًا- مكارم الشيرازيّ ١٤٩

ثامناً- السيد نبيل الحسيني ١٥٠

أولاً- لم يؤكّد النبيّ (صلّى الله عليه وآله) من سفاح ١٥٠

ثانياً- إشكاليّة حديث إرضاع حلّيمة السعدية للنبيّ (صلّى الله عليه وآله) ١٥١

ثالثاً- تحقيق حديث شقّ بطن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) وإخراج علقة سوداء منه ١٥٥

المطلب الخامس: الحقول المعرفيّة في قوله (عليه السلام): «وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِثْلُ مُتَفَرِّقَةٍ، وَأَهْوَاءُ مُتَشَرِّعَةٍ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٍ، بَيْنَ مُشَبَّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحَدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ» ١٥٨

المسألة الأولى: المعنى اللّغويّ ١٥٨

أولاً- الراونديّ ١٥٨

ثانياً- الخوئيّ ١٥٩

ثالثاً- مغنية ١٥٩

رابعاً- مكارم الشيرازيّ ١٦٠

المسألة الثانية: الإعراب: ١٦٠

أولاً- البحرانيّ ١٦٠

ثانياً- الخوئيّ ١٦٠

ثالثاً- مغنية ١٦١

رابعاً- مؤسّسة علوم نهج البلاغة ١٦٢

المسألة الثالثة: أقوال الشّراح ١٦٢

- أولاً- البيهقيّ ١٦٢
- ثانياً- الراونديّ ١٦٣
- ثالثاً- الكيذريّ ١٦٤
- رابعاً- المعتزليّ ١٦٤
- خامساً- البحرانيّ ١٦٨
- سادساً- الخوئيّ ١٧١
- سابعاً- مغنية ١٧٣
- ثامناً- التستريّ ١٧٤
- تاسعاً- النقويّ ١٨٠
- عاشراً- مكارم الشيرازيّ ١٩٥
- حادي عشر- السيّد نبيل الحسيني ١٩٥
- أولاً- بيانه (عليه السلام) لِمَا شاب الفترة الزمنية التي بُعث فيها النبيّ (صلى الله عليه وآله) .. ١٩٥
- ثانياً- دلالة قوله (عليه السلام): «وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ» في تحديد سمات الاختلاف بين عصر النبيّ (صلى الله عليه وآله)، والعصور السالفة ١٩٦
- ثالثاً- بيانه (عليه السلام) لجهد النبيّ (صلى الله عليه وآله) الذي يتناسب مع بعثه لأهل الأرض ومعتقداتهم ١٩٧
- المطلب السادس:** الحقول المعرفيّة في قوله (عليه السلام): «فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ» ١٩٩

- المسألة الأولى: المعنى اللُّغويّ ١٩٩
- أولاً- الخوئيّ ١٩٩
- ثانياً- النقويّ ١٩٩
- المسألة الثانية: الإعراب ٢٠٠
- أولاً- الخوئيّ ٢٠٠
- ثانياً- مؤسّسة علوم نهج البلاغة ٢٠٠
- المسألة الثالثة: أقوال الشّراح ٢٠٠
- أولاً- الراونديّ ٢٠٠
- ثانياً- البحرانيّ ٢٠١
- ثالثاً- الخوئيّ ٢٠١
- رابعاً- التستريّ ٢٠١
- خامساً- النقويّ ٢١١
- سادساً- مكارم الشيرازيّ ٢٤٥
- سابعاً- السيّد نبيل الحسينيّ ٢٤٥
- أولاً- في قصديّة الهداية في النّصّ الشريف ٢٤٥
- ثانياً- في دلالة الإنقاذ في النّصّ الشريف ٢٤٥
- ثالثاً- ملازمة الهداية والإنقاذ للناس ٢٤٧

المطلب السابع: الحقول المعرفية في قوله (عليه السلام): «ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمَحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، فَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مُقَارَنَةِ البَلْوَى، فَقبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)» ٢٤٨

المسألة الأولى: المعنى اللغوي ٢٤٨

أولاً- الراوندي ٢٤٨

ثانياً- الخوي ٢٤٨

المسألة الثانية: الإعراب ٢٤٨

أولاً- الخوي ٢٤٨

ثانياً- مغنية ٢٤٩

ثالثاً- مؤسسة علوم نهج البلاغة ٢٤٩

المسألة الثالثة: أقوال الشراح ٢٥٠

أولاً- الراوندي ٢٥٠

ثانياً- البحراني ٢٥٠

ثالثاً- الخوي ٢٥١

رابعاً- مغنية ٢٥١

خامساً- التستري ٢٥٢

سادساً- التقوي ٢٥٣

- ٢٧٨ سابغاً- مكارم الشيرازي
- ٢٧٨ ثامناً- السيد نبيل الحسيني
- أولاً- دلالة «الاختيار» في النص الشريف تظهر أن موت المعصوم (عليه السلام) يختلف عن موت بني البشر ٢٧٨
- ثانياً- دلالة الرضا الذي أعدّه الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وآله) في النص الشريف ٢٨١
- ثالثاً- دلالة كرم الله لنبية في وفاته (صلى الله عليه وآله) ٢٨٢
- رابعاً- دلالة النص الشريف في «ورغب به عن مقارنة البلوى» ٢٨٤
- خامساً- «مقارنة البلوى» بالدنيا ٢٨٤
- سادساً- دلالة قوله (عليه السلام): «فقبضه إليه كريماً (صلى الله عليه وآله)» ٢٨٧
- ٢٨٩ **القسم الثالث: خاتمة المبحث ونتائجه**
- ٢٨٩ **المسألة الأولى: أقوال الشراح في خاتمة المبحث**
- ٢٩٣ **المسألة الثانية: نتائج البحث**